

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثالث والثلاثون

تحقيق

الأستاذ إبراهيم شمس الدين

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر وصول أوائل الحاج الذين وقفوا بعرفة في سنة عشرين وسبعمائة

واستهلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة بيوم السبت المبارك، وفي أول ليلة يُسْفر صباحُها عن يوم الاثنين الثالث من المحرم من هذه السنة وصل إلى مصر المحروسة القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة الإسلامية من الحجاز الشّريف بعد أن وقف بعرفة في يوم الجمعة، ولم يبلغنا أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل في مثل هذا التاريخ، وكما وصل الأمير شمس الدين آقْسُنْقُر الناصري شادّ العمائر[1] من الحجاز في سابع المحرم سنة تسع عشرة وسبعمائة - كما تقدم - استعظم الناس ذلك، وكان الناس قبل ذلك إذا أسرع من يحضر منهم بالبِشَارة يصل يوم عاشوراء.

ولما وصل القاضي شمس الدين توجَّهْتُ إليه، وسلَّمْت عليه، وسألْتُه عن خبر سفره في ذهابه وإيابه، فأخبرني أنه ركب من داره بمصر المحروسة في سادس عشر شوال سنة عشرين وسبعمائة، وتوجه إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام، فزاره، وتوجه إلى بيْت المَقْدس، وأقام به أيامًا، وأحرم من بيت المَقْدِس، ووصَل مكَّةَ شَرَّفها الله تعالى، فأقام بها شهرًا كاملاً، ووقف يوم الجمعة بعرفة، وتعجَّل من مِنى في يوم الاثنين ثاني عشر من ذي الحجة، ووصل إلى المدينة النَّبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - في يوم الجمعة السادس عشر من الشهر، فصَلَّى الجمعة،

(١) شدّ العمائر: وموضوعها أن يكون صاحبها متكلمًا في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وهي إمرة عشرة (صبح الأعشى ٤/ ٢٣).

وخرج منها في يوم السبت السابع عشر، وساق على الدَّرْب الشامي مراحل، ثم عطف إلى أيْلَة، ومنها إلى مصر، فكانت مدةُ مسيره من مِنى إلى مصر واحدًا وعشرين يومًا، منها مُقامه بالمدينة النبوية - شرفها الله تعالى.

ومع هذا السَّوْقِ الشّديد، والسّير العنيف، كان من خبره عند وصوله إلى منزله أنه طلب المُيَاومات التي أُنفقَت في غَيْبَته، مما يتعلق بالجيوش، فتصفحها، وتأملها، وشطب منها على حسابه ما يحتاج إلى شطبه، ثم ركب في الثلث الأخير من الليلة المذكورة إلى قلعة الجبل المحروسة، وجلس على بابها إلى أن فتحت بعد طلوع الفجر، ودخلها، وانتهى إلى الأبواب السلطانية، فدخل بعض الجَمَدارية[1] إلى السلطان وأخبره بوصوله، فأنكر السلطان ذلك؛ لخروجه عن العادة. فأعيد عليه القول أيضًا بوصوله، ثم قيل له: إنه قد وصل إلى الباب الشريف، فأذن له، وعجب من سرعة وصوله، وجلس بين يدي السلطان، وباشر وظيفته على عادته لوقته، ثم خُلع عليه في اليوم الثاني من مقدمه. وتأخر وصول نائب السلطنة إلى يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر المحرم، وهذا السوق الذي ساقه القاضي «فخر الدين» ما ساقه حاجّ قبله.

وأما غير الحاج، فبلغني من الثقات أن الشيخ شرف الدين بن القسطلاني - رحمه الله تعالى - لما أرسله الشريف الأمير نجم الدين أبو نمي أمير مكة - شرّفها الله تعالى - منها إلى السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون، وصل إلى قلعة الجبل المحروسة في اليوم الثالث عشر من يوم مسيره من مكة، واجتمع بالسلطان، وقرأ كتابه، وكتب جوابه في يومه. وسأله السلطان عن راحلته: هل يعود عليها إلى مكة؟ فقال: إنها خَلأت[2]، فأمره السلطان أن يختار لنفسه راحلة من الهُجُن السلطانية، فاختار منها هجينًا، وترك راحلته، وركب وعاد في بقية يومه إلى مكة شرّفها الله تعالى بعد مضي اثني عشر يومًا، فكانت مدة غيبته عن مكة منذ ركب منها إلى أن عاد إليها ثلاثة وعشرين يومًا كوامل، ويوم خروجه منها، ويوم دخوله إليها، وهذا ما لم يسمع بمثله، ولا استطاعه أحد قبله، والله أعلم.

---

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وهي كلمة فارسية مركّبة من لفظين: أحدهما: «جاما» ومعناه الثوب، والثاني: «دار» أي ممسك، وأصل الكلمة: جامادار. وكانت تستعمل في العصرين السلجوقي والمملوكي، ويقابلها في العصر العثماني لفظ «الجوخدار» وهو موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٧١، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٩٠).

(٢) خلأت الناقة: إذا بركت ولم تقم، أو حرنت من غير علة.

ذكر إبطال المعاملة بالفلوس العتق[١]، بالقاهرة ومصر، وأعمال الديار المصرية

قد ذكرنا إبطال المعاملة بالفلوس عددًا واستقرارها حسابًا عن كل رطل ثلاثة دراهم، وفي يوم الاثنين العاشر من المحرم توقف أرباب المعايش عن المعاملة بها بهذه القيمة لكثرتها، فرسم بالمعاملة بها حسابًا عن كل رطل درهمين ونصف درهم، فتعامل الناس بها، ثم توقفوا فيها، فلما كان يوم الجمعة الحادي والعشرين من المحرم نودي في المدينتين بالأمر السلطاني بإبطال المعاملة بالفلوس العتق، وأن تكون المعاملة بين الناس بفلوس جدد أمر بضربها بدار الضرب فاضطرب الناس لذلك اضطرابًا شديدًا، وأغلق كثير من أرباب المعايش حوانيتهم. وأبيعت الفلوس في بقية يوم الجمعة، وبكرة نهار السبت كل رطل منها بدرهم واحد ونصف درهم. ووقفت معايش الناس، فإنه لم يكن قد ضرب من الفلوس الجدد الناصرية ما يدور في أيدي الناس. ونودي في المدينتين في بكرة نهار السبت أنه من كان عنده شيء من الفلوس يحمله إلى دار الضرب، ويأخذ ثمنه حسابًا عن كل رطل درهمين، هذا والناس يتعاملون بها فيما بينهم على حسب اتفاقهم بدرهم ونصف، وأقل منه، وأكثر، وأحوال الناس في المعاملة بها على غاية الاضطراب، ثم رسم بالمعاملة بها الرطل بدرهمين، والفلوس الجدد عددًا على العادة القديمة، وخرجت الفلوس الجدد من دار الضرب، وعلى أحد وجهيها اسم السلطان، وعلى الوجه الآخر مثال بقجة مربعة، وزنة كل فلس منها نصف وربع وثمن درهم، فتعامل الناس بذلك إلى شهر رجب من هذه السنة، إلى أن كثرت الفلوس الجدد، وضربها الزغلية[٢]، وخففوا وزنها، فصار الفلس منها زنة نصف درهم، ونحو ذلك، فعاد الناس وتوقفوا في أخذها، فرسم في يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب بالمعاملة بالفلوس الجدد والعُتُق، الرطل بدرهمين ونصف، واستمرت الحال إلى سادس المحرم سنة أربع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره.

(١) الفلوس العتق: كانت الفلوس في مصر على نوعين: أحدهما المطبوع بالسكة، وثانيهما غير المطبوع، وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأصفر أو الأحمر ويعبر عنها بالعتق. والفلس لفظ يوناني معرب، وقد أخذته اليونانية قبلاً عن اللاتينية، ومعناه: كيس النقود، وكذلك يقال عن الدراهم فقد أخذها العرب عن الفارسية «Diram» وهو يوناني في الأصل (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٦٣).

(٢) الزغلية: هم مزيفو النقود، من زَغَل، أي غشّ.

ذكر وصول هدية الملك أبي سعيد بن خربندا[١] ملك التتار إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السَّلامي التاجر إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد، وعلى يده كتاب الملك أبي سعيد ملك التتار، ثم وصلت الهدية في يوم السبت التاسع والعشرين من المحرم من هذه السنة إلى قلعة الجبل، وهي ختمة شريفة ستون جزءًا كبارًا، وخَرْكاه[٢] عظيمة مُكلّلة، وغير ذلك من التحف الجليلة والنفائس، فقبلت الهدية، وجهز السلطان له هدية تليق به.

ذكر تفويض نظر أوقاف الجامع الطولوني للقاضي كريم الدين وكيل الخواص الشريف

وفي شهر ربيع الأول فوّض السلطان نظر أوقاف الجامع الطولوني الذي هو بظاهر القاهرة المحروسة للقاضي كريم الدين عبد الكريم ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها، كان النظر في ذلك على شرط الواقف لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وكان بيده من سنين كثيرة، فرفعت يده الآن عنه.

وكان سبب ذلك أن الوقف ضاق ريعه عن المرتب عليه، فأراد قاضي القضاة اختصار بعض المرتَّبين، ليتسع الريع على من بقي، وعزم على قطع درس الطب وغيره، فقام في ذلك مدرس الطب بالمكان، وهو علم الدين الشوبكي[٣]، وسعى في مباشرة الوقف، ووقع في ذلك تشنيع كثير، وشكاوى ممن حصل الغُرم على توفيرهم، واتصلت الشكاوى بعلم السلطان، ففوّض النظر فيه وفي أوقافه لوكيله المشار إليه، ففعل في أمر الوقف ما لا يتمكن القاضي بدر الدين من فعله ولا يمكِنه، وذلك أنه نجّز توقيعًا شريفًا سلطانيًا بمسامحة الوقف بما على ناحية «منية اندوانة» من عمل الجسور السلطانية وغيرها مما كان يحمل إلى بيت المال، وهو في السنة نحو

---

(١) هو أبو سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، ملك التتار (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٧٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٧).

(٢) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/ ١٤٦).

(٣) علم الدين الشوبكي: هو توما بن إبراهيم الطبيب، كان من أطباء السلطان الناصر (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٢٨).

عشرة آلاف درهم، ووفر جامكية[1] جماعة من المباشرين بشرط الواقف، وتقديرها نحو ذلك، واسترجع جهات من الوقف كانت مؤجَّرة بأجاير شرعية، فأخذها ممن هي في يده بالإيجار الشرعي، وحماها فتميز ريعها، وتحدّث مع السلطان في عمارة الجامع من أموال الخاص، فرسم بذلك، فعمر، ووقف السلطان عليه وقفًا من جهته، وحمى أوقافه المسقفة، ونقل السكان إليها، فحصلت الزيادة فيها جملة في كل سنة، فاتسع المال بهذه الأسباب، وفاض المتحصل عن كفاية المرتبين عليه، وعلم القاضي كريم الدين أنه لا يستحق جامكية النظر التي شرطها الواقف للناظر، وهي في كل شهر أربعمائة درهم، فامتنع من أخذها، وبعثها إلى قاضي القضاة بدر الدين، فردّها ولم يقبلها، فتوفرت هي وجامكية نيابة النظر، وهي في كل شهر مائة درهم، وكان قد تأخر في مدة قاضي القضاة للمدرسين والمعيدين والطلبة خمسة أشهر، فامتنع كريم الدين من صرف ذلك إليهم، لاستقبال مباشرته، واستمر الصرف لهم كل شهر في مستهل الشهر الذي يليه.

ذكر حفر البركة الناصرية

وفي هذه السنة أمر السلطان الملك الناصر بحفر بركة بخط الزهري ظاهر القاهرة المحروسة مساحتها سبعة أفدنة وأن يجري الماء إليها من نهر النيل المبارك، وأن يحكّر ما حولها بنسبة بركة الفيل وغيرها من البرك، وكان في جملة هذه الأرض سبعة أفدنة جارية في وقف، فأمر السلطان وكيله باستئجارها للسلطان بأجرة معلومة، وكانت أرض هذه البركة قبل ذلك مقاطع يقطع منها الطين الإبليز برسم العماير، ثم رمى الناس فيها زبايلهم، فصار في مواضع منها كيمان كثيرة، وفي بعضها حُفر من آثار القطع، ورسم السلطان أنه مهما قطع من أتربة تلك البركة يرمى في البركة المجاورة للميدان التي هي مقاطع الطين الإبليز، وأن يُمهد ويضاف إلى الميدان توسعة له، فحصل الشروع في حفرها في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول، ورسم للأمراء بحفرها، فوزعت عليهم على قدر مراتبهم، وندب الأمراءُ أجنادهم، والأجنادُ غلمانهم، وعملوا بأنفسهم وبأتباعهم، وأخرج كل أمير صَنْجَقَة[2]

---

(١) الجامكية: من الفارسية، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٩).

(٢) الصنجق: من الأعلام، وهي على ثلاثة مراتب: الجاليش، والصنجق، والراية (صبح الأعشى ٥/٤٥٨).

وطبلخاناه[(١)]، وجماله وبغاله، واهتمُّوا بحفرها اهتمامًا عظيمًا، ورتّب السلطان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب مُشِدًّا على حفرها، فنزل بها ولازمها، إلى أن كمل حفرها، ونُجزت في أقرب مدة.

وفي أثناء حفر هذه البركة وقعت حادثة الكنايس، وكان بسبب ذلك من الحوادث ما نذكره إن شاء الله.

ذكر حادثة الكنايس

وفي يوم الجمعة ـ بعد الصلاة ـ التاسع من شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة اجتمع جماعة من الغلمان والعوام والفعلة، الذين كانوا يحفرون البركة المستجدة الناصرية، وتقدموا إلى كنيسة كانت مجاورة للبركة المذكورة، وارتقوا عليها، وحُركت طبلخاناة الأمراء حربيًا، فكان ذلك على صفة الزحف، فهدمها أولئك، ولم يتمكن الأمير ركن الدين بيبرس المندوب لحفر البركة، ولا الأمير شهاب الدين أحمد بن المَهْمَنْدار[(٢)] أمير النقباء من ردِّهم، ولا قدروا على منعهم لكثرتهم، ونهبوا ما كان في الكنيسة بعد تشعيثها بالهدم، وكسرت أبوابها وما كان بها من الأواني، وأريق ما بها من الخمور.

---

(١) الطبلخاناه: معناه: بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم (صبح الأعشى ٤/ ١٣).

(٢) المهمندار: هذا اللفظ مركب من لفظين فارسيين أحدهما: مهمن، بفتح الميمين، ومعناه الضيف، والثاني: دار، ومعناه ممسك. والمعنى إجمالاً: القائم على أمره (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٣٤).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠: «النائب» والمراد نائب صاحب الباب المعبَّر عنه في زماننا بالمهمندار. قال ابن الطوير: ويعبّر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة. قال: وهي رتبة جليلة، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقلام، وصاحبها ينوب عن صاحب الباب في تلقّي الرسل الواردين على الخليفة على مسافة وقفة نوّاب الباب في خدمته. ويُنزل كلّاً منهم في المكان اللائق به، ويرتب لهم ما يحتاجون إليه، ولا يمكّن أحدًا من الاجتماع بهم، ويتولى افتقادهم، ويذكّر صاحب الباب بهم، ويسعى في نجاز أمرهم، وهو الذي يسلّم بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم ويستأذن عليهم، ويدخل الرسول وصاحب الباب قابضٌ على يده اليمنى، والنائب قابضٌ على يده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم، ويجتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه، وإذا غاب أقام عنه نائبًا إلى أن يعود، ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرفة إلا بإذن. قال ابن الطوير: هو المسمى الآن بالمهمندار.

ولما اتصل خبر هدمها بالسلطان غضب، لانتهاك حرمة السلطنة، وتجرّي العوام وإقدامهم على هذا الأمر، ثم لم يكتفِ العوام بذلك إلى أن تقدموا إلى عدة كنايس، بالقاهرة ومصر، فنهبوها، ونبشوا قبور بعض أموات النصارى وحرقوهم، وشعّثوا الأبنية، واجتمع بعض عوام مصر، وتوجهوا إلى الكنيسة المعلَّقة، وقصدوا هدمها، فما مُكِّنوا من ذلك، فاشتد حرج السلطان، وأمر بالقبض على من أقدم على ذلك، فمُسك بعض العوام وحُبسوا، واستفتى السلطان القضاة فيما يلزم هؤلاء الذين انتهكوا الحرمة، فأفتوه بتعزيرهم بحسب رأي الإمام، فضُرب بعضهم، وشقّ مناخير بعض، وأخرج من الاعتقال من أرباب الجرائم من وجب عليهم القتل، فوسّط منهم جماعة، وعلقوا في أماكن تخويفًا للعوام، ثم أعقب هذه الحادثة من الفتن ما نذكره.

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر

لما وقع ما ذكرناه من هدم الكنائس، وقع أثر ذلك الحريق بمصر المحروسة، فكان أول ذلك أن احترقت دار الوكالة بالقاهرة في شهر ربيع الآخر، وهي التي عند باب البحر، وتعرف بفندق الخَزّ، فاحترق فيها متاجر الناس من الزيت والعسل والأصناف، فعدِم لهم جملة كثيرة، وظن الناس أن ذلك عن غير قصد، وأنها إنما احترقت على جاري العادة في وقوع النيران في أماكن على سبيل الغلط وعدم التحفظ والاحتراز، ثم سكن ذلك إلى يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى، فوقع الحريق في القاهرة ومصر، وكان أول الحريق بخط حارة الدَّيلم، فاحترقت دار الشريف بدر الدين نقيب الأشراف، وما يجاورها من دور الأشراف والمسلمين، فكان جملة ما احترق من الدور المتجاورات ما ينيف على ثلاثين دارًا يقارب المائة مسكن، واشتدت النار وعظمت، واستمرت بذلك المكان أيامًا، وخيف أن تتصل بدار «القاضي كريم الدين» ناظر الخواص السلطانية ووكيلها، وبها أموال السلطان والأقمشة وغير ذلك من التحف، وهو يوم ذاك بثغر الإسكندرية، فرسم السلطان بركوب الأمراء لذلك، فحضر الأمراء وغلمانهم، والسقائين والقصارين وغيرهم، وركب نائب السلطنة والحجاب وأمير جاندار[1]، وغيرهم من أعيان الأمراء، واجتهدوا في أمر النار إلى أن

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان، ومعناه السلاح، والثاني: دار، ومعناه: ممسك. ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠ حاشية (١): أن الكلمة فارسية مركبة من «جان» ومعناها الروح، و«دار» بمعنى حافظ، والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس.

طفيت، بعد أن هُدم وعُدم بسببها من الدور والأموال والأقمشة والأصناف ما لا تحصى قيمته.

واختلفت الأقاويل، فقائل يقول: إنها من السماء، وقائل يقول: لعلها من قبل الملوك والأعداء، وآخر يقول: إنما فعله البطّالون[١] من الجند والحرافيش[٢] لقصد النهب، وقائل يقول: إنما هو من فعل النصارى. وترادف الحريق، وتوالى، فاحترقت عدة دور من مساكن الأمراء، وكانت النيران تقع في أعالي الدور والباذَهَنْجات[٣]، فاحتفل الناس لذلك وتأهّبوا، واستكثروا من الدِّنان والخوابي، وملئوها ماء، ووضعوها في الطرقات وعلى أبواب الحوانيت والأسواق والقياسير والاصطبلات والدروب والدور، والحريق لا يفتر، وهو لا يقع غالبًا إلا في النهار، وصار الناس يسهرون طول الليل بالنوبة، خصوصًا على دور الأمراء، فإن مماليكهم وغلمانهم كانوا يبيتون على أسطحة دورهم، ويضربون الطبول بازات، ويصرخ بعضهم لبعض، وامتنع كثير من الناس من حضور الجمعة لملازمتهم أسطح بيوتهم.

ولقد صلّيت في بعض الجمع بالجامع الحاكمي مع أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف، وكانت عادته أن يصلي معه من مماليكه وألْزَامه جماعةٌ كثيرة، فرأيت الذين حضروا إلى الجامع نحو الربع ممن كان يحضر، فسألته عن سبب تخلُّفهم عن الحضور، فأخبرني أنه تركهم لحراسة داره خوفًا أن تقع النار فيها، فيتداركوها بالإطفاء قبل تمكُّنِها.

فلما كان في يوم الخميس العشرين من الشهر وُجد ثلاثةٌ من النصارى في حارة العطوف، وقد رموا نارًا في بعض الدور، فما شكّ الناس عند ذلك أن الحريق من النصارى، وانتقلوا من الظن والاختلاف إلى اليقين والإجماع، وضرب هؤلاء وقُرِّروا، فاعترفوا بالحريق، ثم اعتنى بهم، فقيل: إنهم من الفلاحين، وإنهم لم يفعلوا ذلك،

---

(١) البطّال أو الطرخان: هو اصطلاح مملوكي يقصد به الذي يعيش من إقطاعه فقط. وكانت الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية، وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم يعدد فيها من مزاياهم واستحقاقهم (صبح الأعشى ٤٨/١٣ ـ ٥١، ٥٢، ونزهة النفوس ٤٩/١، ١٦٢).

(٢) الحرافيش: هم العامة والرعاع.

(٣) الباذهنجات: من الفارسية: باذ وآهنج أي ساحب الهواء، أو مدخله، وهي نافذة أو فتحة للتهوية (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٣٥).

وإنما أقرُّوا لما حصل لهم من ألم الضرب، فأطلقوا، هذا والسلطان ينكر أن يكون ذلك من فعل النصارى؛ لما يُلقيه إليه من له اعتناء خاص بهم، ويقول المعتنى بهم: النصارى أضعف أبدانًا وقلوبًا من الإقدام على هذا الأمر الكبير، ويستدلون على ذلك ويوجهونه، فيقولون: إن النار غالبًا إنما تقع في رؤوس الباذْهَنْجات، وأعالي الدور، ودور أكابر الأمراء، ومن أين يصل النصارى إلى ذلك؟ فيرجع السلطان إليهم، ويقول: هذا لا يتوصل إليه إلا بالنُّشّاب، وأشاع بعضهم أنه رأى بعض الجند بمصر يرمي النشاب إلى بعض الدور، وأن السهم لما أبعد عن القوس وأصابه الهواء أورى نارًا، وكان السلطان قبل ذلك قد عرض جماعة من الجند، وقطع أخباز جماعة منهم نحو السبعين، واعتقلهم بخزانة البنود لما بلغه عنهم من اللعب والتفريط في إقطاعاتهم، وصرفها في المحرَّمات، فكان اعتقالهم لطفًا بهم، ولو كانوا في بيوتهم ما شكّ السلطان أن هذا من فعلهم، ثم أمسك في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر أربعة من النصارى الروم المَلْكِيين[١] فاعترفوا أنهم أحرقوا الدور والأماكن، ولم يتحاشَوا ولا توقفوا، بل أقروا بذلك من غير ضرب ولا تهديد، وقالوا: نحن فعلنا هذا في مقابلة هدم كنائسنا، ونحن جماعة خرجنا عراة، واعترفوا على رُهبان دير البغل، فأنهى إلى السلطان أن هؤلاء من النصارى العرب الملكيين، وأنهم ليسوا من اليعاقبة[٢] الذين هم نصارى البلاد، وإنما فعل هؤلاء هذا لجهلهم، وحسَّن من له اعتناء باطن بالنصارى وميل إليهم أن يأمر بقتلهم، وإنما قصد تعجيل إعدامهم خشية أن يُقرُّوا على غيرهم، فأمر السلطان بهم، فحُرقوا في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، والسلطان بالميدان.

---

(١) الملكيون: أو الملكانيون: طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، سمّوا بالملكيين لأنهم أيدوا قرار خلقيدونية سنة ٤٥١م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية، ومنهم الروم الكاثوليك الذين يعترفون برياسة بابا روما، والأرثوذوكس الذين لا يعترفون بهذه الرياسة (الموسوعة العربية الميسرة ١٧٤٢).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١١/ ٣٨٧: النصارى الملكية هم أتباع ملكا (المقصود الملك مرقيانوس) الذي ظهر قديمًا ببلاد الروم، وأن الروم والفرنج كلهم أتباعه، وبالديار المصرية منهم النزر اليسير، ولهم بطرك يخصهم.

(٢) اليعاقبة: يدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح، وأكثرهم يذهب إلى أن المسيح جوهر واحد وأقنوم واحد (الموسوعة الميسرة ١٩٨٢).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١١/ ٣٩٠: اليعاقبة قيل إنهم أتباع ديسقرس، وإنه كان اسمه في الغلمانية يعقوب، وقيل: هم أتباع يعقوب البرذعاني، وجميع نصارى الحبشة أتباعه.

ثم قيل للعوام والناس: هؤلاء الذين كانوا يُحرّقون حرّقناهم، فمن احترقت بعد هذا داره فليمسك جاره ونحن نقابله، فاشتد ذلك على الناس، واستغاث العوام، واتهموا القاضي كريم الدين وكيل السلطان بالاعتناء بالنصارى والذّب عنهم، وكان ذلك يظهر عليه، فلما ركب من الميدان بعد الظهر للانصراف إلى داره شغَب جماعة من العوام عليه، واستغاثوا ورفعوا أصواتهم بسببه، ورجموه بالحجارة والطوب، فعطف نحو الميدان، وركض فرسه وخلص منهم، وأنهى ذلك إلى السلطان، فحرج السلطان حرجًا كثيرًا، واشتد غضبه، وانضاف ذلك إلى ما عنده من الحرج على العوام، فإنه لما كان ركب من القلعة إلى الميدان في بُكرة نهار السبت المذكور استغاث العوامُ والحرافيش، وبلغني من جماعة أنهم رفعوا أعلامًا ثلاثة: أحدها أبيض، والثاني أحمر، والثالث عليه صليب، فتغافل السلطان عن ذلك، ولم يأمر فيهم بشيء، فلما وقع منهم هذا الفعل اشتد غضبه، وجَرَّد جماعةً من الحجّاب والنقباء والمماليك حتى أوصلوا كريم الدين إلى داره.

ثم ذكر السلطان هذه الواقعة لأكابر الأمراء كل منهم على انفراده، فبدأ بالأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري[١]، واستشاره فيما يفعل في ذلك، والمذكور رجل تركي جافي الطبع، عديم السياسة، فقال للسلطان: المصلحة أن السلطان يرسل إلى العوام فيقول لهم: يا خُوشْداشيّة[٢] أنتم رعايانا والسواد الأعظم، وإن كنتم قد كرهتم هذا الخنزير عزلناه عنكم، وولينا غيره، ونُطيِّب خواطرهم، فغضب السلطان من كلامه، وشتمه واستقلّ عقله، وسفَّه رأيه، وواجهه بالسب، ونفر في وجهه، وكان من أمره ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

ثم استشار الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي[٣] بعده، ولم يعلم ما قاله الأمير سيف الدين المذكور، ولا ما قيل له، فقال: يا مولانا السلطان، الناس قد كرهوا هذين الرجلين - يشير إلى كريم الدين الوكيل، وكريم الدين الناظر - والمصلحة عزلهما، وصدقات السلطان كثيرة تشملهما في العطلة كما تشملهما في العمل - أو

---

(١) سيف الدين بكتمر الأبوبكري: من أمراء السلاح في دولة الناصر، غضب عليه السلطان سنة ٧٢٢هـ فسجنه بالقلعة، فبقي في السجن إلى أن مات سنة ٧٢٨هـ (انظر الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢).

(٢) الخوشداش، وخشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

(٣) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٣٩٥.

نحو هذا ومعناه من الكلام ـ وإذا عزلهما السلطان سكنت هذه الفتنة، فكره السلطان كلامه أيضًا، لكنه لم يواجهه بما واجه به الأبِي بكري، بل قال له: والله لا بد أن آمر بوضع السيف في العوامّ، وسفك دمائهم، حتى لا يتجرّأ مَنْ بعدَهم من العوام على الملوك.

ثم استدعى الأميرين: سيف الدين بَكْتَمُرَ الحسامي الحاجب كان، وسيف الدين الملك الحاج، وهما من الأمراء الأكابر الخِصِّيصين بخدمة السلطان ويعرفان أخلاقه، ويبتغيان مراضيه، فسايراه بالميدان، فذكر لهما ما فعله العوامُّ بكريم الدين، وقال: هذا الرجل هو وكيلي ووزيري، والمتصرف في دولتي، وحرمته من حرمتي، وقد تجرأ العوام عليه، ورجموه وأخْرقوا حرمته، فما الذي تريان أن أفعله في ذلك؟ فاستعظما فعل العوام، وقالا: لقد وقع العوامُّ في أمر عظيم ما سبقهم أمثالهم إلى مثله، وكان ينبغي أنهم لما فعلوا ذلك أن يُمسك منهم جماعة، ويوقع بهم من النَّكال ما يكُفُّ غيرهم عن التجرِّي والتعدِّي.

فرسم السلطان أن يتوجَّه الحاجب ونقيب النقباء، وجماعة معهم، ويقبضوا على من ظفروا بهم من العوام، فأخبرني الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي المشار إليه قال: والله لما قال السلطان ذلك دخل عليّ وعلى رفيقي من الألم ما عَلِمه الله تعالى، وعلمنا أننا قد تكلمنا بكلام أوجب سفك دماء جماعة من المسلمين، فتلطَّفْنا بالسلطان، وقلنا: إن الذي فعل هذا الفعل، وأقدم على هذا الأمر العظيم علم أنه صاحب ذنب وهرب، واختلط المذنب بالبريء ونخشى أن نُمسك من لا أذنب ولا أقدم على هذا الأمر، فنعاقب البريء بذنب المجرم، فيكون ذلك في ذمة السلطان، ونحن لا نختار هذا، ولكن المصلحة أن يخرج القاضي كريمُ الدين على عادته، وتتفرق جماعة من المماليك السلطانية، فيكونوا بالقرب منه، لعل البعض يتعرض إليه، فيُمسك منهم من فعل ذلك، ويعاقب المذنب حقيقة، ويَسلم البريء، وتبرأ ذمة السلطان، قال: ولم نزل نتلطف به، ونسكن غضبه، إلى أن سكن حرجه بعض السكون.

ولما قرب وقت انصراف السلطان من الميدان أمر الحاجب والنقباء قبل خروجه بضرب العوامّ والحرافيش، وطردهم عن طريق السلطان فيما بين الميدان والقلعة، فطردوا، وركب السلطان إلى القلعة وهو على غاية الحَرَج، والحِدَّة والغضب، وكان قد أمر بالقبض على العوام، فمُسك منهم جماعة كثيرة، فأحضر السلطان القضاة في يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر، واستفتاهم في أمرهم، وأنهم انتهكوا الحرمة،

وتعدَّوْا على وكيله، مع جلالته عنده، ورجموه، فأفتوه بتعزير من ثبت عليه أنه رَجم، فلم يُرضه ذلك، فأمر بقطع أيدي من عُرف بالفساد منهم، فقطعت أيدي أربعة، وجُرِّسوا[١]، ولم يحسم أيديهم، فمات بعضهم، وأمر السلطان أن يقيد بقية من مسك، ويستعملوا في جسور الجيزية، ففعل ذلك بهم، والعوام لا يرتدعون ولا يتركون العاثة.

وفي يوم الأحد المذكور أمسك بالجامع الظاهري ثلاثة من النصارى قد لبسوا العمائم البيض، وتراءوا في زي المسلمين، ودخلوا الجامع، وقصدوا إحراقه، فجيء بهم إلى مُتَوَلّي القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن[٢]، فأنكر على نائبه بالحسينية ـ وهو الذي أحضرهم ـ وقال: من يشهد على هؤلاء أنهم حرقوا ؟ وشتمه، وإنما فعل ذلك رعاية لخاطر من يعتني بهم، فتوجه النائب المذكور، وهجم بيوت هؤلاء النصارى الذين وجدوا في الجامع، فوجد فيها آلات الحريق، وفتايل قد عملت بالزيت والكبريت، وغير ذلك من الأصناف المحرقة، فضرب أولئك ضربًا خفيفًا، فاعترف اثنان، وأنكر الثالث، فاعتُني بهم فأُطلقوا، ولم يُنْه خبرهم إلى السلطان، وقرر عنده أنه لم يحرق من النصارى إلا أولئك الغرب الذين حُرقوا، وهو لا يشك في ذلك.

ولما كان في يوم الاثنين الرابع والعشرين من الشهر جلس السلطان بدار العدل على العادة، وحضر القضاة والأمراء وغيرهم على جاري العادة، فاستفتى القضاة في أن يلبس النصارى العمائم البيض على عادتهم القديمة، وقال: هذا إنما جُدِّد عليهم في أيامي، وقد رأيت أن أعيدَهم إلى ما كانوا عليه، فقالوا له: هذه سُنة كانت أُميتت، وقد أحياها الله تعالى في أيام السلطان، ولا ينبغي إزالتُها، وقال له قاضي القضاة، شمس الدين الحنفي: «مذهب أبي حنيفة[٣] أن السلطان إذا قرر شيئًا على

---

(١) جرَّس بالقوم: سمَّع بهم وندّد، ويقال: جرّس الأمور وجرّسته فعرفها وحنّكته، فهو مجرّس، وأصله أن من يشهّر يجعل في عنقه جرس، ويركب على دابة مقلوبًا، أي وجهه لجهة مؤخرة الدابة.

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٧٢.

(٣) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز مرزبان بن بهرام الإمام الأعظم المجتهد أبو حنيفة الكوفي البغدادي، ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ، وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، توفي سنة ١٥٠هـ. من تصانيفه: «رسالته إلى عثمان البتي قاضي البصرة»، «الفقه الأكبر» وعليه شروح، «كتاب الرد على القدرية»، «كتاب العالم والمتعلم»، «المسند» في الحديث (كشف الظنون ٦/ ٤٩٥).

أهل الذمة فليس له ولا لغيره نقضُه؛ وقرأ له النص في ذلك، فسكت ولم يُرْضِه ذلك.

وكان سبب ذلك أن من له اعتناء بالنصارى حسّن ذلك للسلطان، وقال: إن النصارى يُحَمَّلُون على ذلك مالاً، فتكلم في ذلك فأجيب بهذا الجواب.

ولما انقضى مجلس دار العدل، وانصرف القضاة، وقُدِّم إلى السلطان طعام الطارىء، أخرج الأمير جمال الدين يَغْمور، أحد أستاذداريّة السلطان، من صَوْلَقه فتيلة من الفتائل التي أخذت من النصارى الذين وجدوا بالجامع الظاهري، ورآها الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي[1] أمير جَنْدار[2]، فتقدم بها أمير جاندار إلى السلطان، وعرضها عليه، فسأله عنها، فقال: هذه مما وجد مع النصارى الذين قصدوا إحراق الجامع الظاهري، ولم يكن السلطان أطلع على ذلك، فغضب وسأل عنهم، فقيل: إنهم أطلقوا، فألزم متولي القاهرة بإحضارهم، فأحضرهم، فاعترف اثنان أنهم حَرقوا، وقالوا: إنهم جماعة كبيرة، منهم من يحرق المدينة، ومنهم من خرج إلى الأرياف ليحرق الزروع، وأنكر الثالث، فسلّمه السلطان للأمير سيف الدين «الْدَمُر» أمير جاندار، فقرَّره، فأقر، بالتهديد والتخويف قبل الضرب، واعترف على راهب بالخندق، فما شكّ السلطان عند ذلك في أن الحريق من قبل النصارى اليعاقبة، فغضب عند ذلك، وأنكر غاية الإنكار، ثم قبض على جماعة من النصارى، وجيءَ بهم، وهم يعترفون، ومنهم من اعترف على بعض كُتّاب ومُتَولِّي النصارى أنهم أعانوهم بالمال حتى أقدموا على ذلك، فلم يُزادوا على الاعتقال، لتظافر العناية بهم ممن تقدم إسلامه من القِبْط.

فلما كان في يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر جلس السلطان على العادة، وحضر الأمراء وغيرهم إلى الخدمة، فخاطب السلطان أكبار الأمراء في هذا الأمر، وقال: قد قررت على النصارى مضاعفة الجِزْية فيؤخذ منهم جِزْيَتان، وأمر أن ينادى في المدينتين أن يلبسوا الثياب الزُّرْق مضافة إلى العمائم، وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم، وأن يميَّزوا إذا دخلوا الحمام بجُلْجُل يجعلونه في أعناقهم، وألا يُسْتَخْدَموا في الدواوين السلطانية، ولا في دواوين الأمراء، ولا في الأعمال والبرور، فنودي بذلك.

---

(١) توفي سنة ٧٤٦هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٠٢).
(٢) الجاندار: تقدم التعريف به قبل قليل.

وخرجت الأمثلة الشريفة السلطانية به، وقرئت على المنابر بالمدينتين، وأُنفِذَت إلى العاملين، وتضمن المثال[١] المُجهَّز منها إلى الوجه القبلي الذي قرىء على منابر المدن ما مثاله - بعد البسملة:

«الحمد لله مُظْهِر هذا الدين المحمدي على كل دين، ومؤيد بنا الإسلام وأهله وما حق بنا المشركين، الذي قهر بتأييدنا جميع الأعداء، وحقن بعفونا وحلمنا دماء الكافرين، نحمده على ما أولانا من فضله العميم، ونصره المبين، ونشكره شكرًا نستزيد به من كرمه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصة باليقين، ونشهد أن سيد البشر محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العاملين، وأن عيسى ابن مريم عبده ورسوله الذي بشر بمبعثه، وآمن برسالته قبل ظهور دينه المبين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خصوصًا على مؤيد شرعه أول خلفاء المسلمين، وعلى من فتح البلاد، وضرب الجزية على أهل الكتاب في كل ناد، وأعلن بالتأذين، وعلى من جهز جيش العسْرة وثوقًا بضمان سيد المرسلين، وعلى مُمَزِّق جموع الكفر وجامع شملِ المسلمين، صلاة باقية مستمرة إلى يوم الدين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فإن الله تعالى لما أقامنا لنصرة الإسلام وأهله، وصرفنا في عقد كل أمر وحَلِّه، وأيّدنا بنصره وعصمنا بحبله، لم نزل نعلي كلمة الإيمان، ونُظهر شعائر الإسلام في كل مكان، ونقف عند الأوامر الشرعية، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى، وكَلِمَة الله هي العليا، وكان جماعة من مفسدي النصارى قد تعدُّوا وطمعوا، وتمادوا في المخالفة إلى ما يقتضي نقض العهود، وبغَوا ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح:

---

(١) المثال: أمر دون الفرمان والمنشور، استعمله سلاجقة الروم وكان للوزير عندهم الحق في إصدار المثالات، واستعمله أيضًا الإيلخانيون، فقد كانت المثالات من المحررات التي تعد في ديوان الرسائل، وكان المثال في العصر المملوكي أمرًا يصدر عن ديوان الجيش، بمنع أقطاع أو بتحويله أو بإعادته أو بزيادته. والظاهر في أصل التسمية أنه كان يحرر بترتيب خاص. فمثلًا: كان يعبر عن الإقطاع بكلمة «خبز»، وتكتب في سطر واحد، ثم تكتب بقية الكلام في سطر ثان، ثم تكتب تحته عبارة كذا وكذا دينار، وتكون هذه العبارة بالقلم القبطي، ويوقع السلطان على المثال بكلمة (يكتب) ثم يوقع ناظر الجيش بعبارة (يمتثل الخط الشريف)، وهكذا صار المثال كالورقة التي نسميها اليوم أنموذجًا. وأما عند العثمانيين فلم يكن يفرق بين المثال والفرمان والتوقيع والنشان، بل ربما يجمع بين الفرمان والمثال في عبارة واحدة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١٨٣ - ١٨٤).

٢٢] ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وتعرضوا لرمي نيران أطفأها الله بفضله، ومكروا مكرًا سيئًا ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية، ونجدد عليهم العهود العُمَرية، وأن يقرر على مَن شمله عفونا ممن ضَعُف منهم ضِعْفُ الجزية ما تكون به أنفسهم تحت سيوفنا مُرْتهَنة، ونضرب عليهم في لباسهم وحرماتهم الذِّلة والمسكنة، فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري، لا يزال ناصر الدين بجوده وعَدْله، مظهر دين الحنيفية على الدين كُلِّه، أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلي ضِعْفَ ما عليهم الآن، فيؤخذ من كل نصراني ماليّتان: المستقرة أولاً واحدة، والزيادة نظير ذلك، للخاص الشريف، مهما كان مستقرًا بسائر النواحي في الوجه القبلي في الإقطاع حسب ما قُررت في الرُّوك المبارك الناصري، يكون للمُقطعين، والزيادة الثانية المضاعفة الآن تكون للخاص الشريف، وأن يلبس سائر النصارى عمائم زرقاء، وثيابًا زرقًا، ويشدوا الزنّار في أوساطهم، وألا يُسْتَخدم أحد من النصارى في جهة من الجهات الديوانية، والأشغال السلطانية، وكذلك لا يَسْتَخدِم أحدٌ من الأمراء أحدًا من النصارى عنده، وأن يبطلوا جميعُهم من الجهات التي كانوا يخدمون بها، والحَذَر ثم الحَذَر من أن أحدًا منهم يخرج عما رسمنا به، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قَبَالة ذلك، ولا ينفعه بعدها فدية ولا جزية، ويحسم مادة فسادهم، وينكشف بذلك ما أظهروه من سوء اعتمادهم، فليثبت حُكْم هذا المرسوم الشريف، وليَدخل تحت أمره المطاع كل قوي وضعيف، وليستقر ضرب هذه الجزية استقرارًا بلا زوال، مستمرًا بدوام الأيام والليال، باقية بدوام الأعوام والسنين، مخلَّدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فإنها حسنة ساقها الله تعالى لدولتنا الشريفة ومثوبة، وذخيرة صالحة لم تزل في صحائفنا الطاهرة مكتوبة، ومَعْدَلة نشرها الله تعالى على يدينا في الآفاق، وأجر يكون ثوابه عند الله باق، وسبيل كل واقف عليه ـ واليًا ونائبًا، وحاضرًا وغائبًا، وناهيًا وآمرًا، وشادًا وناظرًا، ومأمورًا وأميرًا، وكبيرًا وصغيرًا ـ الانتهاءُ عند هذا التحذير، فيبادرون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف ويسمعونه، ويسارعون إلى العمل بما فيه وينفذونه، ويقفون عند حكمه ويمتثلونه ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٨١]، والله تعالى يُعْلِي منار الإسلام ويزيده قوة وإظهارًا، ويجعل الدائرة على أعداء الدين، ولا يذر على الأرض من الكافرين ديّارًا، يُعَدُّ الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه، وكتب في سابع عشرين جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة حسب الأمر الشريف.

ولما برز هذا المثالُ، وغيره من الأمثلة، لم يَنفذ حكمها، ولا طُولب نصراني بزيادة، ومُنِع النصارى من المباشرات أيامًا قلائل، وأسلم بعض كتّاب الأمراء، فاستقروا على وظائفهم، ثم استقر سائر المباشرين من النصارى على مباشراتهم، وذلك أن كريم الدين الناظر أنهى إلى السلطان أن جماعة منهم في الأشغال السلطانية، ومتى صُرفوا قبل انتهاء السنة فسدت الأحوال، وتعطلت المصالح، وسأل أن يستمِرُّوا بقية هذه السنة، وينفصلوا بعد رفع الحساب، ووافقه السلطان على ذلك، وتدافعت الأيام فاستمروا.

ولما رُسِم في حقهم بما رُسم، ونودي بما تقدم ذكره، كفَّ عوام المسلمين أيديهم عن النصارى، وظهروا بعد استتارهم، وكان عوامّ المسلمين في هذه الأيام المتقدمة يضربون من ظفروا به من النصارى الضرب الذي يبلغ بهم حد الموت، مع إشهار النداء بالأمر السلطاني ألا يتعرض أحد إلى ذمة السلطان للنصارى، ومن تعرض إليهم بأذِيَّة سُفِك دَمُه، والعوام لا يزيدهم ذلك إلا تماديًا، وحصل للسلطان حرج على العوام شديد، فلما شاع هذا الأمر أمسكوا عنهم.

ونودي في يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأولى ألا يفتح أرباب المعايش حوانيتهم التي على طريق الميدان ما بين الميدان والقلعة في يوم السبت خاصة، وذلك بسبب ركوب السلطان إلى الميدان، وألا تُفتح طاقات الدور التي ينظر سكانها إلى الطريق الذي يسلكه السلطان في مروره إلى الميدان وعَوْدِه، ومنع العوام من الخروج لرؤية السلطان، وركب السلطان إلى الميدان في يوم السبت سلخ الشهر، ولعب بالكرة على جاري عادته.

وفي اليوم المذكور، وقع الحريق بقلعة الجبل في الدار المعروفة بسكن الأمير سيف الدين ألماس الحاجب، وكان ذلك والسلطان بالميدان، ثم طفيت.

وأنكر السلطان على متولي القلعة أشد إنكار كونه أهمل هذا الأمر، وأحضر نائب السلطنة والأمراء الخاصَّكيّة، فاجتمعوا للفكرة في هذا الأمر.

ووقعت النار أيضًا في ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة بقَيْساريّة بقلعة الجبل أيضًا، وهي سكن جماعة من المماليك السلطانية تجاور باب القرافة، ففتح باب القلعة ليلًا، واجتمع الأمراء الذين بالقلعة، والمماليك السلطانية واجتهدوا في إطفائها، فطفيت، وهدم ما حول ذلك المكان من الدروب، ورسم السلطان أن ينتقل مَنْ بالقلعة في المكان المعروف بخراب التّتَر إلى المدينة.

ثم وقعت النار في وقت الظهر في يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة بدار نائب السلطنة بقلعة الجبل، فاحترق منها مكان يعرف بالمنظرة الحسامية بأعلى الدار، فتبادر الأمراء والمماليك السلطانية وغيرهم من الغلمان والسقّايين إلى إطفائها فطفئت، وسكن أمر الحريق بعد ذلك.

وفي يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة مُنع المُنَجِّمون وأربابُ الخِلَق من المشعوذين وغيرهم من الانتصاب لذلك، ورسم بغلق قاعات العلاج وغيرها، ورسم أيضًا بالقبض على جماعة من الحرافيش، وأن يعملوا بالجسور السلطانية بالجيزية، فقبض على جماعة منهم، وعملوا في الجسور إلى يوم الثلاثاء العاشر من الشهر، ثم أمر السلطان بإطلاقهم، فأطلقوا.

وفي يوم الاثنين الثاني من جمادى الآخرة سُمِّر اثنان من النصارى، وطيف بهم على الجِمال، أما أحدهما: فإنه كان قد أسلم تبعًا لأبيه، واستمر في دين الإسلام مدة تزيد عن عشر سنين، ثم ارتَدّ، فأحضر في هذا الوقت، وسئل فاعترف أن أباه أسلم وهو دون البلوغ، وعرض عليه الآن الإسلام فأباه، فرسم السلطان بتسميره، وأما الآخر: فإنه من النصارى الذين اعترفوا بالحريق وماتا على ذلك.

وفي يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ظهر النصارى بعد استتارهم، وفتحوا دكاكينهم، وانتصبوا في معايشهم على عادتهم قبل وقوع هذه الحادثة.

وفيها، في يوم الخميس السادس والعشرين من جمادى الآخرة أمر السلطان بالقبض على الأمير صلاح الدين طَرْخان بن الأمير المرحوم بدر الدين بيسرى الشمسي الصالحي، النجمي والدُه، ولم يكن لذلك سبب إلا أنه حصل بينه وبين ابن أخيه علاء الدين علي بن فارس الدين ألكبيه محاكمة شرعية، فرُسم له بإرضائه، فامتنع أن يعطيه إلا ما يثبت له شرعًا، فرُسم بالقبض عليه. وأودع الزَّرَدْخاناه[1]، ثم نقل إلى البرج، ثم إلى الإسكندرية، ورسم ببيع موجوده، وإعطائه لابن أخيه المذكور، فأُبيع من موجوده بمبلغ تسعين ألف درهم، وقُبِضت لابن أخيه المذكور، واستمر الأمير صلاح الدين في الاعتقال أحسن الله تعالى خلاصه بمنّه وكرمه.

---

(١) الزردخاناه: ومعناها بيت الزرد، لما فيها من الدروع الزرد، وتسمّى أيضًا السلاح خاناه: ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع (صبح الأعشى ٤/ ١١).

وفي هذه السنة أمر السلطان أن يتوجه الأمير شرف الدين حسين بن جَنْدَر بك الرومي أمير شِكار[١]، أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية إلى دمشق وكان قبل ذلك من أمراء الطَّبْلخاناه[٢] بها، فلما عاد السلطان إلى الديار المصرية في سنة تسع وسبعمائة حضر في خدمته، فأمَّره في الديار المصرية، ثم جعله من أمراء المائة مقدمي الألوف، وأمير شِكار، وتقدم عند السلطان، وقرُب منه، ووفر إقطاعه وميَّزه، ثم أعاده الآن إلى الشام على إقطاع الأمير سيف الدين جُوبان المنصوري، وكان نائب السلطنة بدمشق قد غضب على جُوبان لأمر صدر منه، وضربه، فطُلب إلى الأبواب السلطانية، وأقرَّ في جماعة الأمراء بها، وأُعطي إمرة ستين فارسًا، وتوجه الأمير شرف الدين حسين بن جَندر إلى دمشق، فكان وصوله إليها في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة إحدى وعشرين.

وفيها في يوم الأربعاء ثامن عشر شوال جلس قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[٣] لإلقاء الدروس بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر عوضًا عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري، وذلك أن الفقهاء بالزاوية المذكورة شكَوا منه، وقالوا: إنه استولى على الوقف، واختص بأكثره، فعزل من هذه الزاوية وغيرها، ثم اعتُني به فولي وكالة بيت المال بحلب، فتوجه في ذي القعدة من السنة، ولم يطُل مقامه بها.

---

(١) أمير شكار: هو لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي، وهو أمير، والثاني فارسي وهو شكار ومعناه الصيد فيكون المراد «أمير الصيد» (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٢) أمير طبلخانات: قال في صبح الأعشى ٤/ ١٣: الطبلخاناة ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم.

وأمراء الطبلخاناه عدة كل منهم في الغالب أربعون فارسًا، قال في مسالك الأبصار: وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسًا.. ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين، وهذه الطبقة لا ضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخاناه فجعلت إمرتي عشرين أو أربع عشرات، أو ضم بعض العشرات ونحوها إلى جعلت طبلخاناه، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشّاف بالأعمال، وأكابر الولاة (انظر صبح الأعشى ٤/ ١٣ ـ ١٥).

(٣) بدر الدين محمد بن جماعة: هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني، بدر الدين، أبو عبد الله الحموي الشافعي، قاضي القضاة بمصر، ولد سنة ٦٣٩هـ، وتوفي سنة ٧٣٣هـ. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٨).

ذكر عود رسل السلطان من جهةِ الملك أزبَك ووصول رسله صحبتهم وعَودهم

وفي هذه السنة - في ذي القعدة - عادت رسل السلطان الذين كان قد بعثهم إلى الملك أُزبَك، وهم: الأمير سيف الدين طُقْصُبَا الظاهري[١]، ومن معه، وحضر صحبتهم رسل الملك أُزبَك، ومثل طُقصُبا بين يدي السلطان حال وصوله، وأرجأ السلطان الرسل إلى أن عاد من الصيد، واستقر بقلعة الجبل، ثم استحضر الرسل في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة، فأدوا الرسالة ولم يكونوا على عادة أمثالهم من رسل مرسلهم، ولا خُلع عليهم، وعادوا إلى المكان الذي رسم بإنزالهم فيه، وهو مناظر الكبش، ثم أحسن السلطان إليهم بعد ذلك، وخلع عليهم، وأعادهم إلى مرسلهم صحبة رسله.

ذكر توجه أُدُر السلطان إلى الحجاز الشريف ومن توجه في خدمتهم

وفي هذه السنة - في شوال - توجهت الخَوَنْد[٢] طُغاي المحمودية[٣]، وهي إحدى زوجتي السلطان، إلى الحجاز الشريف، وجهزت أعظم جهاز سمع الناس بمثله وجهز لها عدة أربات ومَحَفَّات، والأربات: مقاعد من الخشب يُجْلس عليها، وهي مركبة على عجل أمثال أتراس السواقي، تجر بكَدِيشٍ[٤] واحد، أو جملٍ بُخْتيّ، وتسرع في المرور غاية الإسراع، وجهّز في خدمتها عدة من نساء الأمراء، وجماعة

(١) توفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٥٥).

(٢) الخوند: بفتح الخاء وضمها، كلمة فارسية بمعنى السيد المعظم، استعملت في العربية لقبًا بمعنى السيد والسيدة، وربما أدخلت عليها تاء للتأنيث فيقال: خوندة (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٩١ - ٩٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٠).

(٣) طغاي المحمودية: من محظيات السلطان الناصر، وولدت له ابنه آنوك (انظر: الدرر الكامنة ٢/ ٢٢١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣١).

(٤) الكديش: عرّفت الأكاديش بأنها العجميات في مقابل الخيول العراب، وفي صبح الأعشى ١٤/ ٢ أنها البرافين والهماليج، وكانت تجلب من بلاد الترك وبلاد الروم، ودخلت التركية بصيغة (إيكيديش) بالكاف اليائية. ومعناها في التركية: الفرس الهجين (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل).

من الأمراء المشار إليهم، منهم: الأمير سيف الدين قِجْليس[١]، وتوجه أيضًا القاضي كريم الدين وكيل السلطان، وجهز معها عدةُ أحمال من الكوسات والصناجق الخليفتية والسلطانية.

وتوجه أيضًا من الشام إلى الحجاز الأمير سيف الدين تَنْكِز، واستناب السلطان عنه بدمشق في مدة غيبته الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب (كان)، فتوجه من الأبواب السلطانية إلى دمشق، فوصل إليها في سابع شوال، ونزل بالمدرسة النَّجِيبيّة ظاهر دمشق، وكان يحضُر إلى دار السعادة في يومي الخميس والاثنين، ويجلس وكُتاب الإنشاء بين يديه، ويقف الحُجّاب وغيرهم، وتُقضى الأشغال، ويُمد السِّماط، ثم يركب في الرابعة من النهار ويعود إلى النَّجيبية، وينتصب بها في بقية النهار لقضاء الأشغال، ولم يزل كذلك إلى أن بلغه عَود الأمير تَنكِز من الحجاز، ففارق دمشق في يوم الأحد تاسع عشر المحرم سنة اثنتين وعشرين، وتوجه إلى الديار المصرية، والتقى الأمير سيف الدين تَنكِز[٢] بها بمنزلة الصمّان، وسلم عليه وودعه، فخلع تَنكِز عليه، وأنعم عليه بمالٍ، وتوجه إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية.

ذكر وصول بعض من وقف بعرفة في هذه السنة إلى القاهرة المحروسة

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وصل إلى القاهرة المحروسة سيف الدين أوجي، أحدُ مماليك الأمير سيف الدين قِجليس، وحسام الدين طُرُنْطاي أحد مماليك القاضي كريم الدين بعد أن وقفا بعرفة، فذكر لي حسام الدين طُرُنْطاي المذكور أن خروجهما من مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ كان في يوم السبت ثالث عشر الشهر بعد العصر، وأن الوقوف بعرفة كان في يومي الثلاثاء والأربعاء، ونحروا يوم الخميس، فكانت مسافة مسيرهما من مكة إلى القاهرة اثني عشر يومًا ونصف وربع يوم، على التحرير، وحضرا بين يدي السلطان، وتضمنت الكتب سلامة الأذر السلطانية، فخلع السلطان عليها، وأنعم عليهما من بيت المال بخمسة آلاف درهم، وعادا إلى مرسلهما في اليوم الثاني بالأجوبة السلطانية، ولم يُسمع أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل إلى القاهرة في سنته، وفيما مضى من الزمان وإلى الآن، وقد صغر ذلك ما كان استعظم من مجيء من تقدم ذكره في ليلة ثالث المحرم.

---

(١) سيف الدين قجليس: توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) سيف الدين تنكز (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٤).

ذكر حوادث كانت بدمشق في هذه السنة

في يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة أُقيمت الخطبة، وصلاة الجمعة بمسجد القصب خارج باب السلامة ظاهر دمشق، وخطب فيه وصلّى بالناس علاء الدين علي الباخلي وهو من أولاد الجند، منسوب إلى ابن باخل.

وفيها - في يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان - أقيمت الخطبة وصلاة الجمعة بجامع استَجَدّه القاضي كريم الدين وكيل مولانا السلطان بأرض القابون ظاهر دمشق، وكان الشروع في عمارته، والاجتماع على تحرير محرابه في مستهل جمادى الأولى من هذه السنة وكمل، وخطب به في التاريخ المذكور، وفوضت خطابته للشيخ الصالح جمال الدين عبد الوهاب التركماني الحنفي إمام القابون، وحضر الخطبة قضاة القضاة والأعيان.

ذكر هدم كنيسة اليهود القَرّائين بدمشق

وفي هذه السنة برزت المراسيم السلطانية بهدم كنيسة اليهود القَرّائين بدمشق بدَرْب الفواخير، فهُدمت في يوم السبت التاسع عشر من شهر رجب، وسبب ذلك: أن جماعة من المسلمين ادّعوا أنها مُحدَثة، فأثبت اليهود أنها قديمة مستمرة بأيديهم - عند بعض الحكام - فأُقرت بأيديهم، ونجزوا مرسومًا سلطانيًا بالحمل على ما ثبت وإبقائها، فعارضهم المسلمون بإثبات عند حاكم أنها محدثة، فورد المرسوم السلطاني بالحمل على ما ثبت آخرًا، وهدمها.

قال الشيخ شمس الدين الجَزَرِيّ[1] في تاريخه: إن هذه الكنيسة كانت من نحو مائة سنة بيتًا يجتمع فيه طائفة من اليهود القَرّائين، ثم أضيف إليها شيء بعد شيء، حتى كبرت واتسعت، وأصلحت عمارتها، فلما كان في سنة تسع وتسعين وستمائة عند دخول التتار إلى دمشق تمكن اليهود من إصلاحها؛ وعملوا بها منبرًا، كل ذلك والمسلمون لا يعلمون؛ وذلك أنها بدرب الفواخير وغالب سكانه اليهود، وهي في درب داخل درب جوار سور باب كَيسان، والباب يومئذ مسدود، وبذلك تمكنوا من عمارتها وما شعر بهم المسلمون، ثم ظهرت في ذلك الوقت، فهدمت.

---

(١) شمس الدين الجزري: هو شمس الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩هـ، له «تاريخ دمشق» (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

وفي هذه السنة - في الثامن من شهر ربيع الأول - توفي القاضي الخطيب مجد الدين أحمد بن القاضي مُعين الدين أبي بكر بن ظافر الهمداني(١) المالكي الخطيب والمدرّس بمدينة الفيوم، وكانت صورته كبيرة عند الأكابر، وولي قضاء القضاة بدمشق في سنة عشر وسبعمائة، وخلع عليه، ولبس التشريف، ثم امتنع من ذلك واستعفى فأُعفي، وكان رحمه الله تعالى رجلاً كريمًا سمحًا مشهورًا بالمكارم، تزيد مكارمه على رَيع أملاكه، وتأبى نفسه الاختصار، فاحتاج إلى أن استدان الأموال، واضطُر إلى وفاء الدَّين بالدِّين، كل ذلك رغبة في المكارم.

وكان رحمه الله تعالى جميل الصورة كامل الخَلق، حسن الزي والملبس والمركب، جيد الشِّعر، أرسل إليّ مرة يلتمس أن يقف على مقدمة كتابي هذا الذي ألّفته، فأرسلت إليه المجلدة الأولى، فوقف عليها وكتب إليَّ بيتين من نظمه وهما:

كتاب جلَّ أن نُخصِيه وصفًا ... حوى علمًا وآدابًا وظَرفا
رأينا منه عُنوانًا بديعًا ... وعُنوان المحاسن ليس يخفى

وتوفي القاضي تاج الدين أبو الهدى أحمد بن محيي الدين أبي الفضل محمد بن الشيخ كمال الدين علي بن شجاع بن سالم القرشي الهاشمي العباسي، المعروف بابن الأعمى(٢)، والأعمى - الذي عرف به - هو جده الشيخ كمال الدين المقرىء وكانت وفاته بداره بمُنشأة المهراني، ودفن بالقرافة، ومولده في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكان يلي نظر ديوان الملك الأشرف بن السلطان الملك المنصور قبل سلطنته، ثم عزل بالصاحب شمس الدين محمد بن السَّلْعوس(٣) وعطل مدة، ثم ولي نظر الكرك، وعزل في سنة ثمان وسبعمائة، وحضر إلى الديار المصرية، فولي نظر بيت المال مُدة لطيفة، ثم عطل عن الخدمة، ورتب له في آخر عمره راتب، فكان يتناوله إلى أن مات رحمة الله عليه، وكانت وفاة جده الشيخ كمال الدين الضرير في سنة إحدى وستين وستمائة.

---

(١) هو أحمد بن أبي بكر بن ظافر مجد الدين بن معين الدين المالكي سبط الشيخ المجد الإخميمي (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ١١١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٤).

(٢) انظر ترجمته في: (السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٣، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٢).

(٣) هو محمد بن عثمان، شمس الدين المعروف بابن السلعوس (انظر ترجمته في تاريخ أبي الفداء ٤/ ٣١).

وتوفي الصدر الرئيس شهاب الدين أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن الكويك التاجر الكارمي، وكانت وفاته بداره بمصر في ليلة الأربعاء التاسع عشر من شوال، وترك دنيا عريضة وأملاكًا، وورثه أولاده، وكان من بقايا أعيان التجار الكارِميَّة(١)، ومشايخهم يرجعون إليه ويقتدون برأيه، رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي الفاضل كمال الدين محمد بن القاضي عماد الدين إسماعيل بن القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبي، أحد أعيان كُتّاب الإنشاء، وكانت وفاته بالقاهرة في بُكرة نهار الاثنين للنصف من ذي الحجة، وصُلي عليه تحت القلعة، ودُفن بالقرافة، وكان رحمه الله فاضلاً خيِّرًا لطيفًا حسن العشرة والمذاكرة، جيد الإنشاء، قد ذكرنا من إنشائه في أثناء هذا التاريخ ما يقف عليه من يقصده، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير زين الدين كَتْبُغا الصغير المنصوري(٢) رأس نوبة الحاجب بالشام في آخر نهار الجمعة الثامن والعشرين من شوال بداره بظاهر دمشق ودفن من الغد بتربته برأس ميدان الحصار، رحمه الله تعالى، وولي الحِجْبة بعده الأمير علاء الدين أيْدُغْدي الخوارزمي، جهز من الأبواب السلطانية على إقطاع سُنْقُر الإبراهيمي، فقدم دمشق في يوم الأحد عاشر صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة.

وتوفي في يوم الاثنين السادس عشر من ذي الحجة ـ عز الدين إبراهيم ابن الملك الحافظ غياث الدين محمد بن الملك السعيد شاهنشاه بن الملك الأمجد بهرام شاه بن عزّ الدين فرخان شاه بن شاهنْشاه بن أيوب، وكانت وفاته بقرية جِسرين من غُوطة دمشق، ودفن بتربتهم بباب الفراديس، ومولده في الخامس من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وستمائة بحَمرانَيسان عند مرجعهم من القدس، سمع الحديث من إسماعيل العراقي، ورواه عنه، وكان رحمه الله تعالى كثير التواضع والاحتمال حسن المودّة.

---

(١) التجار الكارمية: هم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن فعرف ذلك بهم، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر (مصطلحات صبح الأعشى ص٧٣).

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٤، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٤.

وتوفي الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول[١] صاحب اليمن، وكانت وفاته في مستهل ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وحصل بعد وفاته من الاختلاف والفتن بين ولده وأخيه ما نذكره بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ عند ذكرنا لأخبار اليمن.

وتوفي الشيخ الصالح العابد نجم الدين عبد الله بن محمد الأصفهاني[٢] بمكة شرّفها الله تعالى، وورد الخبر بوفاته في شعبان، وكان شخصًا جليلاً صالحًا فاضلاً مشهورًا مقصودًا للزيارة منقطعًا عن الناس، جاور بمكة سنين كثيرة رحمه الله تعالى.

ذكر ما وصل إلينا من الحوادث الكائنية ببغداد في هذه السنة

في نصف شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كبَس الحرامِيَّة بغدادَ وقت الظهر ونهبوا سوق الثلاثاء، وخرج الناس، وقتلوا منهم نحو المائة وأُسر منهم جماعة، وكان ذلك جُرأة عظيمة منهم. نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين بن البِرْزالي[٣]، وقال: كنت قرأت ذلك في كتاب وصل إلى شمس الدين ابن مُنتاب البغدادي، وفيها أيضًا ورد كتاب من بغداد من جهة أحمد البالوادي إلى شمس الدين بن مُنتاب بدمشق، وهو مؤرخ بالحادي والعشرين من جمادى الآخرة، وكان وصوله إلى دمشق في مدة عشرين يوماً، وفيه «.. والذي أعرفكم به أنه جرى في بغداد شيء ما جرى في زمان الخليفة إلى هذا التاريخ: خَرَّبوا البازار[٤] من أوله إلى آخره، وما يَعلم ما عزموا عليه إلا الله تعالى، وما خَلّوا في البلد خاطِيَةً إلا تَوَّبُوها وزوّجوها، وما خلّوا أحدًا يعصر في البلد شرابًا، وبدَّدُوا الشراب العتيق، ولو بَدَّدُوه من الشط غرقت بغداد، وبعد ذلك نادت المنادية أن كل من تَخَلّف عنده شيء من الشراب يكون دمه

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٣.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٢.

(٣) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ، من مصنفاته «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ (كشف الظنون ٥/ ٨٣٠).

(٤) البازار: السوق، وهي فارسية الأصل.

وماله للسلطان، وطلع بعد ذلك عند شخص من العقبة جَرّه، فعَلّقوها في حلقه، وقتلوه في باب النوبة، وطلع عند عبد الله بن الجبّار الذي من درب دينار جَرَّتين من الشراب فقطعوا رأسه في باب النوبة، وجعلوا جرة عند رأسه، وجرة عند رجليه، ودفع فيه ألف وخمسمائة دينار فما خلاه محمد حسيناه، وعَلّمُوا اليهود والنصارى، وأسلم الرّفي الجوهري، وبركة، وإبراهيم الكاغدي، والعماد الصيرفي، وكل يوم جمعة يسلم أربعة خمسة» نقلته من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي أيضًا.

واستهلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين من طوبة من شهور القِبْط.

ذكر وصول أُدُر السلطان من الحجاز الشريف

كان وصول الأدُر السلطانية من الحجاز الشريف في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من المحرم، فركب السلطان لتلقيهم، ومدّ سماطًا، ثم طلعت الأدر السلطانية إلى قلعة الجبل على أربة، وتقدمها نِساء الأمراء على الأرْبات، والكوسات تُضرب، والعصائب منشورة، وكان يومًا مشهودًا.

ذكر تجريد العساكر إلى بلاد سيس، وفتح مدينة آياس وأبراجها

وفي هذه السنة رسم السلطان بتجريد العساكر إلى جهة سيس، فجرَّد من الأمراء المقدمين بالديار المصرية خمسة وهم: الأمير جمال الدين أقُش الأشرفي، وهو مقدّم الجيوش، والأمير علم الدين سَنجر الجُمَقْدار، والأمير سيف الدين ألْماس أمير حاجب، والأمير سيف الدين طُرجي أمير مجلس، والأمير سيف الدين أصْلم السلاح دار، ومُضافيهم من أمراء الطبلخانات، وهم: قلبرس بن طيبرس محمد ابن أمير سلاح الدمر أمير جَندار أيْدَمُر العمري، وأروم بُغا، قُطلوبغا الجمالي، وطرمحي الساقي، وخضر بن نوكيه، وطيفر الجَمدار، وطُرُنْطاي السلاح دار، وأيْدُغْدِي البلبلي، أراق السلاح دار، خاص ترك الجمدار، بيلك الجمدار، أقْسُنْقر السلاح دار، بيبرس السلاح دار، أيبك عبد الملك، سنقر السعدي، بهادُر الغنمي، وأمير العراواب خليل بن الأربلي، علي بن دامر بن علي بن سَلار، علي بن التركماني، ومحمد بن ملِكشاه، كجكن الكرموني، وبهادر بن قَرَمان، ومحمد بن أيبك الخزَندار، وما جار فتحي بكا، وجماعة من الحلقة المنصورة، والمماليك السلطانية، وكان خروجهم من القاهرة المحروسة في يوم السبت الثاني من صفر.

وجُرد من الشام الأمير سيف الدين بهادر والأمير سيف الدين كُجْكُن[1]، والأمير شرف الدين حسين بن جندر، ومضافيهم، والعسكر الحلبي بكماله، والأمير شهاب الدين قَرَطاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابُلسية، وجماعة من العسكر الطرابُلْسي، وخرج المرسوم السلطاني لهم أن يتوجهوا إلى بلاد سيس، ولا ينتظروا مرسومًا، ولا يقيموا بمدينة من مدن الشام.

وكان سبب إرسال هذه الجيوش أن السلطان كان قد أرسل الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر ـ أحد الأمراء بطرابلس ـ رسولاً إلى مُتملك سيس في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، فتوجه وأخذ منه القطيعة المقررة على بلاده، وهي ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم فضة حجر، والمقرّر من الخيل والبغال وتطابيق النعال والمسامير وغير ذلك، وجهزها إلى الأبواب السلطانية من غير عهد ولا عقد، ولا تقرير هدنة، فأخبرني الأمير بدر الدين المذكور عند وصوله إلى الأبواب السلطانية أنه لما توجه إلى سيس اجتمع بمتملك بلاد الأرمن وهو صغير يكون عمره نحو ثمان سنين جمع متملك بلاد سيس أكابر مملكته وحضر خليفتهم بزعمهم واستشاروه في إرسال القطيعة قبل تقرير الهدنة واليمين، فأشار عليهم بدفعها، وإطفاء الثائرة. وتعريف السلطان أنهم بأجمعهم دخلوا تحت طاعته وانتسبوا إلى غلمانيته وعبوديته، وخلعوا طاعة من سواه من التتار وغيرهم. وسألوا مراحم السلطان، وبذلوا له الرغبات، فكان مما عرضوه على الرسول المذكور أن قالوا له: إن اختار السلطان أن يقاسمنا على متحصل البلاد، وأن يقرِّر علينا الجزية عن كل إنسان دينارين حتى على رأس الملك فمن دونه فَعَلْنا ذلك، ويرسل إلينا نُوّابه يستخرجون ذلك، وإن أحب أن يُسلِّم إلى نوابه ما هو قاطع نهرجهان مما يلي المملكة الحلبية من القلاع والبلاد فعلنا ذلك على أن يضع عنا في مقابلة هذه القلاع والأعمال ثلثَ المال المقرّر، وهو أربعمائة ألف درهم فضة.

وأرسل الأرمن امرأة من عند الملك تسأل مراحم السلطان، فلم تُمكن من الوصول إلى الأبواب السلطانية وأعيدت من حلب.

وجَرَّد السلطان هذه العساكر وأرسل الأمير بدر الدين المذكور على خيل البريد أمام العسكر المنصور ليطالبهم بتسليم البلاد والقلاع وتقرير الهدنة على ذلك، فإن سلّموها تسلمها نواب السلطان، وكفَّ العسكر عنهم، وإن شغَبوا أو توقَّفوا أدخل العسكر إلى بلادهم.

(١) سيف الدين كجكن: توفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٤).

وكان موجب خروجهم عن طاعة التتار وغيرهم أن مقدم التتار بالروم ـ وهو تَمُرْتاش بن جُويان ـ اجتمع هو وابن قَرَمان ودخلوا إلى بلاد سيس في أواخر سنة إحدى وعشرين، وغاروا وشعَّثوا ونهبوا، وعادوا إلى بلادهم، فتوجه العسكر الآن ووصل إلى دمشق في يوم الخميس الثامن والعشرين من صفر، ثم توجه منها إلى حلب فوصل إليها في العشر الأول من شهر ربيع الأول. وتوجهت العساكر منها إلى مدينة آياس في أوائل شهر ربيع الآخر، واستصحبوا المجانيق من بَغْراس محمولة على العَجل وأعناق الجند.

ولما وصل العسكر إلى ثغر آياس وجد أهلها قد أخلوا المدينة من الأموال والرجال وغير ذلك، وبقيت خالية، فدخلها العسكر بغير ممانع ولا مدافع، وانتقل أهلها إلى القلعة، وهي قلعة مستجدة عمَرها الأرمن في أول المائة السابعة، ولها باب من جهة البر وبقيتها في البحر، فتقدم العسكر لمحاصرتها وأخذ النقّابون في النقوب يومًا وليلة، فانتقل من كان بها إلى قلعة هناك في وسط البحر تسمى قلعة أطلس، وإلى أبراج ثلاثة، منها برج مثمَّن وأشعلوا النيران بالليل فيها، وأحرقوا ما تركوه بها من أعواد المجانيق والأمتعة وغير ذلك، فملكها المسلمون، وارتفع الصنجف السلطاني عليها، وشَرع العسكر في إخرابها فعلّقها النقابون، وأُطلقت فيها النيران، فهدمت في البحر وحُصر الأرمن بالقلعة والأبرجة التي في البحر، والوصول إليها متعذر لبُعدها عن البر، فنصبت المجانيق السلطانية على القلعة الكبرى، ونَصَب الأرمن أيضًا مَجانِيقَهم على العسكر، وتراموا بها فاتفق الأمراء على أن العسكر يَردم ما بين المدينة وبين القلعة والأبرجة من البحر، فتعذر عليهم لعمق البحر، وبُعد المسافة، فنصبوا جسورًا من الأخشاب والبَتاتِيّ، فانتهت إلى مقدار ثُلُثي المسافة إليها، هذا والمجانيق ترمي بأحجارها من كل من الطائفتين ووصل النقابون إلى البرج المُثَمَّن، فسأل من به الأمان على أن يسلِّموه فأجيبوا إلى ذلك، ثم نكثوا، ورجعوا عن التسليم، فوصل المسلمون إليه، وشرع النقابون في تعليقه ثم يسَّر الله تعالى الفتح، فحصل الاستيلاء على ذلك برًا وبحرًا في يوم الأحد والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودخل العسكر إلى بلاد سيس، وأغاروا ووصلوا إلى قلعة كوارا، ثم عادت العساكر المنصورة إلى مستقرها من الممالك، ولما حصل هذا الحصار أمر الباب[1] ـ وهو الحاكم على ملوك الفرنج ـ مَن تحت يده وطاعته منهم أن يتوجهوا إلى ثغر

---

(١) الباب: هو البابا في روما، وفي صبح الأعشى ٥/٤٤٣: هو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانية بمدينة رومية.

اللاذقية ويحاصروه لعلهم ينالون منه منالاً، لاشتغال العساكر الإسلامية بثغر آياس، فَعَمَّر الفرنج نحو تسعين شينيًا وشحنوها بالرجال والمقاتِلة، وقصدوا ثغر اللاذقية وبه يومئذ الأمير شرف الدين عيسى بن البرطاسي فاجتهد في أمر الثغر، واحترز فأقامت تلك الشواني أيامًا في البحر قبالة ثغر اللاذقية، ثم عادت إلى أماكنها ولم يظفروا بشيء، وكفى الله تعالى شرهم وله الحمد والمِنّة؛ ولنذكر خلاف ذلك ما اتفق.

ذكر اجتماع المماليك السلطانية وشكواهم وما حصل بسبب ذلك

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من صفر اجتمع جماعة من المماليك السلطانية الساكنين بالطِّباق بباب السلطان، واستغاثوا وشكوا إلى السلطان أنهم نقصوا من مرتبهم، وغيرت عادتُهم في طعامهم وتأخرت جَامْكِيَّتُهم عنهم وكساويهم، وبالغوا في الشكوى والأساة، فأرسل السلطان إليهم أن يختاروا من أعيانهم من يَعْبُر إليه، ويشكوا ضررهم، ويشافهوه بحالهم، فامتنعوا من ذلك، وكانوا في جمع كثير، فخرج السلطان إلى الرحبة، وسمع شكواهم، ولطف بهم، وقابل جهلهم بحلمه وسياسته ووعدهم إزالة ضررهم، وأنه يتولى ذلك بنفسه، وصرفهم إلى أماكنهم فانصرفوا إليها وكشف عمن حملهم على الجرأة ممن يعلم أحوال المماليك، فعُين جماعة من المماليك أرباب الإقطاعات، فرسم بإخراجهم من القلعة وإسكانهم المدينة، فخرجوا في يوم السبت سلخ صفر، وأخرج أيضًا جماعة من الخُدّام المقدمين والسوّاقين، ورسم بالنفقة في أرباب الجامْكِيّات، وزيادة مرتبهم، وإصلاح أطعمتهم، ففعل ذلك، وسكنت أمورهم.

ذكر وصول الأمير «علاء الدين الطُّنْبُغا»[١] نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية وعوده

وفي يوم السبت سلخ صفر وصل الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية، وكان قد رُسم بحضوره، فأرجف الناس به، وظنّ كثير منهم أنه لا يحضُر، وأنه إذا حضر اعْتُقِل، فلما وصله شمله الإنعام

(١) علاء الدين الطنبغا: مات مخنوقًا بالإسكندرية سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

السلطاني بالتشريف والخيل والإحسان، وقدم له أعيان الأمراء التقادِم[١]، وبالغ القاضي كريم الدين وكيل السلطان في خدمته وإكرامه، وأرسل إليه عدة كثيرة من الأقمشة والتعابي والتشاريف ليخلعها على من يحضر إليه بتقادم الأمراء، وأعطاه خيلاً وجملة من المال، وحضر هو صحبة القاضي كريم الدين إلى داره، وتَرَجَّل عند قربه من الدار، ومشى والقاضي كريم الدين مستمر الركوب على ما هو عليه إلى أن نزل في مكانه المعتاد، هكذا أخبرني جماعة ممن ذكروا أنهم شاهدوا ذلك، ثم رسم بعود الأمير المذكور إلى المملكة الحلبية، فعاد في يوم السبت ثاني شهر ربيع الأول على خيل البريد، وأدرك العسكر بحلب، ودخل معهم إلى آياس.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ملك التتار

وفي العشر الآخر من ربيع الأول وصلت رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ـ ملك العراقين وخراسان وما والى ذلك ـ إلى الأبواب السلطانية، وهم: الأمير حسن بن شادي بن سونجاق، ومعه أمير آخور، وقاضي قضاة تبريز نصر الدين محمد بن محمد القزويني الشافعي، فأمر السلطان بإنزالهم في قلعة الجبل، ومثلوا بين يديه في يوم الاثنين مستهل ربيع الآخر، فاستقبلهم بدر الدين بيبرس الصالحي.

* * *

ذكر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر قبض على كريم الدين الكبير

بعدما تجهز ليسافر يوم الجمعة خامس عشرة إلى الشام، فعندما طلع إلى القلعة على العادة، ووصل إلى الدُّرَكاه منع من الدخول إلى السلطان، وعوق بدار النيابة هو وولده علم الدين عبد الله، وكريم الدين أكرم الصغير ناظر الدولة، ووقعت الحوطة على دور كريم الدين الكبير[٢] خاصة التي بالقاهرة وبركة الفيل، ونزل شهود الخزانة بولده إلى داره ببركة الفيل، وحملوا ما فيها إلى القلعة، وتوالت مصادرته، فوجد له شيء كثير جدًا ووجد له عدة من المماليك والجواري الأتراك، وكان من مماليكه جماعة قد أخذ لهم الإقطاعات الوافرة في جملة رجال الحلقة المنصورة، فأمر

---

(١) التقادم: جمع تقدمة، وهي الهدايا التي جرت العادة بتقديمها في المناسبات.
(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٤٣.

السلطان بقطع أخبازهم، وبيع المماليك الأرقاء والجواري، وأنعم على ثلاثة منهم بأخباز غير ما كان بأيديهم قليلة العَبرة بالنسبة إلى ما كان بأيديهم، وعادت الخزانة التي كان قد جهزها إلى ثغر اللاذقية في يوم الاثنين ثامن عشر الشهر، فعُرض ذلك على السلطان، وكان في جملة ما وجد بها ثلاثة حوايص ذهبًا مجوهرة كان قد أعدها لمن نذكر في جملة خلعه عليهم، وهم: الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه، والأمير سيف الدين تَنكِز نائب السلطنة بالشام والأمير علاء الدين الطُنبُغا نائب السلطنة بحلب.

ولما رسم بالحَوْطة عليه، وقعت الحوطة على أملاكه وأوقافه وحواصله وغير ذلك، فاعترف أن سائر الأملاك التي أنشأها وابتاعها وما وقفه كان قد اشتراها وعَمَرها من مال السلطان دون ماله، فأفاد هذا الاعتراف في الأملاك، فحكم أنها ملك السلطان دون ملكه وشهد جماعة من المعدِّلين أن الأملاك التي وقفها ابتاعها من أموال السلطان دون ملكه فحُكم بإبطال أوقافه، ونُقضت بعدما أُبرمت، وكتبت بذلك مكاتبة حُكمية ثبتت على قضاة القضاة.

ولما اشتد الطلب عليه وخشي على نفسه أن يُقتل، أرسل إلى السلطان يقول: إن أموال السلطان كثيرة، وهي مفرَّقة في أقطار الأرض، منها ما سفَّرته إلى بلاد الإفرنج ومنها ما أرسلته إلى العراق وإلى اليمن وإلى الهند، ومنها ما هو مفرَّق بأعمال الديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري، ومنها ما هو بالشام، وإذا عَدِمت عَدِم ذلك كلّه، وطمع فيه من هو عنده، فاقتضى ذلك إبقاءه، وأفرج عنه السلطان، ورسم أن يستقر مقامه بتربته التي أنشأها بالقرافة، فنزل إليها هو وولده علم الدين، وأقام بها، ثم شملته عواطف السلطان، وأنعم عليه بمبلغ عشرين ألف درهم، فقبضها، وأرسل إليه فرسين من جملة خيله، وقماش ملبوسه، والخِلَع التي كان السلطان قد خلعها عليه، وأعيدت إلى الخزانة عند إيقاع الحَوْطة، وأُفرج عن معصرتين من معاصر الأقصاب التي كانت له بالوجه القبلي، ثم رسم السلطان بعد ذلك بسفره إلى الشَّوْبك يقيم هناك، ورتب له في كل شهر ألف درهم على حكم الراتب، فتوجه هو وولده وأهله وألزامه، وكان خروجهم في يوم السبت تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة، فأقام بالشوبك إلى أثناء شهر رمضان من السنة، وطالع الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة، وسأله أن ينتقل إلى القدس، فلم يجَب إلى ذلك أولاً، ثم تلطَّف نائب السلطنة في أمره إلى أن رُسِم بانتقاله إلى القدس الشريف، فكان وصوله إلى القدس في يوم الجمعة تاسع عشر شوال، وأقام إلى أن تغيَّر خاطر السلطان عليه لأسباب نُقِلت عنه.

فلما كان في يوم الأربعاء السابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وعشرين وسبعمائة رسم السلطان بتجديد الحَوطة عليه، وعلى أسبابه، وتوجه لإحضاره من القدس الأمير سيف الدين قُطلُوبُغا المغربي الناصري، وكان وصوله إلى قلعة الجبل هو وولده عشية نهار الخميس الخامس والعشرين من الشهر، ولما وصل سُلم للأمير سيف الدين قِجليس أمير سلاح، فأنزله بداره، وسُلّم ولده عبد الله ومملوكه طُوطاج إلى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي استادار، وطُولب بحمل المال، فاعتذر بأنه لم يبق له ما يحمله إلا ثمن الأملاك التي كان السلطان قد أفرج له عنها، فأُمر ببيعها، فبيعت بمبلغ أربعمائة ألف درهم، وحُمل عنها، واستمر على ذلك إلى يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، فرُسم باعتقاله، فاعْتُقل في برج الأتابكي بقلعة الجبل بمفرده بغير غلام يخدمه، وسُدّدت المرامي والمناور، ورُتب له في كل يوم ثمانية أرطال لحم وكُماجه، واستمر بالبرج إلى يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر، فأُخرج من البرج وسُفّر إلى الصعيد الأعلى، ورُسم باستقراره بثغر أسوان، وكان قد سُفر ولده عبد الله قبله، وقطع السلطان أخباز مملوكيه طُرُنْطاي، وطوطاج من الحلقة.

فلما كان في ليلة يسفر صباحها عن يوم الاثنين حادي عشريه حضر إلى الصاحب أمين الدين مَنْ ذكر أن لكريم الدين وديعة عند رجل موّان نصراني، فطُلب، وطُولب بالوديعة، فأحضر صندوقًا ضمّنه من المصوغ والجوهر ما قيمته ـ فيما بلغني ـ نحو عشرين ألف دينار.

ولما استقرّ كريم الدين بثغر أسوان أمر السلطان أن يُرتّب له ولولده في كل شهر ستمائة درهم وستة أرادب لنفسه، ولولده عبد الله مائة درهم وإردبان، واستمرت إقامته بثغر أسوان إلى أن مات به، وكانت وفاته في ليلة الخميس العشرين من شوال سنة أربع وعشرين وسبعمائة، ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين مستهل ذي القعدة، وأنه شنق نفسه، ووُجد في بكرة النهار وهو معلق بسَلَبة في الدار التي كان قد نزل بها، وتُعرف بدار «ابن يحيى» هذا هو الذي ظهر من أمر وفاته.

وأخبرني مُتَولّي ثغر أسوان ـ وهو أحد من تَولّى قتله ـ أنه وصل إلى الثغر في ليلة الأربعاء ركن الدين بن موسك، نائب متولّي الأعمال القُوصية، وصحبتُه بعض مماليك متولي الأعمال، فأقام بالثغر يوم الأربعاء، وأظهر أنه إنما حضر لتحرير ما سقط من النخل في شهر رمضان بسبب هواء كان قد هبّ فسقط لهبوبه نخل كثير، وطلب أرباب السواقي في ذلك اليوم، وشاع أنه إنما وصل إلى الثغر بسبب ذلك.

فلما كان في ليلة الخميس توجه المتولي بالثغر، وابن موسك ومن معهما إلى داره، وطرق المتولي الباب على كريم الدين فخرج إليه غلام، فقال له من وراء الباب: من هذا؟ فقال: عرِّف القاضي أن مملوكه فلان حضر «يعني المتولي نفسَه» فأعلمه الغلام، وعاد ففتح الباب فقال متولي الثغر: فلما صِرت من داخل الباب أرسلتُ الغلام الذي فتح لي الباب إلى الاعتقال، وخرج غلام ثان ففعلت به كذلك، فدخل غلام آخر وأخبر كريم الدين بذلك، ودخلت في إثره فوجدت كريم الدين على تخت، وابنه عبد الله عنده فسلّمت عليه، وقلت لولده عبد الله: يا علم الدين تعالى إليّ أعرفك، فلما جاء إليّ أخذته وخرجت من عند أبيه، فصرخ بي كريم الدين، وجعل يقول: يا شمس الدين، يا شمس الدين، يكرر هذا القول، فلم ألتفت إليه، ودخل عليه أولئك القوم فخنقوه، وعلقوه بسلبة بعد أن أغلقوا بينه وبين نسائه بابًا، وأغلق باب الدار من داخله وتوجه القوم فعرَّفت ولده الحال، وقررت معه أن يقول في بكرة النهار إذا طُلب: إنه تخاصم مع أبيه وخرج من عنده، وأنه حرِج منه، ففعل ذلك بنفسه، قال: فلما كان من بُكرة النهار توجه المتولي وابن موسك إلى باب دار كريم الدين، وطرقوا الباب، فلم يجبهم أحد، فتوجه المتولي إلى دار قاضي البلد، وهو القاضي شرف الدين شعيب بن القاضي جمال الدين يوسف السيوطي[١] وهو يصرخ ويقول: هرب كريم الدين، والله لئن تم هربه لأشنقن بني الكنز، وأخذ القاضي وجماعة من العدول وحضروا إلى الدار، وكسروا الباب، ودخلوا الدار، فوجدوا كريم الدين مشنوقًا، فأخبر القاضي شرف الدين المذكور حاكم الثغر بأنه وُجد في عنقه سلبة ليف كانت وَشِيجة لفرس، وعليها آثار زبل الدواب، وطُلب ولده، وسئل عن خبره، فقال ما لقّنه؛ أنه تخاصم معه بالأمس وخرج من عنده، وقد أغضبه، فكأنه وَجَدَ في نفسه من ذلك فشنق نفسه، فنُظم بذلك مشروح وسُير إلى الأبواب السلطانية في التاريخ المذكور. ودفن بثغر أسوان ولما وصل الخبر بوفاته إلى الأبواب السلطانية رسم بطلب ولده من ثغر أسوان، ولما تحقق الناسُ موته، وعلموا طلب ولده خشي من كان عنده وديعة له أن ولده إذا وصل يعترف عليهم، فظهر من ودائعه جملة عظيمة منها ما أحضره الأمير علاء الدين علي بن هلال الدولة[٢] ـ فيما بلغني ـ ذهب مصكوك بثمانية عشر ألف دينار، ومصوغ، وزركش وجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، أحضر صارم الدين أستاذ دار كريم الدين ـ وهو الذي كان أستاذ دار الأمير

(١) توفي في حدود سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٩٤).
(٢) توفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١٣٦).

علم الدين سَنجَر الجاولي ـ صندوقًا كبيرًا ضمنه من الجواهر والحوايص المجوهرة والفصوص وغير ذلك ما قيمته ـ فيما قيل ـ مائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك.

ولما حضر ولده علم الدين طُولب بالمال، وسُعط بالخل والجير، فاعترف أن له وديعة عند صارم الدين أستاذ دار والده، فطلب فأحضر نحو عشرة آلاف دينار، وأُنكر عليه كونه أخّر إحضار هذا المال، فقال: هذا كان وديعة عندي لهذا، وقد أحضرته الآن، فلم يؤاخَذ بذلك. ثم أفرج عن ولده علم الدين عبد الله بعد ذلك، واستقر بحارة الدَّيْلم بدار أبيه الصغرى.

هذا ما كان من خبر القبض على كريم الدين ووفاته. فلنذكر خلاف ذلك من أخباره.

* * *

ذكر شيء من أخبار كريم الدين المذكور وابتداء أمره «وتَنقّلاته وما كان قد انتهى إليه من القُرب من السلطان والتمكّن من دولته»

كان كريم الدين المذكور في ابتداء أمره في حالة شبيبته في خدمة خاله تاج الرياسة بن سعيد الدولة[1]، وكان معه بمدينة قوص لما كان كاتبًا للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري البريدي متولي الأعمال القوصية ـ كان ـ في الدولة المنصورية السيفية، وكان هو وخاله إذ ذاك ـ وبعده بسنين كثيرة ـ على دين النصرانية، وتوجَّه معه إلى الأعمال القوصية، ورُتب كريم الدين في كتابة المِسْطَبة بقوص، وهي كتابة نائب الولاية، ثم خدم بعد ذلك الأمراء، فكان ممن خدمه منهم: الأمير سيف الدين جاوَرْشِي الحسامي، والأمير سيف الدين قَجْقَرا وغيرهما، وباشر بعد ذلك وظيفة كتابة في البيوت السلطانية، ثم أسلم في الدولة الناصرية، وباشر نظر ديوان الأمير ركن الدين بيبرس أستاذ دار العالية؛ إذ تمكّن منه، وظهر اسمه، وشاع ذكره ونَوّه الناس به، وأظهر المكارم، وبذل ماله، فمدحه الشعراء، ورغب الناس في صحبته والاجتماع به، ولم يزل على ذلك وحاله تتزايد إلى أن استقر بيبرس الجاشنكير في السلطنة كما تقدم، فعظم عند ذلك شأنه، وارتفع مكانه، وعلت رُتبته، وسمت هِمَّته، وهو مع

(١) هو تاج الدين بن سعيد الدولة القبطي، توفي سنة ٧٠٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥١٥).

ذلك تبع لخاله تاج الدين بن سعيد الدولة[١]، يأتمر بأمره، ويتصرف عن رأيه، ويقف بين يديه، وإذا خاطبه تاج الدين لا ينعته غالبًا بل يكنِّيه بأبي الفضائل لا يزيده على ذلك، سمعته يخاطبه بذلك، وكان تاج الدين المذكور قد تمكن في دولة بيبرس الجاشنكير المنعوت بالملك المُظَفَّر، وكان يباشر نظر الدولة، ويجلس إلى جانب نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلاّر بدركاة باب القُلّة، ويكتب على سائر ما يكتب عليه السلطان قبل خط السلطان ما مثاله «يحتاج إلى الخط الشريف» ولا تقدم الدَّواداريَّة[٢] للعَلامة إلا بعد مشاهدة خطّه بذلك، إلا كتب البريد خاصة، وكانت كتب السلطان الملك المظفر إلى النواب والولاة وغيرهم بالشام وغيره لا تُخْتم إلا بعد عرضها عليه إذا كان فيها ذكر الأموال، فلما مات تاج الدين بن سعيد الدولة في سنة تسع وسبعمائة في سلطنة المظفر بيبرس استقر كريم الدين في وظيفته، فلم تطُل المدة إلى أن خلع بيبرس من السلطنة كما ذكرناه، فكانت هذه الولاية كسحابة صيف، أو زيارة طيف.

ولما توجه المُظّفر بيبرس إلى الصعيد توجه كريم الدين معه، فلما استقر السلطان الملك الناصر بقلعة الجبل حضر كريم الدين إلى الأبواب السلطانية برسالة مخدومه، وأعاد الخِزانة التي كانت معه، فخلع السلطان عليه بسبب ذلك، ثم قُبض عليه لما قُبض على بيبرس، ورُسم بمصادرته، وسَلّمه السلطان للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، وأمره باستصفاء أمواله، وإعدامه بعد ذلك من الوجود، لما كان يبلغ السلطان عنه في زمن خدمته لبيْبرس الجاشنْكير، عند ذلك بذل كريم الدين الأموال، وفَرّقها فيمن يقْبلها من مماليك السلطان وغيرهم، فأعطى مالاً كثيرًا، فيقال: إنه أعطى للأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجوكانْدار نائب السلطنة يومئذ عشرة آلاف دينار، وأعطى غيره، وأقلّ ما بذل خمسمائة دينار عَيْنًا فيما بلغني، فمال إليه المماليك السلطانية، واعتنوا به، وتكلم الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي مع السلطان في أمره، وتلطف غاية التلطف من غير أن يأخذ منه مصانعة، ولا قبل له بذلاً، ولا حسّن للسلطان

---

(١) سماه المؤلف قبل قليل: تاج الرياسة بن سعيد الدولة.

(٢) الدوادار: من الكلمة العربية: دواة، ومن اللاحقة الفارسية: دار، بمعنى الصاحب والقيم، أي صاحب الدواة (تأصيل الدخيل ص١٠٩)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٩/٤: الدوادارية: وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار، وكاتب السر، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب.

إبقاءه، وقال للسلطان: هذا مطَّلع على أموال بيبرس ومتاجره، وهي كثيرة ببلاد الفرنج وغيرها، ومتى مات ضاعت على السلطان، فلم يزل يتلطف إلى أن رسم السلطان بالإفراج عنه، ورسم له أن ينظر الخاصّ بالوجه القبلي وهو الخاصّ الذي كان لبيْبرس في زمن إمرته، وأقرّ له في السلطنة، فسأل كريم الدين المذكور شهاب الدين أحمد بن علي بن عبادة[1] - وكيل الخاص الشريف السلطاني - أن يكون وكيله فيما يختص بنفسه، فأجابه إلى ذلك ووكَّله، وكان يتردد إلى خدمته في كل يوم، ويسلُك معه من الآداب ما لا مزيد عليه، ولا يخرج عن أمره، وهو مع هذا يجتمع بالمماليك السلطانية، ويتقرب إليهم بالهدايا والألطاف، ويبذل لهم الرغبات، فرُسم له بنظر ديوان الملك المنصور «علاء الدين علي»[2] ولد السلطان.

ثم مرض شهاب الدين أحمد بن عبادة ومات في سنة عشر وسبعمائة، فتكلم الأمراء المماليك السلطانية مع السلطان في أمره، فوكَّله وجعله ناظر خواصّه على عادة شهاب الدين بن عبادة، وذلك في جُمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة، فباشر هذه الوظيفة، وخدم الأمراء، وبالغ في ذلك، وأفرد السلطان لخاصّه ثغر الإسكندرية، فاستقلّ كريم الدين بمباشرته، وانفرد به دون وزير الدولة وغيره، وأخذ من السلطان مالاً للمَتْجَر، فحصل منه فوائد كثيرة، وأخذ أمره في التَّمَكُّن، وانتمى إلى الأمير سيف الدين طُغاي الحُسامي[3] الناصري، فكان يحمل إليه الألطاف والتحف، ويبالغ في خدمته، وهو يقرِّبه من السلطان، ويشكره، ويذكر محاسنه، واحتفاله بالمصالح، وحسن مباشرته، فتمكن بذلك عند السلطان، وظهر اسمه وعلت رتبتُه، فعلم أنه لا يستقيم له ما يرومه، ويحصل تمكنه على ما في نفسه مع بقاء الوزير، فتلطف إلى أن كان من عزل الصاحب أمين الدين ما ذكرناه، وحَسّن للسلطان اختصار الوزارة، وأنّ السلطان يشاور في جميع الأمور، ويتصرف فيها عن أمره، ويطّلع على أحوال دولته، ما قَرُب منها وما بَعُد، فوقع ذلك من السلطان بموقع، ووافق عليه، واختُصرت الوزارة، وأضاف السلطان إلى كريم الدين ما كان بيد الصاحب أمين الدين من نظر البِيمارستان المنصوري والقُبة والمدرسة، ومكتب السَّبيل، وأوقاف ذلك، فعندها استقلّ كريم الدين بالأمر، وأظهر القوة برفق، ولم يزل أمره يأخذ في الازدياد والظهور والتقدم وعُلو الشأن، وهو مع ذلك يراجع الأمير سيف الدين طُغاي؛ ويتردد

---

(١) توفي سنة ٧١٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٢١٠).
(٢) توفي سنة ٧١٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١١٥).
(٣) مات بالحبس سنة ٧١٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢١ - ٢٢٢).

إليه، ولا يخالف أمره، ثم مال إلى غيره من الأمراء المماليك السلطانية، ورأى في نفسه أنه قد كبر على مراجعة طُغاي أو غيره، فظهر ذلك لطُغاي، فتنكر له، وغضب لميل كريم الدين إلى غيره، فأعمل كريم الدين الحيلة والتلطف إلى أن كان من إخراج طُغاي إلى نيابة صفد والقبض عليه ما قدّمنا ذكره، فلم يبق له عند ذلك منازع ولا مشارك في الكلمة، ومال السلطان إليه ميلاً عظيمًا، وقَرُب منه قُربًا ما قَرُبَه منه أحد، ولا سمع بمثله، حتى ولا ما بلغنا عن الرشيد والبرامكة ما لو شرحناه لطال، وزاده السلطان في التشاريف، فكان يخلع عليه أولاً «كنجي» مطلق ثم خلع عليه «كنجي» منقوشًا ثم رفعه عن هذه الرتبة فخلع عليه أطلسًا معدنيًا أبيض، وتحتانية أطلس أخضر بطرْزَ زركَش على الفُرْجَتين، ولم يخلع مثل ذلك على متعمِّم قبله، ولا على نائب سلطنة، وبلغني أنه رُسم له أن يلبس في خلعته الشاش المشمر الذي لا يخلع إلا على صاحب حماة، وهو شاش سكندري مقفّص بحواش زُرق بقبضات ذهب مصري، فاستعفى من ذلك.

ثم فوَّض السلطان إليه بعد ذلك جميع ما بيده من التصرُّف في الأموال والولايات، والبيع والابتياع والنكاح والعتق وغير ذلك، أقامه في جميع ذلك مَقام نفسه، وقال السلطان في مجلس عام: «فوّضت إليه ما هو مفوَّض إليّ». وزاد معلومه المُقرّر له على الدولة، فقرر له ما لم نعلم أنه قُرِّر لمُتَعَمِّم قبله، وكان يستدعي من الحوايج خاناه والمطبخ السلطاني ما يحتاج إليه من الطاري، فيُحمل إليه من غير استئذان أحد، وأضاف السلطان إليه النظر على أوقاف الجامع الطولوني عوضًا عن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، وكان قاضي القضاة يلي ذلك بشرط الواقف، فانتزعه منه، وفوّضه إلى كريم الدين، فباشره أحسن مباشرة، وحصل له من السعادة في مباشرته أنه كان إذا اختلت جهة من الجهات ففوضت إليه صلح أمرها، وتميَّزت أموالها، وصار هو الآمر في الدولة مصرًا وشآمًا، وكان أمره يصدر لفظًا لا خطًا، ولا يراجع إذا أمر بولاية أو عزل أو طلاق أو منع أو زيادة أو توفير، فكان يرسل إلى القاضي علاء الدين علي بن الأثير[1] صاحب ديوان الإنشاء أن يوقع بكذا، أو يكتب بكذا، فيفعل ذلك من غير مراجعة ولا توقف على استئذان السلطان، بل يكتب لوقته ما يأمر به، ويكتب في آخر المرسوم أو التوقيع حسب الأمر الشريف، فتصرَّف كريم الدين في أموال المملكة وولاياتها ووظايفها بلفظه، فكان سائر أرباب الوظائف يتصرفون عن أمره.

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٤. وسيورد المؤلف ترجمته في حوادث سنة ٧٣٠هـ.

ولقد انتهى أمره في التعاظم إلى أن حضر الأمير علاء الدين الطُنْبُغا[١]، نائب السلطنة بحلب إلى الأبواب السلطانية في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وركب في خدمة كريم الدين إلى داره، فلما قرب من الدار ترجل عن فرسه ومشى وكريم الدين راكب ما تغير عن حاله إلى أن انتهى إلى المكان الذي عادته أن يركب منه وينزل فيه، وانتهى تمكنه إلى أن ركب السلطان إلى داره، مرارًا، فركب مرة إلى تربته بالقرافة، ونزل ودخل الخانقاه التي أنشأها كريم الدين بها، وأكل طعامه فيها، وركب مرة ثانية إلى داره التي أنشأها ببركة الفيل، ووقف السلطان بنفسه، وقَسّمها المهندسون بحضوره، والسلطان يشاركهم في الهندسة والقسمة.

ولقد مرض قبل أن يأمر السلطان بالقبض عليه بأيام، فأظهر السلطان عليه من القلق والألم ما لا مزيد عليه، وكان يرسل إليه في كل يوم جماعة من مماليكه الأمراء الخاصَّكِية[٢] يسألون عنه، ويعودون إلى السلطان بخبره، ثم يرسل آخرين بعدهم، هذا دأبه في طول نهاره، وأرسل إليه جملة من المال يتصدق بها في مرضه. ولما عوفي زينت له القاهرة أحسن زينة، كما تزين للفتوحات الجليلة، ولعود السلطان من الغزوات المنصورة عند هزيمة أعدائه، وبات الناس بالأسواق، ونُصِب في بعض الجهات أبراج من الخشب، ولبست الأطلس، والذهب وغيره، وكانت الملاهي في عدة مواضع من القاهرة بالأسواق أيامًا، وبظاهر القبة المنصورية، وفعل مثل ذلك في مرضه عند عافيته في غير هذه المرة، وإنما كانت أكثرها احتفالاً المرة الأخيرة.

ولما عوفي من المرضة الأخيرة أمر أن يُتَصَدّق بقمصان بالبِيمارستان[٣] من وقفه، فاجتمع الفقراء لذلك، وازدحموا قبل وصوله إلى البيمارستان، فمات منهم من شدة الازدحام ثلاثة عشر إنسانًا من الرجال والنساء، وتأخر عن الحضور في ذلك اليوم. هذه حاله في أمر الدولة والتمَكّن منها، والقرب من السلطان، ونفوذ الكلمة.

---

(١) مات مخنوقًا أو مسمومًا سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٢) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته ويسوقون الحمل الشريف، ويجهزون في المهمات الشريفة ومتعينون بالإمرة، والمقربون في المملكة، كان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباي نحو ألف خاصكي (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٨١ وما بعدها).

(٣) البيمارستان: ويقال: المارستان: وهو دار المرض، معرّب، وكان البيمارستان دارًا للعلاج ومكانًا لتدريس الطب (الموسوعة العربية الميسرة ص٤٧٢).

وأما حاله في نفسه وأمواله ومتاجره، فإنه اتسعت أمواله ونمت، وكثرت أملاكه، وتضاعفت متاجره، إلى أن منع التجار أن يَتَّجِروا في صنف من الأصناف إلا أن يبتاعوه من حواصله بما يختاره من الثمن، واحتكر الأصناف قليلها وكثيرها حتى حبال القنب للورّاقات وقصب الغاب، وقش الحصر، وما بين ذلك إلى المسك والعنبر والعود، وماء الورد، وسائر الأصناف، لا يستثنى منها شيئًا؛ وكان في كل مدة ينادي بجمع التجار إلى داره وإصطبله لحضور حلقة البيع، فتغلق الأسواق، ويحضر الناس على اختلاف طبقاتهم، فيُخرج الأصناف من الأقمشة وغيرها، فيبيعها عليهم بما يختاره هو أو أتباعه، لا يقدر أحد منهم على الامتناع.

فلما كثرت الشّناعة في ذلك صار يجمع الناس ويُخْرِج إليهم من القماش الكمخا والصوف والنّصافِي وغير ذلك، فيُنَادي منه على خمسة قطع أو عشرة من أجوده، ويقول للتجار: اشتروا بالقيمة، فينتهي إلى قيمتها ثم ترفع إلى حاصله، ويُخْرج من جنسها ما يساوي أقل من نصف قيمتها، فيعطاه الناس بما انتهت إليه قيمة الجَيِّد منه، ويفرق عليهم، فكان الذي يأخذه الناس لا يقوم لهم بنصف الثمن الذي يعطونه، ومنه ما لا يحفظ الثلث - وحكى لي بعض من أثق به من التجار العدول كثيرًا من ذلك - ثم يستخرج الثمن منهم بأشد طلب وأعنفه، فتضرّر الناس لذلك، وانكسر جماعة منهم، وغَلّقوا دكاكينهم، ومنهم من تسحب.

ثم خرج عن هذا الحد إلى تعطيل الأحكام الشرعية، والعمل بغير حكم الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، فكان يخرج مالاً في بعض الأوقات إذا بُرِض[1]، ويرسم أن يصالح أرباب الديون على ما لهم في ذمة من اعتقلوه، ويفرج عنهم، فيطلب المعتقل ومن اعتقله، ويسأل رب الدين عن دينه، ويلزم بإحضار وثيقته، فإن اعتذر عن إحضارها رسم عليه حتى يحضرها، فإذا أحضرها أخذت منه، وأمر أن يصرف له عُشْر مبلغها، أو أقل منه، أو أكثر بيسير، فإن رضي بذلك وإلا قطعت وثيقته، وأفرج عن المعتقل، ويرسم في بعض الأوقات على بعض أرباب الديون حتى يشهدوا عليهم ببراءة غرمائهم فإذا تكامل ذلك أمر كريم الدين أن تغلق أبواب السجون الحُكْمِية، ويمنع نواب الحكام من سماع الدعاوى في الديون الشرعية، فتعطلت الأحكام الشرعية، وتضرر الناس، وكان هذا الفعل من أشد ما فعله، ولا يتجاسر أحد أن يذكر ذلك له، ولا يعيبه عليه، حتى صار المُنْكِر لذلك ينكره بقلبه، وهو أضعف الإيمان.

وكان كثير من المرائين يحسنون له فعله، ويشكرونه عليه، ويدعون له، فحصل للناس التضرر التام، حتى كادت المعاملات أن تنقطع من بين الناس.

---

(١) برض: يقال بُرِضَ فلان (بالبناء للمجهول) إذا نفد ماله من كثرة العطاء.

وعمل نوابه مع بعض من اعتنوا به من التجار عكس هذا، فكان بعض التجار يبيع السلعة الكاسدة على بعض المضرورين من التجار وغيرهم إلى الأجل الطويل، فيرغبون في ابتياعها لطول المدة، ويرجون بذلك أن يتسببوا فيها لصلاح أحوالهم، ويشترونها بمثلى القيمة، فإذا استقر البيع، وتسلم المشتري السلعة، وأشهد على نفسه بالثمن أحال التاجر البائع إلى ديوان كريم الدين بالثمن، فيطلب المشتري، ويرسم عليه، ويستخرج الثمن بالضرب والاعتقال، ولا يحملون فيه على حكم الشرع، ولا يستنكف نوابه من ذلك ولا يتحاشَوْن، فتضرر الناس من هذا الوجه أيضًا، حتى كان منهم من يبيع السلعة بعينها بنصف ما ابتاعها به من الثمن، ويعطيه، ويكلف ما بقي، فيستدينه ويعطيه.

وأما غير ذلك من حال كريم الدين فإنه كان قد تعاظم في نفسه، فيخلع الخلع السنية أشرف من خلع السلطان، فكان السلطان إذا خلع على أحد مُلَونًا خلع كريم الدين مُصْمَتًا، وإن خلع مُصْمَتًا خلع هو طَرْدَوَحش[١]، وإن خلع طَرْدَوَحْشٍ خلع طَرْدَوَحشٍ مُقَصَّبًا، وإن خلع السلطان مقصَّبًا خلع الأطلسَ المعدني بالطرز الزركشي، وأنعم بالحَوايص الذهب والكَلُوتات الزركشي وغير ذلك، وإذا خلع على من يخلع السلطان عليه الأطلس بطرز الزركش خلع عليه المزركش المُكَلّل باللُّؤلؤ والمُرَصَّع بالجوهر، وأنعم عليه بالخيول المُسَوَّمة، ويغالي الأقمشة وغير ذلك، وإذا أنعم السلطان بمال أنعم بأضعافه، فكان ذلك مما حَقَده السلطان عليه، وذكره من عيوبه، وتعاطيه ما لا يصلح.

وكان مما فعله أنه جعل لنفسه بيوتات نحوَ بيوت السلطان من شَرابْخاناه[٢]، وطست خاناه[٣]، وفراش خاناه[٤] وغير ذلك، وفي كل بيت منها من الآلات المناسبة

---

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٨٨).

(٢) الشرابخاناه: ومعناه بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان (صبح الأعشى ٤/ ٩).

(٣) طست خاناه: ويقال لها: طشت خاناه (بالشين المعجمة): ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت التي تغسل فيه الأيدي، والطشت الذي يغسل فيه القماش، وقد غلب عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء (صبح الأعشى ٤/ ٩).

(٤) فراش خاناه: ومعناها: بيت الفراش، وتشتمل على أنواع الفرش في البسط والخيام (صبح الأعشى ٤/ ١٠).

له ما لا يكون مثله إلا عند أكابر الملوك، ثم أخذ لنفسه أخيرًا بما يفعله الملوك، فكان يمدّ سِماطه وأمامه أستاذ الدار[١]، ومقدم المماليك، والجاشْنكير[٢]، والمشرف، ويأكل من ذلك الطعام من حضر من الأكابر وغيرهم، وهو بارز عنه لا يأكل منه شيئًا، فإذا رفع ذلك السماط استدعى الطاري بعد ذلك فيأكل منه، وكان في ليالي شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة يمد بين يديه السماط الذي لا يمد لنائب سلطنة مثله، ويتقدمه المشروب، ويأكل من حضر السماط من الأعيان وغيرهم، فيأكلون بعد المشروب، ثم تُمدّ الحلوى بعد السماط، وهو جالس على مرتبته لا يأكل من ذلك شيئًا، ثم يؤذن للناس في الانصراف، ويمد له طعام الطاري فيأكل منه، وبلغني أنه كان يفعل ذلك في أسفاره إلى الشام وغيره، وكانت رواتبه وافرة لم يكن لنائب سلطنة نظيرها، وعطاياه وصلاته وإنعامه وتشاريفه متواصلة بمن يتعلق بالسلطان من خواصه وأمرائه ومماليكه وغلمانه، لا ينقضي يوم إلا وقد أنعم فيه بالجُمَل الكثيرة.

وكان الذي أعانه على ذلك أنه تَخَوَّل في أموال الدولة، واتسع جاهه، وكثرت متاجره، وتقرب الناس إليه ببذل فوائد المتاجر، وضايق الناس فيما بأيديهم حتى كان يرسل كل سنة إلى تجّار الكارم ـ عند وصولهم من اليمن إلى ثغر عَيْذاب ـ من يأخذ منهم جملة من الفلفل بأقل من قيمته بعدن، ويلزمهم بحمله والقيام بما عليه من الحقوق والمكوس[٣] إلى أن يصل إلى ساحل مصر، ويقبض منهم، فإذا وصل تجّار الكارم إلى ثغر الإسكندرية لا يمكنون من البيع على تجار الفرنج إلا بعد بيع ما عنده، وحواصله كثيرة جدًا فأضرّ ذلك بالتجار من الكارمية والفرنج حتى لو استمرت ولايته لأدت إلى انقطاع الواصل عن الديار المصرية، وكانت له عدة معاصر أقصاب،

---

(١) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه: الأخذ، والثاني «دار» ومعناه الممسك، فأدغمت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال (صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨).

(٢) الجاشنكير: هو الذي يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدس عليه فيه سمّ ونحوه. وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «جاشنا» ومعناه: الذوق، ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام والشراب الشيشنيّ، والثاني «كير» وهو بمعنى المتعاطي لذلك، ويكون المعنى الذي يذوق (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٢).

(٣) المكس: هي الضريبة التي تؤخذ من التجار على ما يدخلونه البلد من البضائع للتجارة.

ودواليب بالوجه القبلي والبحري، بحيث أنه لا يخلو إقليم من أقاليم الديار المصرية، ولا بلد كبير إلا وله فيه تعلُّق من دواليب أقصاب وبساتين، أو زراعة أو متجر أو مسلف أو معاملة أو مخرج على صنف من الأصناف التي تكون بذلك البلد.

ولما عزله السلطان أمر بإبطال هذه المتاجر، ومكن الناس من ابتياع الأصناف وبيعها، ورفع عنهم الحجر في ذلك، فاستبشر الناس بذلك، وانبسطت آمالهم، وطابت نفوسهم، وتحقّقوا عدلَ السلطان، وانحلّت أسعار الأصناف التي كان يحتكرها، فتضاعفت الأدعية بدوام دولة السلطان، وعلموا أن تلك الأفعال الشنيعة لم تكن عن أمر السلطان، ولا برضاه، وقد كان يوهم الناس ويصرح لبعضهم أنه لولا ما يفعله من إرضاء السلطان بما يحصل له من فائدة المتاجر والدواليب، وسَدّ ما يحتاج إليه السلطان بتدبيره كان السلطان قد استصفى ما في أيدي الناس من الأموال، فعلم الناس الآن أن الأمر ليس كذلك، فرجوا من الله تعالى دوام الخير، وزيادة العدل والإنصاف.

ولما عزله السلطان فَوّض ما كان بيده لمن نذكر: فَوّض نظر خواصِّه ووكالته للقاضي تاج الدين أبي إسحاق إبراهيم وكان قبل ذلك يلي نظر الدواوين بالديار المصرية، وفَوّض النظر على البيمارستان المنصوري والقُبّة والمدرسة ومكتب السبيل وأوقاف ذلك للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، وهو رأس الميمنة، وفَوّض نظر الجامع الطولوني وأوقافه للأمير سيف الدين قِجْليس أمير سلاح.

ذكر تفويض الوزارة للصاحب الوزير أمين الدين عبد الله(١)
«وهي الوزارة الثانية له»

قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا أن الصاحب الوزير أمين الدين عبد الله بعد عزله من الوزارة في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فوّض إليه نظر النظار والصحبة، ثم عزل عن ذلك، ولزم داره، ثم رسم له بنظر المملكة الطرابلسية، ورُتّب له على هذه الوظيفة نظير معلومه الذي كان له على وظيفة نظر النظار بالديار المصرية، فتوجه إليها كارهًا في سادس عشر صفر سنة ثماني عشرة وسبعمائة، وأقام بها إلى أن سأل أن يُفْسَح له في التوجه إلى الحجاز الشريف، فأذن له في ذلك، فحجّ ولم يعد إليها،

(١) هو عبد الله بن تاج الرياسة القبطي، أمين الدين الوزير، توفي سنة ٧٤٠هـ أو ٧٤١هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٢/٣٤٨، كنز الدرر ٩/٣١٢، الدرر الكامنة ٢/٢٥١).

واستعفى من المباشرة، فرسم له بالإقامة بالقدس الشريف، فأقام هناك، ورُتِّب له على سبيل الراتب في كل شهر ثمانمائة درهم وثمانية غراير، فلم يزل بالقدس الشريف إلى أن قبض على كريم الدين كما تقدم، فرسم السلطان بطلبه إلى الأبواب العلية، وكتب بذلك إلى نائب السلطنة الشريفة بالشام على يد الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي، فتوجه إلى دمشق، وأرسل إليه البريد منها، فحضر إلى الأبواب السلطانية.

وكان وصوله في بكرة نهار الأحد الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، فمثل بين يدي المقام الشريف، فأقبل عليه غاية الإقبال، وألبسه تشريفًا، ونزل إلى داره، فلم يستقر به الجلوس حتى طلبه ثانيًا، ففوّض إليه الوزارة، وأنعم عليه بالدواة والبغلة، وأقام بالقلعة إلى عشية النهار يُنفِّذ الأشغال، ثم ركب منها إلى داره واجتمع الناس ببابه، وامتلأت الأزقة والشوارع والرحبة التي أمام الدار على سعتها، وازدحموا حتى كاد يعجز عن الوصول إلى باب داره والدخول إليها إلا بجهد كبير.

وأصبح في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، وركب في موكب الوزارة، وجلس بدار العدل الشريف مع السلطان إلى أن انقضى المجلس، وقام إلى قاعة الوزارة، وفُتِحَ له الشبّاك بها، وكان قد أُغلق بعد عزله عن الوزارة، فلم يفتح إلا في هذا اليوم، فجلس فيه، وأظهر الإحسان إلى الناس، ونشر فيهم العدل، ووعدهم عن نفسه وعن السلطان بكل جميل، فسُرَّ الناس بمقدمه، وازدحموا عليه حتى منعوه من تنفيذ أشغال الدولة، فكانت قلعة الجبل تغص بالناس من أرباب الأشغال والوظائف والبطّالين[١] والمُتَفرِّجين، إلى أن رسم بمنع كثير من العوام من طلوع القلعة، وأقام على ذلك أيامًا حتى خفّ الناس، ولما ركب إلى مصر في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من الشهر تلقاه الناس بالفرح والسرور والدعاء له، وازدحموا عليه فيما بين مصر والقاهرة، حتى امتلأت بهم الطرق.

ولما استقرّ في الوزارة رسم للقاضي شرف الدين عبد الهادي بن زُنْبُور مستوفي الصحبة أن يكون ناظر النظار والصحبة، رفيقًا للقاضي موفق الدين، ورتب في استيفاء الصحبة القاضي شمس الدين بن قَزْوينة وهو صهر الصاحب أمين الدين على ابنته، وأحضر الصاحب جماعة من أصحاب كريم الدين وألزامه، فصادرهم بمال حمل من جهتهم إلى بيت المال، وكان في الطلب لين، ثم أفرج عنهم في أثناء جمادى الآخرة.

---

(١) البطّال: تقدم التعريف به.

ذكر القبض على كريم الدين الصغير[(١)]
«وشيء من أخباره»

كان كريم الدين هذا يخدم الأمراء الأصاغر، وكان ممن خدمه الأمير علاء الدين أَيْدُغْدي التليلي أستاذ دار الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، وهو من أمراء الأربعين، ثم توصل إلى أن باشر من جملة عمال الجيش بالديار المصرية، فلما قوي أمر كريم الدين ـ وهو من أقاربه ـ نقله من عمالة الجيش إلى نظر النظار والصحبة ليس بين ذلك وظيفة أخرى، فباشر مدة، ثم عزل عن نظر النظار خاصة، ثم أعيد إلى الوظيفة ثانيًا كما تقدم، فلما باشر عَسَف بالناس وظلمهم، واستخفّ بالأكابر، وشدّد على المباشرين والتجار والرعايا، وعاقب بين يديه، واقترح نوعًا من العقوبة سماه «المُقْتَرَح»، وبسط يده ولسانه في أبشار الناس وأعراضهم حتى ضاقوا بذلك ذرعًا، وبلغت منهم القلوب الحناجر، وهو لا يزداد إلا تماديًا، واستخفافًا بخلق الله تعالى، ثم ترقَّى عن ذلك إلى الاستخفاف بأمراء الدولة الأكابر مقدّمي الألوف، وتزايد ظلمه وتفاحش، وضرب جماعة بين يديه حتى ماتوا، وكان إذا علم أنه يُشْتَكى إلى السلطان من أمر من الأمور بادر بالدخول إلى السلطان، وأنهى إليه أنه فعل كذا وكذا مما يعود نفعه على الدولة، وأن الناس قد كرهوه وربما شكوه، وأنه لا غرض له إلا في مصلحة السلطان، ويقرر معه ذلك، فإذا اشتكى للسلطان لا يسمع فيه شكوى، ولا يلتفت إلى قول قائل، ويقرر في ذهن السلطان أنه أنصح الناس له، وأن سائر الناس كرهوه بسبب نصحه للسلطان، وتحصيل أمواله، فبقي لا يسمع فيه شكوى، فكفّ الناس عن شكواه.

فلما قبض السلطان على كريم الدين الكبير، استمر هذا على وظيفته في النظر إلى آخر يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الآخر، فرتبه السلطان في صحابة ديوان الجيوش المنصورة عوضًا عن القاضي مُعِين الدين هبة الله بن حشيش، وخلع عليه على عادة من تقدمه، وباشر الوظيفة في يوم الاثنين الثامن عشر من الشهر، وأعيد القاضي معين الدين إلى نظر الجيوش بالشام عوضًا عن قطب الدين بن شيخ السلامية، واستمر كريم الدين في هذه الوظيفة، وهو مع ذلك يكتب على عادته في نظر الدواوين، وينفذ الأشغال إلى أن حضر الصاحب أمين الدين وفوضت إليه

(١) قتل سنة ٧٢٦هـ، وسيأتي ذكره في وفيات سنة ٧٢٦هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧١).

الوزارة، فمنع من ذلك، واستمر في صحابة ديوان الجيوش، والناس في أشد ألم بسبب سلامته.

فلما كان في يوم السبت سلخ ربيع الآخر أمر السلطان بالقبض عليه، فقبض عليه هو وولده سيف الدين، وألزم بالحمل، واعتقل بالبرج بباب القرافة، ولو تمكن الناس منه أو ظهر لهم قتلوه، وكان ولده سيف الدين يخرج في الترسيم ويركب حمارًا، ويبيع قماش أبيه، ويحمل الثمن عنه، وأبيعت أملاكه، ثم سأل أن يحمل أربعمائة ألف درهم، ويتصدّق السلطان عليه بالإفراج عنه، فأجيب إلى ذلك، ثم نقل من البرج إلى القرافة، فأقام هناك بتربة الأمير سيف الدين طُقْتَمُر الدمشقي[1]، بجوار تربة كريم الدين الوكيل، واستمر على ذلك إلى أن رسم بتوجهه إلى مباشرة نظر المملكة الصَّفَدية، فتوجه إلى ذلك في يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة من السنة، وخرج من القرافة ليلاً خوفًا على نفسه أن يُقتل، وضَمِن على ولده «سعد الدين فرج الله» أن يبيع بقية أملاك والده، ويحمل عنها ليكمّل ما قُرِّر على أبيه، ولم يكن طلبه شديدًا على العادة في مثل ذلك إذا طُولب أمثالُه بحمل الأموال.

واستمر بصفد إلى أن رسم بإحضاره منها عندما أحضر كريم الدين الوكيل من القدس، فعُزل منها في شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الآخر منها، وعند وصوله اعتقل بالبرج بباب القرافة بقلعة الجبل، وطولب بحَمْل المال، فحمل من جهته مائة ألف درهم، وأفرج عنه في يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وكان من أمره بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وصول رسل متملك الأرْمَن إلى الأبواب السلطانية

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في العشر الأُخَر من جمادى الأولى وصل رسل مُتَمَلِّك الأرمن إلى الأبواب السلطانية، وفيهم الخليفة عليهم بزعمهم، وأُم الملك، وجماعة من أكابرهم يسألون مراحم السلطان في الكفّ عنهم، وأن يحملوا إلى الخزانة السلطانية قطيعة في كل سنة ألف ألف درهم ومائتي ألف درهم، وما جرت به العادة من البغال المُساقة إلى الإسطبلات، والنعال الحديد، وغير ذلك من التقادم، وسألوا أن يأذن لهم في عمارة ثغر آياس، وأن يكون ما يتحصّل منه مناصفة

---

(١) سيف الدين طقتمر الدمشقي: توفي سنة ٧١٦هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٤).

بين السلطان وبينهم، فامتنع السلطان من إجابتهم إلى المناصفة إلا أن يبذلوا عن الثغر في كل سنة ثمانمائة ألف درهم لتكملة ألفي ألف درهم.

ثم وصلت رسل الملك أبي سعيد ملك التتار، وكان في جملة رسالتهم سؤال السلطان في أمرهم، والشفاعة فيهم، فاستقر حالهم على حَمْل القطيعة المذكورة، ولم تحصل الموافقة على عمارة ثغر آياس، وأعيدوا إلى بلادهم.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبندا ملك العراقين وخراسان وغير ذلك، وكان وصولهم إلى قلعة الجبل في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة، ومثلوا بين يدي المقام الشريف في هذا اليوم، وكانوا ثلاثة، المشار إليه منهم من مقدمي التَّوَامِين[١].

ولما وصل هذا الرسول إلى حلب، أظهر كبرًا عظيمًا، وحمقًا زائدًا، فتلطف الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة بحلب به، وأكرمه وعامله بنهاية الإكرام والاحترام والأدب، فتمادى على حمقه، ولما وصل إلى حمص تلقاه نائبها، فمدّ يده إلى النائب ليقبلها، واتصلت هذه الأخبار بالأمير سيف الدين تَنكِز نائب السلطنة بالشام المحروس، فأرسل للقائه الأمير سيف الدين جوبان أحد الأمراء المقدّمين، فلما قدم على الرسول لم يكرمه، ولم يقم له، بل مدّ إليه يده ليقبلها، فصرف الأمير جوبان يده، ووَلّى ولم يسلم عليه.

ولما قرب الرسول من دمشق المحروسة أمر نائب السلطنة بها العسكر الشامي بالركوب في أتم زينة، فركبوا بالكلاوت الزَّركش والطُّرز الزركش والخيل المُسوَّمة، والعُدد المذهبة والمزركشة، والكنابيش الحرير المذهبة، وخرجوا في أحسن زي وأجمله، وأمرهم أن يقفوا سِماطَين من القابون إلى باب دار السعادة، وهي سكن نائب السلطنة، ففعلوا ذلك وما ركب نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنكِز للقائه، ولا خرج من دار السعادة، ولما حضر الرسول قدم بين يدي نائب السلطنة، وقد حفّت به الحجاب، فلم يتحرك له ولا نظر إليه كل النظر، وأوقف بين يديه، فسأله عن جوبان نائب الملك أبي سعيد، وعن الأمراء، فأجابه الرسول أنهم في عافية، ثم

---

(١) مقدمو التوامين: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

أمر بإخراجه ليستريح، فأخرج، وأنزل بالميدان في جِتر[1] أمر بنصبه له، فلما صار الرسول بالدِّهليز سأل العود إلى نائب السلطنة فاستؤذن على ذلك، فلم يؤذن له، فأرسل الرسول إليه يقول: أنا إنما أتيت من قبل الملك، ولم أجِىء من قبل جوبان النائب، ولا الأمراء، فكيف سألني نائب السلطان عنهم، ولم يسألني عن الملك؟ فأجابه الأمير سيف الدين (تَنكِز) بقوله: أنا نائب سلطنة لا أسأل إلا عن نائب سلطنة مثلي أو أمير، وأما الملك فإنما يسأل عنه السلطان خَلّد الله ملكه، ثم أرسل إليه يُعَنّفه على ما صدر منه من الحمق والترفع على الأمير الذي سيّره للقائه، وقال: «إن ما وراء الفرات من البلاد الحادثة في مملكتكم هي بلاد كفر ونفاق وخوارج، وأما ما وراء الفرات مما يلي الشام فهي بلاد إسلام، ومساكن أنبياء، ومقر العُبّاد والصُلَحاء والعلماء والفقهاء، فينبغي لمن يحضر إليها أن يتأدّب بأدب الله تعالى»، فاستعظم الرسولُ نائبَ السلطنة بالشام، وتهذبت أخلاقه وتأدب بعد ذلك مع من يصل إليه، ثم أمره بالمسير إلى الأبواب السلطانية، فتوجه وطالع نائب السلطنة السلطان بصورة الحال، فشكر فعله.

ولما وصل الرسل إلى الأبواب السلطانية، ومثلوا بين يدي السلطان أحسن إليهم وأكرمهم، وأجلسهم في مجلسه، وأدُّوا الرسالة، فكان مضمونها طلب الصلح، والحلف على ذلك، فحلف لهم السلطان.

وكان الأمير سيف الدين أيتمُش المحمدي لما توجه في الرسالة إلى الملك أبي سعيد حلفه أيضًا على انتظام الصلح، وإطفاء نايرة الحرب، وكف الغارات من الجهتين، وأحضر الرسل معهم هدية من جهة الملك إلى السلطان حياصَتَين وقماشًا، فقبل السلطان تقدمتهم، وذكروا أن التقادم واصلة صحبة تاجر الملك أبي سعيد، فأقبل السلطان عليهم، وأنزلهم برواق بدار النيابة بقلعة الجبل، ورتب لهم الرواتب الوافرة من المأكل والحلويات والفواكه وأنواع الأشربة المباحة وغير ذلك، ثم أحضرهم يوم الخميس وخلع عليهم؛ فخلع على المشار إليه منهم أطلسًا معدنيًا بطرززركش، وحياصة وكَلُوتة وسيفًا مُحلى بالذهب، وخلع على الاثنين [الآخرين] طردوحش مقصبًا بذهب وحوايص وكلُوتات، وخلع على من معهم من الأتباع والكبلجية والغلمان ما يناسبهم.

---

(١) الجتر: هي المظلّة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية (صبح الأعشى ٢/ ١٤١، ٤/ ٦، ٤٨).

ولما كان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الآخرة أمر السلطان بركوبهم بين يديه إلى الميدان، وأنعم عليهم بثلاثة أرؤس خيل، فركبوا في خدمته وشاهدوا مواكبه العظيمة، فرأوا ما لم يروا مثله، ثم أحضرهم السلطان في يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، وخلع عليهم ثانيًا نظير تلك الخلع، وأجابهم عن رسالتهم، وأنعم عليهم بالأموال الكثيرة، وأحسن إليهم غاية الإحسان.

وكان في جملة رسالتهم سؤال السلطان أن يزوج ابنته من ابن الأمير جوبان نائب الملك أبي سعيد، فاعتذر السلطان عن ذلك بصغرها، وقال: إن هذه عمرها خمس سنين، وإذا صلحت للتزويج أجبنا سؤالكم إن شاء الله تعالى، وأعادهم مكرمين، فكان توجههم من قلعة الجبل في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر، وتوجه معهم الأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي حتى أوصلهم إلى غزة، هذا ما كان من خبرهم.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى بلاد النوبة

وفي هذه السنة ـ في شوال منها ـ أمر السلطان بتجريد طائفة من العسكر المنصور المصري إلى بلاد النوبة، فجرد ثلاثة من الأمراء وهم: سيف الدين طُقصُبا الناصري الحسامي(١)، وهو المقدم على العسكر، وعلاء الدين علي بن قرا سنقر المنصوري(٢)، وعز الدين أيدَمر الكَبْكِي(٣)، وجَرّد جماعة من المماليك السلطانية، ومن الحلق، ومن أجناد الأمراء، من كل أمير مائة جنديان، ومن كل أمير طَبْلَخاناه جندي، فبلغت عدتهم نحو خمسمائة فارس، وكان خروجهم من القاهرة في مستهل ذي الحجة.

وسبب تجريد هذا العسكر أن كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز، لما تملك النوبة بعد وفاة خاله إبرام أخي كُرُنْبُس ـ كما تقدم ـ واستقل بالملك، واتصل ذلك بالسلطان أفرج عن كُرُنْبُس، وجهزه إلى النوبة، وجَرّد هذا العسكر لنصرته فتوجهوا، فلما قاربوا البلاد فارقها كنز الدولة، وتوجه وصحبته من انضم إليه من العربان، فتبعه العسكر إلى الأبواب، فلم يظفروا به، فلما حصل أمانهم منه، عادوا إلى دُنقُلة، وملكوا كرنبس بها، وعاد العسكر وتركه، ولما علم كنز الدولة بعود العسكر جمع العربان وعاد إلى دنقلة، وأخرج كرنبس منها، واستقل

(١) توفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٥).
(٢) توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٩٥).
(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٠.

بملكها، ووصل كرنبس إلى ثغر أسوان، فرسم له بالمقام به، فأقام به إلى أواخر سنة ست وعشرين وسبعمائة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة أيضًا، في ليلة يسفر صباحها عن نهار الثلاثاء ثالث المحرم توفي الملك المجاهد أنس بن الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري الضرير[١] بالقاهرة، ودفن بتربة والده بالقرافة، وقد جاوز خمسين سنة، وكانت زوجته ابنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قد اشترت منه ما يخصه من الدار المعروفة بإنشاء والده بالقاهرة، وحصل بينها وبينه خصام قبل وفاته أوجب انتقالها عنه إلى دار الشريف بن ثعلب، وسكنتها بالأجرة، فلما مات حصل بينها وبين إخوته خصام، فباعت ما ملكته من الدار الزينية لوكيل زوجة السلطان طُغاي أم ولده، واشترى الوكيل من بقية الورثة ما يخصهم من الدار بستمائة ألف وثلاثين ألف درهم، وأخرج أولاد العادل منها، وتفرقوا بالقاهرة، وسكنوا في عدة مساكن بالأجرة.

وتوفي الصدر الأمير نجم الدين محمد بن الشيخ فخر الدين عثمان بن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد بن عثمان البصروي الحنفي[٢]، وكانت وفاته بمدينة بُصرى في يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان، ودفن بها، وهو من أبناء الخمسين، وكان قد تقدم واشتهر بتحصيل الخيول الجياد، وسياقتها إلى الأبواب السلطانية، وتقدمتها إلى أعيان الأمراء، فأوجب له ذلك التقدم، فولي نظر الحسبة بدمشق، ثم نظر الخزانة، ثم وزر بالشام، ثم سعى في إقطاع فأنعم عليه بإمرة عشرة، وأقطع إقطاعًا جَيدًا، وكان قبل ذلك مدرسًا ببصرى، وكان يذكر بكرم رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شعبان توفيت بدمشق محمودة خاتون ابنة الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب[٣] توفيت بدارها وتعرف بدار كافور، وصلى عليها بجامع دمشق عقيب صلاة المغرب من ليلة الجمعة ودفنت بالمدرسة الصالحية داخل دمشق بتربة جدتها، وكانت جليلة، ولم تتزوج قط، ولم يكن في بيت العادل من هو في درجتها رحمها الله تعالى. نقلت وفاتها من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي.

* * *

---

(١) ويقال له: أنص، بالصاد المهملة (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٢، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧).

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٢.

(٣) انظر ترجمتها في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣١٨.

واستهلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة بيوم الجمعة الموافق للثالث من طوبة من شهور القبط.

وفي يوم الأربعاء السادس من المحرم نودي بالقاهرة ومصر المحروستين أن يتعامل الناس بالفلوس حسابًا عن كل رطل درهمين، وكانت قبل ذلك بدرهمين ونصف، فجرت على ذلك، تُضرب بدار الضرب فلوس جُدُد(١)، زنة كل فلس منها أرجح من درهم، مكتوب على أحد وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر ـ بدائرة ـ «السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد» في وسط حلقة مستديرة في وسط الفَلْس، واستمر الأمر على ذلك إلى يوم الخميس الحادي عشر من شهر ربيع الأول من السنة، فرسم السلطان بإبطال المعاملة بالفلوس العُتُق جملة. ونودي بذلك، وأن من كان عنده شيء منها يحمله إلى دار الضرب ويتعوض عنه، وأن يتعامل الناس بالفلوس الجُدُد الناصرية عددًا وحسابًا، عن كل درهم ثمانية وأربعين فلسًا على ما كانت عليه قديمًا.

وإنما أوردنا ذكر الفلوس في كل واقعة منها؛ لأن كل دفعة من إبطال المعاملة بها غرم الناس فيها الجمل الكثيرة من أموالهم، حتى اضمحلت أموال بعضهم، وكانت قد كثرت بالقاهرة عنَد أرباب الأموال ودواوين الأمراء، حتى اجتمع عند بعضهم منها مائة ألف درهم وأكثر من ذلك وأقل، وهي باقية محفوظة عند أكثر الناس يرجون أن يُتَعامل بها عددًا.

ذكر وفاة الخوَنْد أَرْدُكِين ابنة نوكاي(٢) زوج السلطان الملك الناصر

كانت وفاتها في يوم السبت عشية النهار الثالث والعشرين من المحرم من هذه السنة بدارها بالقاهرة، وكان السلطان قبل ذلك قد أخرجها من القلعة، وأنزلها بدارها

(١) الفلوس: مفردها «فلس» وهي لفظة يونانية معربة، وقد أخذته اليونانية قبلاس من اللاتينية، ومعناه: كيس النقود، وكذلك يقال عن الدراهم، وقد أخذها العرب عن الفارسية Diram، وهو يوناني الأصل (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٦٣).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥١٠ ـ ٥١١: الفلوس صنفان مطبوع بالسكة، وغير مطبوع، أما المطبوع، ويعبَّر عنه بالجدد، فكان في الزمن الأول إلى أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون. وأما غير المطبوع، فنحاس مكسر من الأصفر والأحمر ويعبَّر عنها بالعتق.

(٢) انظر ترجمتها في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٥، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٣٤٧.

التي بالقاهرة التي بحارة زويلة، وأجرى عليها في كل شهر خمسة آلاف درهم ومائة وخمسين درهمًا، وفي كل يوم من اللحم والتوابل والفواكه والقلويات والسكر والحلوى والكساوى وغير ذلك ما تزيد قيمته في كل شهر على خمسة عشر ألف درهم، ولما خرجت من القلعة شاع عند الخواص والعوام أن السلطان طلقها، إلا أن السلطان ما صَرّح بطلاقها، فلما توفيت حضر أخوها الأمير جمال الدين خضر بن نوكية إلى دارها، وقصد عرض ما خلّفته، وطلب الجواري المتسلمات قماشها ومالها، وتهددهن بالقتل إن عُدم من مالها شيء، فبينا هو على ذلك إذ دخل الطواشي شجاع الدين عنبر[1] أمير لالا[2]، وزمام الأدُر، وأنكر عليه فعله، وأخرجه من الدار، فتوجه إلى منزله، ولم يشهد جنازتها، ثم ورد مرسوم السلطان قبل دفنها ـ وكان السلطان يتصيد بأعمال الجيزية ـ بمنع الأمير جمال الدين أخوها[3] من التعرض إلى تركتها والإنكار عليه، والاحتراز على الموجود وضبطه، وإقرار ما كان باسمها من المرتب على جواريها، وخدمها إلى أن يعود السلطان إلى القلعة.

ولما كان في يوم الأحد مستهل صفر أرسل السلطان إلى أخيها المذكور مائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم، ووقع الإشهاد عليه بالبراءة من جميع ما خلّفته أخته من الأموال والمصوغ والأملاك وسائر الأصناف على اختلافها، وأشهد عليه أنه وصل إلى حقه من ذلك كله، وأبرأ ذمة السلطان.

وفي هذه السنة أمر السلطان بحفر خليج الذكر من فمه مما يلي نهر النيل إلى أن ينتهي إلى الخليج الحاكمي، فقسم ذلك على الأمراء، وحفر حفرًا جيدًا حتى نبع الماء في بعضه، وأصرف الأمراء على هذا الحفر الحفير جملة كثيرة من أموالهم وكان الشروع في الحفر في العشر الأخر من جمادى الآخرة فلما فُتح كادت القاهرة أن تغرق لكثرة المياه الجارية منه وحدّتها، فاقتضى ذلك سد القنطرة التي عليه وكان قد بنى لها عضادتان مما يلي البحر؛ ليدفعا عنها صدمة الماء، فتحامل الماء على القنطرة فاقتلعها، ولم يفد ما عُضّدت به، ولم يحصل منه من الإفادة ما كان يظن به، فأمر السلطان بحفر خليج مستجد، على ما نذكره في سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/٢٥٨، والدرر الكامنة ٣/١٩٩.
(٢) اللالا: أي المربي من الخدم (شفاء الغليل ص٢٠١).
(٣) أخوها: بالرفع، والصحيح أخيها بالجر.

ذكر خبر النيل في هذه السنة

وفي سنة أربع وعشرين وفَى النيل المبارك بمقياس مصر في يوم الأربعاء تاسع شعبان الموافق للثامن من مِسرى، وحصل التحليق والكسر في يوم الخميس عاشر الشهر، ثم أخذ في الزيادة على تدريج إلى أن انتهى إلى ثمانية عشر ذراعًا وتسعة عشر أصبعًا بمقياس مصر، ولم ينتهِ في الزيادة في هذا العصر إلى مثل هذه الغاية، فغرقت البساتين والأقصاب، وفاض الماء على الجُرُوف حتى أخبرني جماعة ممن حضر من الصعيد الأعلى أنهم سافروا من مدينة قوص إلى ساحل مصر لم يجدوا من السواحل ما يضرب فيه أوتاد المراكب إلى ساحل أخميم، وكوما بمنية بنى خَصِيب، وما عدا ذلك من السواحل فإن الماء طما عليها، وثبت الماء على ذلك زمنًا، حتى خشي الناس من بقائه، ثم أخذ في الهبوط عند الحاجة إلى نقصه، فانكشفت الأراضي، وزرع الناس، ولولا هذا الثبات ـ الذي كره الناس ـ كان قد شرِق جملة من الأراضي مع وجود هذه الزيادة العظيمة، فإن سائر الجسور التي تحبس المياه تقطعت وخرج الماء منها، فلما حصل ثبات النيل بقي الماء على المزارع، حتى استوفت حقها من الري، فسبحان اللطيف الخبير القادر.

وقد ذكرنا في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ـ في أيام الحافظ عبد المجيد[1] ـ أن زيادة النيل انتهت إلى تسعة عشر ذراعًا وأربعة أصابع بمقياس مصر، وبسبب هذه الزيادة العظيمة في سنتنا هذه شَرِق إقليم الفيّوم، لأن سِكر النهر انقطع، وخرج الماء بجملته إلى البحيرة، فغرق ما حولها، وشرق ما سوى ذلك، واجتهد السلطان بعد ذلك في إصلاح السِّكر، وندب لذلك الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي الحاجب ـ كان ـ وهو من أكابر أمراء المشورة الذين يجلسون في مجلس السلطان، فأصلحه وأتقنه إتقانًا جيدًا، فتدارك الناس بسبب إصلاحه زراعة الصيفي خاصة بإقليم الفيوم.

وفيها ـ في شهر ربيع الآخر ـ وصلت رسل الملك أَزْبَك[2] متملك صَراي[3]

---

(١) الحافظ عبد المجيد: هو الحافظ لدين الله عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر العلوي، المتوفى سنة ٥٤٤هـ، ومدة خلافته بمصر عشرون سنة، وقام بالأمر بعد ولده الظافر بأمر الله إسماعيل (انظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٨).

(٢) أزبك: هو أزبك خان بن طقطاي بن منكوتمر بن طغاي بن جنكزخان، ملك التتار، توفي سنة ٧٤٢هـ، (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).

(٣) صراي: هي مدينة عظيمة كانت قاعدة البلاد الشمالية من مملكة التتار (السلوك ٢/ ٦١٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).

والبلاد الشمالية إلى الأبواب السلطانية، ومثلوا بين يدي السلطان، وأحضروا ما معهم من الهدايا فقُبلت، وشملهم الإنعام، وأعيدوا إلى مُرسلهم بالهدايا صحبة رسل السلطان إليه.

وفيها وصل إلى الديار المصرية الملك موسى[١] متملك بلاد التَّكْرور[٢] لقصد الحج، وتوجه إلى الحجاز الشريف، ورجع إلى بلاده في سنة خمس وعشرين، وكان قد أحضر صحبته جملة كثيرة من الذهب، فأنفقها بجملتها وفرّقها، وتعوّض ببعضها قماشًا، واحتاج إلى أن استدان جملة من التجار وغيرهم قبل سفره.

ذكر عزل الصاحب أمين الدين[٣] عن الوزارة وصرف من نذكر من ولاة المناصب، وتفويض الوزارة إلى الأمير علاء الدين مُغلطاي الجمالي وترتيب من نذكر

وفي يوم الخميس الثامن من شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة عزل الصاحب أمين الدين عبد الله عن الوزارة، وسبب ذلك أنه لما فُوِّض إليه أمر الوزارة ألان جانبه للناس، وكفّ لسانه ويده عن أذاهم، وأخذ نفسه بالتأني والسكون وعدم القلق، فطمع الناس، وقصر الولاة والمباشرون في استخراج الأموال، وتحصيل الغلال، فانساق بعضها إلى الباقي، واتصل ذلك بالسلطان، فأجمع رأيه على عزله، وشاع ذلك بين الناس في أوائل الشهر، فلما كان في هذا اليوم رسم السلطان بانفصاله، وعامله حالة العزل بإحسان كثير، وذلك أنه رسم له في يوم الخميس هذا تنفيذ الأشغال والكتابة على عادته إلى ما بعد صلاة العصر، ثم قام من مجلس الوزارة، وخرج وحجّابه بين يديه، ومن جرت العادة بركوبه في موكبه من أرباب المناصب، وركب والناس يدعون له، ويستبشرون ببقائه واستمراره، فلما وصل إلى داره بالقاهرة، واستقر بها خرج خادمه، وصرف من على بابه من الغلمان والمقدمين والسعاة وغيرهم، وأعلم من كان على الباب بانفصاله، ولم يستقر في خدمته من غلمانه إلا من كان في خدمته من قبل وزارته، وانقطع بداره ولم يركب في يوم

(١) هو الملك الأشرف موسى بن أبي بكر (انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١١٢، السلوك ٢/ ٢٥٥).

(٢) بلاد التكرور: في الجنوب الغربي للسودان، وتكرور مدينة على النيل (صبح الأعشى ٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٣) هو أمين الدين عبد الله بن تاج الرياسة القبطي، توفي سنة ٧٤٠هـ أو سنة ٧٤١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

الجمعة إلى الجامع، ولا أذن لأحد في الدخول عليه، ثم رسم السلطان ألا يتعرض إليه، وأقر باسمه ما كان قد رتب له عند انفصاله من طرابلس، وأذن له أن يتصرف ويركب في مصالحه.

واستوزر السلطان بعده مملوكه الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي، وهو يومئذ أستاذ الدار العالية، وأقره في الوظيفتين، وخلع عليه في يوم الجمعة التاسع من الشهر، وأمر السلطان بصرف ناظري النظار، وهما: القاضي موفق الدين والقاضي شرف الدين بن زُنْبُور[١]، ورتب القاضي شهاب الدين بن سعد الدين الأقفاصي[٢] في نظر الدواوين، وكان يلي نظر البيوت السلطانية، وخلع عليه بغير طرحه، وكتب إلى الشام بطلب القاضي شمس الدين غبريال[٣] ناظر الشام، فحضر على خيل البريد، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر فرتب ناظر النظار والصحبة، وخلع عليه.

ورُتب كريم الدين عبد الكريم المعروف بالصغير في نظر الشام عوضًا عن شمس الدين غبريال، وخلع عليه في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان، وتوجه من الشام على خيل البريد في يوم السبت السادس عشر من شوال، فوصل إلى دمشق في يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر، وخلع عليه بدمشق أيضًا في يوم الأحد، وباشر الوظيفة.

وكان قد رسم بطلب الأمير علم الدين سَنْجَر الحمصي - شادّ الدواوين[٤] بحلب - ليرتب في شد الدواوين بالأبواب العالية، فحضر، وخلع عليه، ورُتب في وظيفة الشد، وحضر مع الوزير في المجلس وشاركه في الكلمة والتنفيذ، فرسم له ألا يتعدى عادة المشدين في الجلوس على باب دار الوزارة، فامتنع من ذلك، فلما وصل القاضي شمس الدين من الشام رتب علم الدين المذكور في ولاية الجيزية، وأظهر له أن الوظيفتين معه ورسم له أن يتوجه إلى الجيزية، ويحضر إلى القلعة في يومي

---

(١) شرف الدين بن زنبور: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/٢٥٦، وفيه: شهاب الدين بن الأقفهسي.

(٣) شمس الدين غبريال: هو عبد بن صنيعة القبطي، أسلم سنة ٧٠١هـ، وتوفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٦٢).

(٤) شاد الدواوين: هو متولي التفتيش على الدواوين، والشاد هو متولي الوظيفة المتخصصة بالكلمة المضافة إليه، وكانت مهمة شاد الدواوين مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها، وعادته إمرة عشرة (مصطلحات صبح الأعشى ص١٩١).

الخميس والاثنين، ويعود في بقية النهار إلى الجيزية، وندب معه شهاب الدين الناظر، ثم رسم بعد ذلك أن يتوجه الأمير علم الدين المذكور إلى طرابلس على وظيفة الشد بها، فتوجه وباشر الوظيفة المذكورة مدة يسيرة ثم عزل عنها.

وأما ناظرا النظار المنفصلان فإن القاضي شرف الدين بن زنبور لما أُفصل من النظر، رتب في نظر خزائن السلاح، وخلع عليه، ونُقل ناظر خزائن السلاح ـ وهو القاضي علاء الدين بن القاضي برهان الدين البرلسي ـ إلى نظر بيت المال على عادته القديمة، وأعيد القاضي تاج الدين بن السكري ناظر بيت المال إلى شهادة الخزانة.

وفي ذو القعدة من السنة طولب الصاحب أمين الدين والقاضي موفق الدين ناظر النظار ـ كان ـ بتفاوت ثمن كتان كان الصاحب قد رسم بأخذه من بعض فلاحي الجيزية من جملة ما عليهم من البواقي بمبلغ مائة ألف درهم، ولم يحفظ القيمة وقرر على الصاحب أمين الدين خمسون ألف درهم، وعلى القاضي موفق الدين خمسة وعشرون ألف درهم، ورسم باستخراج جامكية شهرين من سائر مباشري الدواوين السلطانية، فاستخرج ذلك منهم.

وفي هذه السنة سقط من منارة الإسكندرية أكثرها، وكان سقوط ذلك شيئًا فشيئًا، وفيها ـ في ذي الحجة ـ وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد صاحب خراسان والعراقين وما مع ذلك، ومثلوا بين يدي المقام الشريف السلطاني بقلعة الجبل المحروسة في يوم الاثنين ثامن الشهر، وأحضروا صحبتهم من التقادم والهدايا ما لم تجرِ بمثله عادة لكثرته، وخلع السلطان عليهم، وشملهم بالإنعام الوافر، ورسم بعودهم في يوم الخميس حادي عشر الشهر.

ذكر متجددات وحوادث كانت بالشام

في هذه السنة غلت أسعار الغلال بالشام وانتهت غُرارة القمح بدمشق إلى مائة وعشرين درهمًا، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الناصر ـ خلد ملكه ـ برز أمره المطاع بما أوجب انحطاط الأسعار، وذلك أنه رسم بإبطال ما على الغلال من المَكْس في سائر البلاد الشامية، وذلك في شهر ربيع الآخر، ثم رسم للنائب بالكرك المحروس أن ينقل إلى دمشق المحروسة جملة من الغلال التي بها، فانحلّت الأسعار، ثم رسم لسائر الأمراء بالديار المصرية أن يحملوا الغلال إلى دمشق، وقرر على كل أمير حَمْلُ جملة معينة من الغلال، وأن يحضر نائبه ما يدل على وصول ذلك إلى دمشق، فحملت الغلال، وانحطت الأسعار انحطاطًا كثيرًا، ولله الحمد.

وفيها ـ في شهر ربيع الآخر ـ رسم بعزل قاضي القضاة بالشام جمال الدين الزُّرعي[١] بسبب شكوى نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنكِز[٢] منه، فوصل المثال السلطاني إلى دمشق بعزله في الخامس والعشرين من الشهر، وعرض القضاء على الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين فامتنع عن الإجابة إلى ذلك، واعتذر بالعجز والمرض، وصمم على الامتناع، فعند ذلك طلب الخطيب القاضي جلال الدين محمد بن قاضي القضاة سعد الدين عبد الرحمٰن بن قاضي القضاة إمام الدين عمر القزويني[٣]، فوصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل المحروسة في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الأولى، واجتمع بمولانا السلطان وخطب بجامع القلعة، وصلى بالسلطان في يوم الجمعة، وفوّض إليه القضاء بالشام، وخلع عليه في يوم الخميس ثالث عشر من جمادى الآخرة، وأنهى إلى السلطان أن عليه دَينًا شرعيًا، فأنعم عليه بألف دينار ومائة دينار وستين دينارًا عينًا، وأُرسل الذهب صحبة البريد إلى نائب السلطنة بالشام وكره أن يحضر أرباب الديون، ويعطوا أموالهم بمقتضى حججهم، ففرق ذلك عليهم، وتوجه القاضي جلال الدين المذكور من الأبواب السلطانية إلى دمشق في يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ووصل إلى دمشق في خامس شهر رجب، وفُوض قضاء العسكر الشامي للقاضي جمال الدين أحمد ابن القاضي الصدر المرحوم شرف الدين محمد بن محمد القلانسي التميمي[٤]، وخُلع عليه في سادس شهر رجب بدمشق، وخوطب بقاضي القضاة، هكذا ذكر الشيخ علم الدين البِرْزالي[٥] في تاريخه وأقام القاضي جمال الدين الزرعي بدمشق بعد أن عزل عن القضاء إلى أواخر سنة ست وعشرين ففارقها، وحضر إلى القاهرة المحروسة فوصل إليها في يوم الأربعاء منتصف ذي الحجة منها، واجتمع بالسلطان في تاسع المحرم سنة سبع وعشرين، ولم يفوض إليه ولاية، وسكن قرب السلمية خارج باب النصر.

---

(١) جمال الدين الزرعي: هو سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الشافعي، جمال الدين الزرعي، توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٢).

(٢) سيف الدين تنكز، أبو سعيد (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٨).

(٣) ولد سنة ٦٦٦هـ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٨، الدرر الكامنة ٤/ ٣).

(٤) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٣٠٠).

(٥) علم الدين البرزالي: تقدمت ترجمته.

وفيها فوّض السلطان قضاء القضاة بحلب المحروسة للقاضي كمال الدين ابن الزَّمْلَكاني[١]، وجهز إليه التقليد السلطاني بالولاية إلى دمشق، فوصل في يوم السبت تاسع عشر شعبان، فامتنع من قبول ذلك، فطولع السلطان بذلك، فغضب منه، وأمر بعزله من مناصبه بدمشق، ثم شُفِّع فيه، فعاد المرسوم بتوجهه، ووصل المثال بذلك إلى دمشق في ثاني عشر شهر رمضان، فقبل الولاية، وتوجه إلى حلب في يوم الخميس رابع عشر شوال، ووصل إلى حلب في السادس والعشرين منه، وكان سبب هذه الولاية أن قاضي القضاة زين الدين عبد الله بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الشافعي[٢] قاضي حلب توفي إلى رحمه الله تعالى بحلب في يوم الخميس تاسع عشر شهر رجب منها.

وفي هذه السنة يوم الاثنين ـ عند الزوال ـ سابع شهر ربيع الآخر توفي الشيخ الإمام العالم نور الدين علي بن يعقوب بن جبريل بن عبد المحسن بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه[٣]، وكانت وفاته بمصر بدار القاضي فخر الدين بن مسمار المعروف بابن شكر، ودفن بالقرافة الصغرى في بكرة نهار الثلاثاء بتربة ابن عم والده الشيخ عبد المؤمن بن إسماعيل بن عبد المحسن البكري، ويعرف بالطواشي عطا الله، وكان رحمه الله تعالى من العلم بالمكان الذي لا يجهل وله مصنفات منها: شرح التسهيل لابن مالك في مجلدين، وكتاب في علم البيان، وغير ذلك مما لم يكمله رحمه الله تعالى وإيانا.

وفيها توفي الطواشي الأمير شجاع الدين عنبر أمير لالا الخزندار[٤]، وزمام الأدُر، السلطانية، وكانت وفاته بقلعة الجبل في ليلة الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة بجوار الدينوري، وكان يتولى نظر المدرسة الناصرية والمدرسة الأشرفية والتربة الخاتونية ونظر الأحواض، ومشيخة الخدام

---

(١) كمال الدين ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين، أبو المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني، ولد سنة ٦٦٧هـ، وتوفي سنة ٧٢٧هـ (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/١٤٦، الدرر الكامنة ٤/ ٧٤ ـ ٧٨).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٣٩.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٥٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢.

النبوية، وله إمرة عشرة طواشيه، وكان سيِّء الخلق، كثير الحمق شحيحًا، يستقل لنفسه الكثير، ويستكثر لغيره القليل، وكان كثير التحصيل يبيع ما يهدى إليه من المآكل وغيرها، ومع ذلك فلم يوجد له طائل موجود، ولما ولي نظر المدرسة الناصرية حجب كِتاب وقفها أن يطَّلِعَ عليه أحد من مستحقي الوقف، ولم يسلك فيها شرط واقفها، وصرف للفقهاء والمعيدين نصف ما شرط لهم في كتاب الوقف، واقتطع مما صرفه أولاً في كل سنة ثلاثة أشهر، فلما مات وفوّض السلطان نظر المدرسة لنائبه الأمير سيف الدين أرغن الناصري أظهر كتاب الوقف، وتتبع ما شرطه السلطان الواقف فيه، وصرف بمقتضاه، وزاد عدة الفقهاء، وضاعف معلومهم، أثابه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين أبو المنصور محمد بن أحمد بن أحمد بن الشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن ظافر بن حسين الأنصاري الخزرجي المعروف بابن أبي المنصور المصري المالكي، وكانت وفاته بمصر في العشر الأخر من جمادى الآخرة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير نصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بَكْتاش الفخري[(١)] أمير سلاح، أحد أمراء الطبلخانات، وكانت وفاته بداره بالقاهرة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن بتربة حَمِيه الأمير شمس الدين قَشْتَمُر العجمي خارج باب النصر، وكان رحمه الله حسن المعاملة، كثير الصدقة من بقايا الخير.

وتوفي الأمير محمد بن الأمير شرف الدين عيسى بن مُهنا[(٢)] وكانت و فاته بسلمية في يوم السبت سابع شهر رجب، ودفن عند والده بقرية الأساود رحمه الله تعالى.

وفيها ورد الخبر بوفاة الوزير تاج الدين علي شاه بن أبي بكر التبريزي[(٣)] وزير الملك أبي سعيد بن خربَنْدا، وأن وفاته كانت في ثامن جمادى الآخرة بأرجان، وحمل إلى تبريز، فدفن بتربته، وكان شيخًا جليلاً، ولي الوزارة بعد مقتل سعد الدين الساوي في شوال سنة إحدى عشرة وسبعمائة، واستمر في الوزارة إلى أن مات رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢، الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٥.
(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ١١٤.
(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٤.

وفيها في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من شعبان توفي الشيخ المحدِّث نجم الدين أبو بكر عبد الله بن علي بن عمر بن سبل بن رافع بن محمود الصنهاجي الحمزي(١) بالقرافة الصغرى ودفن بها، ومولده في سادس عشر شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، سمع الكثير من الحديث، وأسمع قبل وفاته، وكان سهلاً في الإسماع رحمه الله.

واستهلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة بيوم الأربعاء الثالث والعشرين من كيهك من شهور القبط.

في هذه السنة ورد إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية رسل الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول(٢) متملك اليمن يستنجد السلطان، ويستغيث به، ويستصرخ به على ابن عمه الملك الظاهر أسد الدين عبد الله بن الملك المنصور زين الدين أيوب بن الملك المظفر شمس الدين، وغيره ممن خرج عليه من المماليك، واستولوا على بلاده، وحصروه بقلعة تعز على ما نذكر ذلك.

وقد رأينا أن نبدأ في هذا الموضع بذكر أخبار بلاد اليمن، وسياقة أخبار ملوكها، إلى أن انتهى المُلك إلى الملك المجاهد هذا المرسل الآن.

* * *

ذكر أخبار اليمن ومن وليه من العمال ومن استقل بملكه وسميت أيامهم بالدولة الفلانية

اعلم ـ وفقك الله تعالى وإيانا ـ أيها المطالع لهذا الكتاب، المتأمل لما اشتمل عليه من الفصول والأبواب، الباحث عن جمله وتفصيله، المستوعب لتراجمه وفصوله، أننا لم نترك إفراد بلاد اليمن بباب مستقل يشتمل على أخبارها، ويستدل من مضمونه على آثارها، ويعلم منه أخبار من وليها من العمال في السنين السالفة، ومن استقل بملكها في المدد الماضية والآنفة، ذهولاً عنه ولا إهمالاً، ولا أخرناه استخفافًا بقدرها ولا استقلالاً، لكنا لم نقف فيما سلف على تاريخ جُرِّد لذكرها وأُلِّف، ولا كتاب أُفرد في أخبارها وصُنِّف، وإنما كنا نقف من أخبارها على النُّبْذة الشاردة،

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٩ ـ ٥٠.

والإشارة التي تكون في أخبار غيرها من الدول واردة، فنورد من ذلك ما نقف عليه في أثناء أخبار الدولة الأموية والعباسية، والملوك الأيوبية، والأيام المنصورية والناصرية، ونحن مع ذلك نَتَوَكَّف أن نقف على مؤلِّف يجمع سيرها وأخبارها، ومُصَنِّف يكشف أستارها ويبرز أسرارها، ونسأل عن ذلك كل قادم ووارد، فلا نجد من يرد ضالَّةَ هذه الشوارد، إلى أن وصل إلى الديار المصرية المولى القاضي الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني(١) كاتب دَرْج(٢) الملك المؤيد داود ـ كان ـ من البلاد اليمنية وهو الذي أشرنا إليه فيما سلف من هذا الكتاب، وذكرنا جملة من رسائله البليغة، وآدابه البديعة، فأوقفني على كتاب ألّفه لما عاد إلى البلاد اليمنية سماه: «بهجة الزمن في تاريخ اليمن»(٣) وهو في مجلَّدة خدم بها الملك الظاهر المذكور آنفًا، فلخصت منه ما أورده الآن، فاجتمعت أخبار اليمن في هذا المكان بحسب الإمكان، وهي نبذة يستدل بها على أخباره، ولمعة تهدي المتأمل إليها إلى آثاره، وإذا انتهينا ـ إن شاء الله تعالى إلى آخر ما أورده من أخبار اليمن ـ إلى آخر سنة أربع وعشرين وسبعمائة، عدنا إلى سياقة أخبار الدولة الناصرية لسنة خمس وعشرين وسبعمائة وما بعدها.

قال ـ أدام الله الانتفاعَ بفوائده، وأجزاه من ألطافه على أجمل عوائده ـ في كتابه ما مختصره ـ وفي بعض ألفاظه ما أوردناه بالمعنى ـ:

توفي رسول الله ﷺ وولاة اليمن ثلاثة، وهم: أبان بن سعيد بن العاص بن أمية على صنعاء وأعمالها، ومُعاذ بن جبل الأنصاري على الجَنَد ومخاليفها، والمهاجر بن أبي أمية المخزومي على حَضْرَمَوت.

فلما ظهر الأسودُ العَنْسي باليمن ـ كما قدمناه ـ لحق الأمراء المذكورون بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فاستخلف معاذ على عمله عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي،

---

(١) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني ثم المكي، تاج الدين، أبو المحاسن السماوي، الأديب اللغوي، ولد سنة ٦٨٠هـ، وتوفي سنة ٧٤٣هـ، له من المصنفات: «الأكتفا في شرح الشفا للقاضي عياض»، «ذيل وفيات الأعيان لابن خلكان»، «زهر الجنان في المناظرة بين القنديل والشمعدان»، «طبقات النحاة»، «مطرب السمع في شرح حديث أم زرع» (كشف الظنون ٥/ ٤٩٥).

(٢) كاتب الدرج: هو الذي يكتب ما يوقع به كاتب السر، أو كاتب الدست، أو إشارة النائب، أو الوزير، وسمّي كاتب الدرج لكتابته هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال (صبح الأعشى ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٣) هذا الكتاب لم يذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، انظر الحاشية ما قبل السابقة.

وهو والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور، واستخلف أبان بن سعيد على عمله يَعْلَى بن منبه التميمي حليفَ بني نوفل بن عبد مناف، واستخلف المهاجر عِكْرِمة بن أبي جهل.

فلما قُتِل العنسي، وفاء أهل اليمن إلى الإسلام، أقرّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه عبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد ومخاليفه، ويَعْلَى على صنعاء وأعمالها، واستمر أهل حضرموت على الردة والعصيان.

فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقرّ عبد الله ويعلى على عمليهما، ثم عزل عمر يعلى لشكاية، واستعمل المغيرة بن شعبة على صنعاء، فشخص يعلى إلى عمر يظهر بطلان الشكاية وأن الحق كان بيد يعلى، فرده عمر إلى عمله بعد سنتين، فأقام ما شاء الله، ثم شكى إلى عمر، فأمر بإشخاصه إليه ماشيًا، فخرج حتى إذا كان على أميال من صنعاء لقيه الخبر بقتل عمر وخلافة عثمان، وإقراره على عمله، فعاد راكبًا، فلم يزل على عمله إلى أن قُتِل عثمان، وكذلك ابن أبي ربيعة.

فلما استُخْلِف علي بن أبي طالب رضي الله عنه استعمل على جميع اليمن ابن عمه عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، ففارق يعلى وابن أبي ربيعة اليمن، وأتيا مكة، وانضمَّ يعلى إلى طلحة والزبير وعائشة، وخالف عليًا، وأعان بمال وإبل كما قدمنا في أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستمر عبيد الله باليمن أيام علي، ثم تخاذل عنه أصحابه.

وأرسل معاوية بُسْرَ بن أرطأة إلى اليمن، فسفك الدماء وارتكب الأفعال الشنيعة، وقتل ابني عبيد الله كما تقدم، فلما ولي معاوية بعث إلى اليمن عثمان الثقفي، ثم عزله وجمع اليمن بكماله لأخيه عتبة بن أبي سفيان، فولي ثلاث سنين، ثم مات فاستعمل معاوية على اليمن النعمان بن بشير الأنصاري، فمكث سنة ثم عزله واستعمل سعيد بن دادوية من أبناء الفرس، فولي تسعة أشهر، ومات، فاستعمل الضحاك بن فيروز، فولي بقية أيام معاوية.

فلما مات معاوية استعمل يزيدُ بُجَيْرَ بن زيان الحميري على المخلافين: مخلاف صنعاء ومخلاف الجَنَد، قاطعه عليهما بمال عظيم في كل سنة يرسله إليه، وكان بجير عاتيًا متجبرًا، فكان باليمن حتى هلك يزيد بن معاوية، وظهر عبد الله بن الزبير بمكة فأطاعه أهل اليمن إلا القليل منهم، فاستعمل ابن الزبير الضحاك بن فيروز فمكث سنة، ثم عزله بعبد الله بن عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، فولي سنة، ثم عزله بعبد الله بن أبي وداعة السهمي، فمكث سنة وثمانية أشهر، ثم عزله بأخيه عبيدة بن

الزبير، فمكث خمسة أشهر، وعزله وولى قيس بن يزيد السعدي أحد بني تميم، فمكث عشرة أشهر، ثم عزله واستعمل ولاة كان الرجل منهم يلي أربعة أشهر وخمسة أشهر ويعزله، حتى قتل عبد الله بن الزبير.

وولي الحجاج بن يوسف لعبد الملك بن مروان، فبعث الحجاج على اليمن أخاه محمد بن يوسف، فولي إلى آخر أيام عبد الملك وتوفي، وكان قد جمع المجذومين بصنعاء، وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك، فاستعمل الحجاج ـ بأمر الوليد بن عبد الملك ـ ابن عمه أيوب بن يحيى الثقفي، فولي مدة أيام الوليد.

فلما تولى سليمان بن عبد الملك استعمل على اليمن عروة بن محمد السعدي، فولي ست سنين.

فلما ولي يزيد بن عبد الملك استعمل مسعود بن عوف الكلبي، فولي أيام يزيد.

فلما ولي هشام بن عبد الملك بعث يوسف بن عمر الثقفي على جميع مخاليف اليمن، فمكث عليه ثلاث عشرة سنة، ثم نقله هشام بن عبد الملك إلى ولاية العراق، كما قدمناه في سنة ست وعشرين ومائة، واستخلف على اليمن ابنه الصلت، فولي خمس سنين إلى أن توفي هشام.

وولي الوليد بن يزيد، فاستعمل مروان بن محمد بن يوسف، وهو ابن أخي الحجاج.

فلما ولي يزيد بن الوليد الناقص استعمل الضحاك بن واصل السَّكْسَكي.

فلما غلب مروان بن محمد على الأمر استعمل القاسم بن عمر الثقفي أخا يوسف بن عمر.

وكان قد ثار بحضرموت الأعور الخارجي، فلم يلبث القاسم أن قصده الأعور إلى صنعاء فانهزم عنه، وقتل ابن أخيه الصلت بن يوسف، وغلب عبد الله بن يحيى الأعور على اليمن سنة وأربعة أشهر، واستولى نائبُه أبو حمزة الخارجي على مكة، وقتل أهل قُدَيْد، وسار فاستولى على المدينة فأقام بها أربعة أشهر، ثم سار يريد الشام، فبلغ وادي القُرى، فلقيه جيوش الشام الذين بعثهم مروان بن محمد مع عبد الملك بن عطية السعدي، فقتلهم عبد الملك بوادي القرى حتى أصفى اليمن منهم، وسار إلى حضرموت، فأتاه كتاب مروان بتوليه الموسم، فصالحهم وسار في

ركب قليل، فقتل كما قدمنا، فبعث مروان الوليد بن عروة بن محمد على اليمن، فكان عليه إلى أن انقضت الدولة الأموية.

ذكر عمال اليمن في الدولة العباسية

لما بويع أبو العباس السفاح بالخلافة في سنة اثنين وثلاثين ومائة بعث على الحجاز واليمن عمه داود بن علي بن عبد الله بن العباس، فاستخلف داود على اليمن عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن يزيد بن الخطاب العدوي القرشي، فمكث خمسة أشهر ومات، فاستعمل أبو العباس على اليمن محمد بن زيد بن عبد الله بن زيد بن عبد المَدان الحارثي، فقدمها لسبع مضين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وبعث أخًا له على عدن، وقصد إحراق المجذومين بالنيران بصنعاء، وجمع لهم الحطب، فمرض أيامًا يسيرة ومات قبل إحراقهم، ومات أخوه بعدن، وكانت ولاية محمد بن زيد خمسة أشهر فبعث السفاح عبد الله بن مالك الحارثي، فمكث أربعة أشهر ثم عزله واستعمل علي بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان، فولي أربع سنين وأشهرًا.

فلما استُخْلِف أبو جعفر المنصور استعمل على اليمن عبد الله بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي، فأقام مدة وسار نحو المنصور، واستخلف ابنه، فأقام باليمن حتى قدم عليه معن بن زائدة الشيباني في شهر ربيع الأول سنة أربعين ومائة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وبعث معن ابن عم له يقال له سليمان إلى المَعَافر، فقتلوه، فغزاهم، فقتل منهم وأكثر، ثم انتقضت حضرموت على معن فسار إليهم، وأوقع بهم عدة وقعات قيل بلغت قتلاهم خمسة عشر ألفًا، فأعظم الناس ذلك، ثم رجع إلى صنعاء وكتب إلى المنصور بذلك فاستصوب فعله؛ لأنهم بقية الخوارج الذين قتلوا أهل قُدَيْد ومن أهل المدينة.

ثم سار معن إلى المنصور، واستخلف ابنه زائدة، فلما قدم العراق استعمله المنصور على سِجستان، فكانت ولايته اليمن ـ بمقام ابنه ـ تسع سنين.

وبعث المنصور على اليمن الضِّراب بن سالم العبسي، فمكث ثلاث سنين، ثم عزله بيزيد بن منصور الحميري ابن خال المهدي، وذلك في سنة أربع وخمسين ومائة، فأقام بقية خلافة أبي جعفر، وأقره المهدي بعده، فلما كان الموسم كتب إليه بموافاته ففعل، واستخلف عبد الخالق بن محمد الشهابي فولي شهرين ونصفًا، وقدم عليه رجاء بن روح الجذامي في ذي الحجة سنة تسع وخمسين ومائة فأقام رجاء ثلاثة عشر شهرًا.

ثم بعث المهدي على اليمن علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فقدمها في المحرم سنة إحدى وستين ومائة، فأقام إلى سنة اثنتين وستين، وسار نحو العراق واستخلف رجلاً يقال له واسع بن عقيمة، فأقام أحد عشر شهرًا، ثم بعث إلى اليمن عبد الله بن سليمان أخا علي، فقدم لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ومائة، فأقام سبعة عشر شهرًا، وبعث المهدي منصور بن زيد بن منصور الحميري، فقدم في سنة خمس وستين ومائة، فمكث سنة، ثم عزله بعبد الله بن سليمان النوفلي فمكث سنة، ثم عزله بسليمان بن يزيد بن عبد المدان فأقام بقية خلافة المهدي.

فلما ولي الهادي ـ في المحرم سنة تسع وستين ومائة ـ استعمل عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن عباس، ثم عزله بإبراهيم بن سليمان بن قتيبة بن مسلم الباهلي، فمكث أربعة أشهر، وتوفي الهادي.

فلما ولي الرشيد في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة استعمل خاله الغطريف بن عطاء فقدم اليمن والفتنة ثائرة بين الجند وأهل صنعاء، فأصلح أمرهم، وأقام على اليمن ثلاث سنين وتسعة أشهر، ثم سار نحو الرشيد واستخلف عبَّاد بن محمد الشهابي، فبعث الرشيد على اليمن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان فقدم آخر سنة أربع وسبعين، فمكث سنة ثم عزله الرشيد بعاصم بن عتبة الغساني، فمكث سنة، ثم عزل بأيوب بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله، فمكث سنة، ثم عزل بالربيع بن عبد الله الحارثي، والعباس بن سعيد مولى بني هاشم: الربيعُ على الصلاة والحرب، والعباس على الجباية، فأقام سنتين، وعزلا بمحمد بن إبراهيم القاسمي، وقد جمع له الحجاز واليمن، فأقام بالحجاز وبعث ابنه العباس فشكاه الناس، فعزله، وولي الرشيدُ اليمن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن الزبير، وكان رِزْق عامل صنعاء في الشهر ألف دينار، فجعل له الرشيد ألفي دينار، فقال له يحيى بن خالد: هذا يفسد عليك من توليه من أهل بيتك، فردّ رزقه إلى ألف دينار ووصله بصلة جليلة، فأقام سنة ثم عزله، واستعمل أحمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي في سنة إحدى وثمانين ومائة، ثم عزله واستعمل إبراهيم بن عبد الله بن طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار، فأقام سنة ووثب به الجند، فعزله الرشيد، واستعمل محمد بن خالد بن برمك، فدخل صنعاء في شوال سنة ثلاث وثمانين، فأقام سنة ثم عزله الرشيد، واستعمل مولاه حمادًا البربري، فقدم في شوال سنة أربع وثمانين، فلم يزل على اليمن بقية خلافة الرشيد إلى سنة ثلاث وتسعين، وعمَّر اليمن في أيامه، وأمَّنت السبل، وظفر بالهيصم بن عبد الحميد لما خالف عليه.

ولما ولي الأمين الأمر أقرّ حمادًا مديدة، ثم سار نحو العراق واستخلف ابن أخيه، فكتب أهل اليمن إلى الأمين يشكونه، فعزله واستعمل محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي، فقدم خليفة له، ثم قدم فاستخرج من عمال حماد أموالاً جليلة، وعدل في الناس ثم عزله الأمين واستعمل سعيد بن السرح الكناني، فقدم صنعاء في شعبان سنة خمس وتسعين، فأقام حتى ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون، وسار طاهر بن الحسين لمحاربة الأمين، وضعف أمره.

فبعث طاهر بن الحسين على اليمن يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْري، فقدم صنعاء آخر سنة ست وتسعين، فقَبُحت سيرته في الناس، ثم آتاه رجل من أهل العراق يكنى أبا الصلت قدم عليه طالبًا، فلم يعطه شيئًا، فرجع حتى إذا كان بِضَمر من بلد هَمْدان وجد عمر بن إبراهيم بن واقد بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان نازلاً مع أخواله أرحب من السلمانيين، فأخبره خبره، فقال: بئس والله ما صنع يزيد، ووصله بعشرين دينارًا، فقال أبو الصلت: لا جرم، لأحسنن مكافأتك إن شاء الله تعالى، فخرج من عنده ومكث وقتًا، ثم قدم عليه بكتاب افتعله بولايته اليمن، فقدم عمر ابنه محمدًا في نفر من الأعراب وقوم جمعهم، فقدم صنعاء في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وحبس يزيد بن جرير، ثم قدم أبوه فأقام وقتًا، وأخرج يزيد من الحبس ميتًا، وكانت ولاية عمر شهرًا، ثم عزله المأمون بإسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي، فقدمها في ذي القعدة سنة ثمان وتسعين [ومائة]، فأقام بها سنة تسع وتسعين [ومائة]، ثم سار يريد الحجاز، واستخلف ابن عمه القاسم بن إسماعيل وذلك حين بلغه ظهور محمد بن إبراهيم المعروف بابن طَباطَبا بالكوفة، واستيلائه عليها، وإرساله جماعة من الطالبيِّين نحو الحجاز، فاستولوا على المدينة ومكة، فلما انتهى إسحاق إلى ضَمْر وثب به الأعراب فقاتلوه، فرجع إلى صنعاء، فاتصل به قدوم إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الطالبي واليًا على اليمن بعثه الحسين بن الحسن الطالبي المعروف بالأفطس لما استولى على مكة والموسم، فقدم إبراهيم اليمن في صفر سنة مائتين، فأسرف في القتل حتى سمي الجزّار، ولم تزل أموره مستقيمة باليمن حتى ثار محمد بن إبراهيم، وقام بعده محمد بن محمد بن محمد بن زيد بن علي، فلما أسر محمد، وقتل أبو السرايا ـ كما قدمناه ـ انحلت أمور الطالبيِّين بالحجاز واليمن، فبعث المأمون محمد بن علي بن عيسى بن ماهان، فكانت بينه وبين إبراهيم وقائع استظهر فيها ابن ماهان على إبراهيم، فأقام إبراهيم يتردّد في القرى التي حول صنعاء حتى قدم عليه عهد المأمون بولاية اليمن، فأبى ابن ماهان أن

يسلمها إليه، فالتقيا عند صنعاء فهزمه ابن ماهان، فعاد إبراهيم، ولم يستقم له أمر بعد ذلك، فقدم عيسى بن يزيد الخلودي التميمي واليًا، فجمع ابن ماهان عشرة آلاف مقاتل وخرج إليه ولده عبد الله من صنعاء، وقد خندق الخلودي على نفسه، فالتقوا فهزمه الخلودي، ودخل صنعاء، واستمرت الهزيمة بعبد الله حتى دخل مكة، واختفى أبوه بصنعاء، فقبض عليه الخلودي وحبسه، وفرّق عماله في المخاليف، وشخص نحو العراق.

* * *

ذكر أخبار دولة بني زياد

كان المأمون قد قلّد محمد بن عبد الله بن زياد الأعمال التهامية، وما استولى عليه من الجبال، فقدم اليمن في سنة ثلاث ومائتين ومعه رجل تغلبي يسمى محمد بن هارون قاضيًا، وهو جد بني عُقَامة، ولم يزل الحكم فيهم يُتَوارث حتى أزالهم ابن مهدي حين أزال دولة الحبشة على رأس الخمسين وخمسمائة، فاستولى ابن زياد على تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب، واختط مدينة زَبِيد في سنة أربع ومائتين، وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفر، وهو الذي نسب إليه مخلاف جعفر، وكان فيه دهاء وكفاية حتى كانوا يقولون: «ابن زياد بجعفره» واشترط على عرب تهامة ألا يركبوا الخيل، وسيره مولاه إلى المأمون في سنة خمس ومائتين بهدايا جليلة وأموال عظيمة، فعاد في سنة ست ومعه ألفا فارس فيهم من مسودة خراسان تسعمائة فعظم أمر ابن زياد، وملك حضرموت وديار كِندة والشحر ومِرباط، وأبْيَن ولحج وعَدنَ والتَّهايم إلى حَلْي، وملك من الجبال أعمال المعافر والجَنَد والمِخلاف وقلده جعفرًا، فاختط به مدينة المُذَيخِرة في جبلٍ ذي أنهار ورياحين واسعة، وخُطب لابن زياد بصنعاء وصَعْدة ونجران وبَيْحان، ومات سنة خمس وأربعين ومائتين.

وقام بعده زياد بن إبراهيم فلم تطل مدته.

فملك بعده أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، فامتنع عليه أهل الأطراف، وانقطعت الخُطبة له في الجبال، واستولى سليمان بن طَرَف على المخلاف، وهو من الشَّرْجة إلى حَلي، وجعل السِّكة والخُطبة باسمه، فكان مبلغ ارتفاع عمله في السنة خمسمائة ألف دينار عَثْرِية، وهذا المخلاف هو المعروف بالسليماني، نسبته إلى سليمان هذا، وخرج أيضًا من ولاية أبي الجيش ـ لحج وأبين وما عداها ـ إلى البلاد الشرقية.

ومات أبو الجيش في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة عن طفل اسمه عبد الله، وقيل زياد، فتولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش وعبدٌ لأبيها يسمى رشدًا، أستاذ حبشي، فقام بأمر الطفل، فلما مات رشد قام بكفالته حسين بن سلامة، وصيف من أولاد النوبة، وينسب إلى أمه، وقد كان هَذّبه رشد وأحسن تأديبه، فخرج حازمًا عفيفًا وقام بالأمر، ووزر لولد أبي الجيش وأخته، وكانت دولتهم قد تضعضعت أطرافها، وغلبت ملوك الجبال على الحصون والمخاليف، فقام الحسين بحربهم حتى استرجع أكثر مملكة ابن زياد الأولى، واختطّ مدينة الكدرا أعلى وادي سَهام، ومدينة المَعْقِر على وادي ذُؤال، وكان عادلاً في الرعية، كثير الصدقات، وأنشأ الجوامع الكبار، والمنارات الطوال والقُلُب العادِيّة في المفاوز المنقطعة، وبنى الأميال والفراسخ والبرد على الطرقات من حضرموت إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ومات حسين في سنة اثنتين وأربعمائة، وقد انتقل الأمر إلى طفل آخر من آل زياد، فتولت كفالته عمة له وعبد أستاذ اسمه مرجان من عبيد الحسين بن سلامة، وكان له عَبْدان فَحْلان من الحبشة رباهما صغيرين، وولاهما الأمور كبيرين، أحدهما يسمى نَفِيسًا جعل إليه تدبير الحضرة، والثاني يسمى نَجاحًا، وهو والد سعيد الأحوال وجيّاش، وكان يتولى أعمال الكدْرا والمَهْجَم ومَوْر والواديين، فوقع التنافس بين نجاح ونفيس على وزارة الحضرة، وكان نفيس غشومًا مرهوبًا، ونجاح ذا رفق بالناس عادلاً محببًا إلى الرعية، وكان مولاهما مرجان يميل إلى نفيس، فنمى إلى نفيس، أن عمة ابن زياد تكاتب نجاحًا، وتميل إليه، فأعلم مولاه، فأمره بالقبض عليها وعلى ابن زياد، فقبض عليهما، وبنى عليهما جدارًا وهما حيان يناشدانه الله حتى ختم عليهما، فكان بموت هذا الصبي انقراضُ دولة بني زياد، وكانت مائتي سنة وثلاثًا وستين سنة.

وكان بنو زياد قائمين بخدمة خلفاء الدولة العباسية، وتولى صلتهم بالهدايا والأموال، فلما اختلّ أمرهم، وغلب أهل الأطراف على ما بأيديهم، فغلب بنو زياد على ما بأيديهم من أعمال اليمن، وركبوا بالمظلة، وساسوا قلوب الرعية بإبقاء الخطبة العباسية.

قال: «ولما بلغ نجاحًا ما فعله نَفِيس في مواليه استنفر الناس، وجمع العرب وقصده بزَبِيد، فجرت بينهما عدة وقائع قُتِل نفيس في آخرها على باب زبيد، واستولى نجاح على زبيد في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وقال نجاح لمرجان مولاه: ما فعل مواليك وموالينا؟ قال: هم في ذلك الجدار فأخرجهما وصلّى عليهما، وجعل مرجان في موضعهما وبنى عليه حيًا، وركب بالمظلة، وضربت السكة باسمه، وكاتب أهل العراق، وبذل لهم الطاعة.

وقد كان حين توفي الحسين بن سلامة، واختلف عبيده، هرب ملوك الجبال من سجنه، ولحقوا ببلادهم، فغلب بنو معن على عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت، وغلب بنو الكِرْنَدى ـ وهم قوم من حمير كانت لهم سلطنة ومكارم ظاهرة ومفاخر ـ على السوا والسَّمدان والدُّملُوة وحصن صَبِر وحصن ذَخِر والتَّعكَر ومخاليفها، والمعافِريّة والجعفرية والجَنَدية، وتغلب على حَبّ وحصن الشعر رجل يعرف بالحسين بن النُّبَّعِي، وبنو عبد الواحد على بُرَع والعمد ونَعمان، ولم يزل نجاح متوليًا على الأعمال التِّهامية حتى ملكها الصُّليحي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم كانت لهم دولة يأتي ذكرها بعد أخبار الصليحي ـ إن شاء الله تعالى ـ فنرجع إلى أخبار صنعاء، ومن وليها بعد الخلودي.

ذكر أخبار صنعاء ومن وليها بعد الخلودي

قال: ولما شخص الخلودي إلى العراق قيل: إنه استخلف رجلاً يقال له حُصن بن المِنهال، فأقام حتى قدم عليه إبراهيم الإفريقي، وهو رجل من بني شيبان بن ربيعة، فأقام على اليمن مدة، ثم عزل بنُعَيم بن الوضاح الأزدي، والمظفّر بن يحيى الكِندي اشتركا في العمل، فقدما صنعاء في صفر سنة ست ومائتين، وسار المظفر يجبي الجند ومخاليفها، وقام بها مدة، ورجع إلى صنعاء فمات بعد أيام من رجوعه، فاستقل نعيم بالأمر حتى عزل بمحمد بن عبد الله بن مُحْرِز مولى المأمون، فقدم اليمن سنة ثمان ومائتين ولم يلبث أن شغب عليه الجند، فخرج نحو الحجاز واستخلف عَبّاد بن الغَمر الشهابي، فأقام حتى قدم إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس اليمن، وهي ولايته الثانية وكان مقدمه آخر شهر رجب سنة تسع ومائتين فأساء السيرة، وظلم الناس، ونال من التِّهامية كل منال، فكان لا يسأل أحدًا عن نسبه فينتسب إلا ضرب عنقه، حتى كان من سأله بعد ذلك عن نسبه قال: مولى بني العباسي، ولم يترك بحمير ذكرًا ولا رسمًا، ولم يزل كذلك حتى مات سنة عشرة ومائتين، وقيل: إن أهل صنعاء شَكَوْه إلى المأمون، فأمر بإشخاصه، فلما مثل بين يديه، قال له المأمون: ضع يدك على رأسي، ففعل، قال: قل: وحياة رأسك لا ضربت عنقًا، فقال، فقال له: «عد إلى عملك» فعاد، فكان بعد ذلك يُوَسِّطُ الناس.

ولما مات إسحاق استخلف عند موته ابنه يعقوب، فحاربه أهل الجند وأهل صنعاء فسار إلى ذمار، وقدم إلى صنعاء ـ من قبل المأمون ـ عبد الله بن عبيد الله بن العباس الهاشمي، فكان بها حتى توفي المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين، فلحق بالعراق واستخلف عباد بن الغمر الشهابي، وبايع الناس للمعتصم بالله بن الرشيد، فأقر الغمر سنين.

ثم ولى المعتصم صنعاء ومخاليفها عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي، فقدم صنعاء آخر المحرم سنة إحدى وعشرين ومائتين، فأقام مدة، وحبس عَبّاد بن الغمر الشهابي، وابنه عند يعفر بن عبد الرحيم الحوالي.

ثم عزل عبد الرحيم بجعفر بن دينار، مولى المعتصم، فقدم خليفة له يقال له منصور بن عبد الرحمٰن التَّنُوخي في صفر سنة خمس وعشرين، فضبط البلد ووجه عماله، ثم قدم عليه عبد الله بن محمد بن علي بن ماهان، وقد أشْرك مع جعفر في الولاية، فأقام مع منصور وقتًا، ثم عزل جعفر بإيتاخ التركي مولى المعتصم، فأقر منصورًا وعبد الله على عمليهما.

ومات المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الواثق، فأقرّ إيتاخ على اليمن فوجه أبا العلا أحمد بن العلاء العامري، فلما وصل صعدة أرسل يعفر الحوالي غلامه طريف بن ثابت في عسكر نحو صنعاء، فخرج إليه مَن بها من الجند مع منصور بن عبد الرحمٰن الذي كان خليفة لجعفر بن دينار، فقاتلوه فهزموه، وقتلوا من موالي يعفر نحو ألف رجل، وأسروا أسرى ثم ضرب منصور أعناقَهم، وقدم أبو العلاء صنعاء بعد الوقعة بأيام، فأقام حتى توفي، واستخلف أخاه عمرو بن العلاء، فأقام واليًا حتى ولى إيتاخ هرِثمة بن البَشير مولى المعتصم، فورد كتاب هرثمة على منصور بن عبد الرحمٰن يستخلفه، وقدم هرثمة آخر المحرم سنة ثلاثين ومائتين فأقام أيامًا، وخرج لمحاربة يعفر بن عبد الرحمٰن وهو بشبام، فنزل بالجيش أسفل وادي ضُلَع، وأقام هنالك محاربًا ليعفر وقتًا، ثم عاد.

وعزل الواثق إيتاخ عن اليمن، وولاه جعفر بن دينار مولاهم، فقدم وحاصر يعفر مدة، وعاد إلى صنعاء فأقام بها سنة، وسار نحو العراق، واستخلف ابنه محمدًا، فأتته ولايته من المتوكل، فلم يزل على ولايته حتى قتل المتوكل وأقره المنتصر والمستعين ومَنْ بعدهما إلى أن انتهت الخلافة إلى المعتمد على الله، وفوّض الأمور لأخيه أبي أحمد الموفَّق، فوردت كتب الموفَّق في سنة ثمان وخمسين ومائتين على محمد بن يعفر بولاية اليمن، فوجه عماله على المخاليف، وفتح حضرموت وكانت قد امتنعت على مَن قبله.

ثم إنه استخلف في سنة اثنتين وستين ومائتين على عمله ابنه إبراهيم بن محمد، وحجّ وجدّد له عهدًا من الموفق، واستمر إبراهيم على ولايته إلى سنة سبعين ومائتين، وأمره جده يعفر بقتل ولديه محمد وأحمد ابني يعفر، فقُتلا بعد المغرب في صومعة مسجد شِبام، فانتشرت الأمور عليه، وخالف عليه الفضل بن يونس المرادي بالجوف، وولدُ طريفٍ غلامه بيحصُب ورُعَيْن والمكرمان ببَيْجان، ومالوا إلى جعفر بن إبراهيم المَناخِي فوجه ابن يعفر إلى المخالفين عليه من حاربهم فكانت سجالاً، وولى

إبراهيم محمد الدَّعَّام الجوفين، ثم تغير عليه الدعام ونصب له الحرب، فسارت إليه عساكر إبراهيم فالتقوا بوَرْوَرَ، فهزمهم الدعام وقتل منهم بشرًا كثيرًا، وقدم عهد بن يعفر على صنعاء ومخاليفها من الوزير صاعد بن مخلد وزير المعتمد، فاعتزل إبراهيم بن محمد عن الإمارة، وولى أبو يعفر ابنه عبد الرحيم، فأقام بصنعاء مدة، ثم عزله أبوه حين قدم صنعاء سنة ثلاث وسبعين ومائتين، واستعمل على صنعاء ولاة كثيرة، وكان أكثر مقامه بشَبَام، ثم اجتمع أهل صنعاء - من الأبناء وغيرهم - والشهابيون على عماله بصنعاء، فقاتلوهم فقتل منهم خلق كثير، ثم طردوهم، ونهبوا دار أبي يعفر، وأحرقوها، ولم يلبث أبو يعفر بعد ذلك أن قتل بشِبام آخر المحرم سنة تسع وسبعين ومائتين، فقام بالأمر بعده عبد القاهر بن أحمد بن أبي يعفر أيامًا حتى قدم من العراق علي بن الحسين المعروف بجُفْتُم في صفر من السنة عاملاً على صنعاء وأعمالها، فقاتله الدعّام بمدينة صنعاء فهزمهم جُفْتُم، وأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين ومايتين، ورجع إلى العراق فسار الدعام نحو صنعاء، فدخلها ثم هرب منها، ورجع الأمر إلى بني يعفر ومواليهم.

ثم إن أبا العتاهية بن الرَّوِيَّة المَذْحَجي استدعى الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من صَعْدة إلى صنعاء، فدخلها في آخر المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين، فدعا الهادي إلى نفسه، فبايعه الناس، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وكتب في الطُّرز، ووجه عماله إلى المخاليف، فقبضوا الأعشار، وخرج إلى يحصب ورعين ونواحيها، واستخلف على صنعاء أخاه عبد الله بن الحسين، فأقام أيامًا، وعاد إلى صنعاء، ثم خرج منها إلى شبام واستخلف ابن عمته علي بن سليمان على صنعاء، وكان بنو يعفر وآل طريف بعضهم في سجن صنعاء، وبعضهم في سجن شبام، فاجتمعت همدان وسواها، وقصدوا الهادي إلى شبام، فقابلوه بها، ووثب مَنْ بصنعاء على نائبه فأخرجوه، وكسروا السجن، وأخرجوا من به من آل يعفر وآل طريف، فاستولى عبد القاهر بن أبي الخير بن يعفر على صنعاء وخرج الهادي من شبام فأقام بريدة وبيت زُود شهرًا ثم عاد إلى صنعاء في جيش كبير وجعل صاحب جيشه أبا العتاهية فلقيته جيوش آل يعفر بالرحبة، فهزمهم، ودخل صنعاء، وانحاز آل يعفر إلى شِبام، ومتولي الأمر فيهم أسعد بن أبي يعفر، وابن عمه عثمان بن أبي الخير، فأقامت الحرب بينهم سجالاً مدة، ثم رجع الهادي إلى صعدة في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين، فعادت صنعاء إلى آل أبي يعفر، ودخلها مولاهم إبراهيم بن خلف، وصالح أبا العشيرة ابن الرَّوِيّة على أن مخاليف مذحج في جميع اليمن إليه.

ولما توفي المُعْتَضِد بالله في سنة تسع وثمانين ومائتين، وولي ولده المكتفي، ولي اليمن مولاهم نُجْح بن نجاح، فوردت كتبه على عثمان بن أبي الخير، وأسعد بن أبي يعفر بتجديد ولايتهم، ثم قدم جفتم للمرة الثانية واليًا على اليمن، فلما وصل إلى يأزل (قرية من قُرَى بني شِهاب) خرج إليه جَرّاح وإبراهيم ابنا خلف كالمُسَلِّمين عليه، فقبضا عليه، وصار جيشه إليهما، وحبساه مدة، ثم احتال وخرج، وسار إلى صنعاء فانضم إليه الجند الذين بها، وأصحابه الذين وصلوا معه، وأسعد وعثمان يغدوان عليه في كل يوم يسلمان عليه، وسألهما تسليم الأمر إليه فاستنظراه أيامًا، فجمع أصحابه وكبسهما، فأراد الهرب، فلم يمكنهما، فخرجا في مواليهما ومن انضم إليهما من أهل صنعاء فقاتلاه، فقُتِل في نفر من أصحابه، ومال الجيش إليهما وأكل قوم من أهل صنعاء من لحم جُفتُم، ثم وثب أسعد على ابن عمه عثمان فحبسه، واستبدّ بالأمر إلى سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

ذكر أخبار علي بن الفضل والمنصور بن حسن بن زادان دعاة عبيد الله المنعوت بالمهدي

قال: ودخل علي بن الفضل القَرْمَطِيّ، وأصله من اليمن من حمير، والمنصور وهو ابن الحسن بن زادان بلاد اليمن داعيين لعبيد الله المنعوت بالمهدي، وتحيّلا وتلطّفا، واستمالا الناس حتى غلبا على أكثر البلاد، وكانت لهما حروب باليمن، وقتلى كثيرة يطول الشرح بذكرها، وخرج الأمر في غالب بلاد اليمن عن بني العباس سنين كثيرة، ثم ظهر الزَّيْدِيّة والإمامِيّة، وكانت لهم حروب كثيرة، ووقائع مشهورة، حتى استولى علي بن الفضل على صنعاء، فانهزم منه أسعد بن أبي يعفر، فعند ذلك أظهر ابن الفضل مذهبه الخبيث، وادعى النُّبُوَّة، وكان يؤذن في عساكره بالشهادة أنه رسول الله، وأباح المحرمات، وفي ذلك يقول شاعر في عصرهم:

خُذِي الدفَّ يا هذه واضرِبي ... وغني هَزارِكِ ثم اطربي
تولَّى نبي بني هاشم ... وهذا نبيُّ بني يعربِ
لكلِّ نبيٍّ مضى شرعةٌ ... وهذي شريعةُ هذا النبِي
فقد حَطَّ عنا فروض الصلاة ... وحطَّ الصيام ولم يُتْعِبِ
إذا الناس صلُّوا فلا تنهضي ... وإن صَوَّموا فكلي واشْرَبِي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زَوْرَة القبر في يَثْرِبِ
ولا تمنعي نفسَك المُعْرِسِيـ ... نَ من الأقربين ومن أجنبي

فـمـن أيـن حُـلِّـلْـتَ لـلأبـعـديـن وصـرت مـحـرَّمـة لـلأب؟
ألـيـس الـغِـراسُ لـمـن أسَّـه وسـقّـاه فـي الـزمـن الـمُـجْـدِبِ
ومـا الـخـمـر إلا كـمـاء الـسـمـاء حـلال فـقـدِّسـت مـن مـذهـبِ

وجعل دار ملكه المُذَيخِرَة. ولما ادعى ابن الفضل النبوة، وأسقط اسم عبيد الله المهدي، وغضب المنصور بن الحسن بن زادان ـ وهو صاحب مِسْوَر ـ لذلك، وخالف على ابن الفضل، خرج ابن الفضل لحربه، وذلك في سنة تسع وتسعين ومائتين، فذكَّره المنصور حقوق عبيد الله المهدي وابنه، وأنهما نعمة من نعمهما، فلم يلتفت إليه ابنُ الفضل وحَصَره ببيت دحان أشهرًا، ثم انصرف عنه ابن الفضل.

ومات المنصور في سنة اثنتين وثلاثمائة، ثم مات ابن الفضل بالمُذَيخرة في سنة ثلاث وثلاثمائة، وذلك أنه احتاج إلى الفصاد، فأحضر طبيبًا وجرده من ثيابه، وغسل المِفصد، وهو ينظر إليه، وكان الطبيب قد جعل السمّ في شعر رأسه، فلما غسل المِفصد مَسَحه على شعره كالمجفف له، فعلق به السم، فلما فصده أهلكه الله تعالى، فاجتمعت رؤساء اليمن مع الحوالي، وقصدوا المُذَيخرة، فحصرها سنة ورماها بالمجانيق، حتى تسلمها، وسبى منها بنات علي بن الفضل، ففرقهن في رؤساء العرب، واضمحل أمر القرامطة الدعاة للعُبَيْديين باليمن إلى أن قام بأمرهم علي بن محمد الصُّلَيْحي في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، على ما نذكر ذلك، إن شاء الله تعالى، فلنذكر أخبار الزيدية.

ذكر نُبْذة من أخبار الزيدية(١) وغيرهم

قال: وقام الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بعد موت أبيه، واعتزال أخيه المرتضى، فاستولى على أكثر اليمن الأعلى، ودخل عدن في ثمانين ألفًا، ومات في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وكان أسعد بن أبي يعفر قد صالح ابن الفضل، فولاّه صنعاء، فلم يزل عليها وعلى مخاليفها إلى سنة اثنتين وثلاثين

(١) الزيدية: فرقة من الشيعة المنسوبون إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، وكانت لهم آراء مخالفة للشيعة الإمامية والإسماعيلية، ثم انقسموا إلى ثلاث فرق أساسية: الأولى: الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر الهمذاني، الثانية: السليمانية أصحاب سليمان بن جرير الزيدي، الثالثة: البتيرية أصحاب بتير التومي (كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٩١٧ ـ ٩١٨، الملل والنحل ص١٥٤، الفرق ص٢٩، مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٢).

وثلاثمائة، ومات بحصن كحلان، ودامت صنعاء بيد بني يعفر ومواليهم مع كثرة اختلافهم وقيام من قام عليهم بسبب ذلك إلى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، ووصل المختار بن الناصر بن الهادي إلى رَيْدَةَ، فخرج مَن بصنعاء من بني الضحاك إليه، فولاها المختار أبا القاسم بن يحيى بن خلف، ولم يلبث الضحاك أن غدر بالمختار، فحبسه في قصر رَيْدَةَ في صفر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، فاستمر في الحبس إلى شوال من السنة، وقتله، وكان علي بن وَرْدان ـ من موالي آل يعفر ـ قد غلب على صنعاء، وثار الأسمر يوسف ابن أبي الفتوح ـ وقام معه قومه خَولان ـ يعارض بني يعفر وبني الضحاك، فقصدوه وهو بجدان، فهزمهم، وقتل من همدان خلقًا كثيرًا، ثم مات في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة واستخلف أخاه سابورا، فسار إليه الضحاك وابن أبي الفتوح إلى بلد خولان فلم يظفرا منه بشيء، فعاد الضحّاك إلى صنعاء، وسار سابور يريد ذِمار، فلحقه الأسمر فقتله في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وكاتب الضحاك أبا الجيش ابن زياد صاحب زبيد بالطاعة، وخطب له بصنعاء في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

ولما تعطلت المخاليف من يَحْصُب ورُعَيْن، وظهر أمر السفهاء اجتمع الوجوه إلى الأسمر بن أبي الفتوح، وسألوه أن يكاتب الأمير عبد الله بن قحطان بن أبي يعفر ـ وهو يومئذ بشبام ـ أن يقوم بالأمر، فخرج الأمير إلى السِّر فأقام به مع ابن أبي الفتوح أيامًا، ثم سار نحو كحلان، فأقام به مدة، ورجع إلى صنعاء، فدخلها في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فانهزم الضحّاك منها، ولم يلبث ابن قحطان أن خرج من صنعاء واستعادها الضحاك، وأعاد الخطبة لابن زياد، فلم يستقر له أمر، وعاد أمر البلاد لابن قحطان، فأقام يتردد من شبام إلى كحلان إلى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وتجهز للنزول بزَبِيد، فلقيه صاحبها ابن زياد، واقتتلوا، وكانت الدائرة على ابن زياد، وقتل من عسكره خلق كثير، ودخل ابن قحطان زَبِيد في شهر ربيع من السنة، فنهب دور ابن زياد، ونهب عسكر زبيد أقبح نهب، وأقام بها ستة أيام، وعاد نحو كحلان، وخطب للعزيز صاحب مصر، وقطع ذكر بني العباس، ثم قصد ابنُ قحطان مخلاف جعفر، فملكه في سنة ثمانين وثلاثمائة، وأقام بإِبّ، فاضطرب عليه أهل المخلاف، فأمر بعمارة المنظر، وتحول إليه من إب وجعل أمر ألهان إلى أسعد بن أبي الفتوح.

ثم مات في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فقام بما كان إليه بعده ولده أسعد بن عبد الله، وكان ظهور الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر بن الهادي في سنة ثمان

وستين وثلاثمائة، وكانت له حروب مع ابن أبي الفتوح وابن الضحاك وغيرهما، ودخل صنعاء ثم فارقها، وكان يحارب ابن أبي الفتوح مرة ويصالحه أخرى، ولم يزل أمر صنعاء في غاية الاضطراب إلى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، تارة يغلب عليها الإمام وابن أبي الفتوح، وتارة الضحّاك، وتارة حاشد، والعرب من هَمْدان وحِمْيَر وخَوْلان وبني شهاب مفترقة على هؤلاء، فمن كثر جمعه غلب عليها، ولم يكن الإمام يوسف هذا من الأئمة السابقين عند أهل البيت، ولا عَدّوه من أئمة الزيدية.

فلما كان في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وصل الإمام المنصور القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم، وهو أحد أئمة الزيدية فاضلاً فيهم مصنفًا، وكان مقامه قبل ذلك بترح من بلد خَثعَم، ثم أقام بتَبَالة، ووصل صَعْدَة وملكها، وسار إلى نجران، وأرسل إلى صنعاء من قِبله شريفًا يعرف بالقاسم بن الحسين الزيدي، فتصرف في صنعاء بأحكام الإمامية، ثم خالف أهل نجران على الإمام، وكانت له حروب إلى أن مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، فوصل ابن أبي حاشد إلى صنعاء، وخطب للزَّيْدِي، ثم تغيرت عليه الأحوال، فخرج منها بغير سلطان، ودامت الفتنة بصنعاء، وهي في أكثر أوقاتها بغير سلطان، والغالب عليها الضحاك إلى سنة أربعمائة، فسار جماعة من هَمْدان وبني شهاب إلى الزيدي إلى ذمار، فسار معهم إلى صنعاء، فدخلها في ذي القعدة من السنة.

فلما كان في صفر سنة إحدى وأربعمائة وصل الحسين بن القاسم بن علي إلى قاعة وادعى أنه المهدي الذي بَشَّر به النبي ﷺ، فأجابه حِمْيَر وهَمْدان وسائر أهل المغارب، وتخلوا عن الزيدي، فوصل إلى صنعاء اليمن، وكانت بينه وبين الزيدي حروب، فقُتِل الزيدي في حقل صنعاء في سنة ثلاث وأربعمائة، ورجع الإمام الحسين بن القاسم الزيدي إلى رَيْدَة وترك أخاه جعفرًا بصنعاء، ثم كانت له حروب مع محمد بن القاسم الزيدي، وكان ابن الزيدي قد جمع جموعًا كثيرة، فانهزم ابن الزيدي، واستولى الحسين على صعدة وغيرها، ثم خالفه المنصور بن أبي الفتوح بصنعاء وبنو شهاب وبنو حريم وغيرهم، ونهبوا داره، وخرجت الشيعة من صنعاء بعد أن نُهبت دورهم، فجمع الإمام عسكرهم، فقاتلوه فهزموه، وقُتِل من عسكره خلق كثير، وأعاد الناس أبا جعفر قيس بن الضحاك إلى إمارة صنعاء، فأقام بها إلى المحرم سنة أربع وأربعمائة، فبلغه ما جمع الإمام من العساكر، فخرج من صنعاء محتقَرًا مهزومًا، وكانت القبائل المخالفة على الإمام تجتمع إليه فاضطربوا، ثم قويت قلوبهم وساروا إلى الإمام فقاتلوه فهزموه، فبقي في مائة فارس، فعلمت به همدان فلقوه

وقاتلوه فغَشِيَهم بنفسه مرارًا في كلها. يخرق صفوفهم، ثم قتلوه، وذلك في صفر سنة أربع وأربعمائة، وقتل وهو لم يبلغ الثلاثين سنة.

ولما قتل سار ابن أبي حاشد إلى صنعاء فأقام بها إلى ذي الحجة من السنة ولم يتم له أمر مع همدان، فخرج منها، وتعطلت من السلطنة إلى النصف من شوال سنة خمس وأربعمائة، ووصلها أبو جعفر أحمد بن قيس بن محمد بن الضحاك الهمداني فأقام بها إلى ربيع سنة ست وأربعمائة وخرج منها، ورفع أيدي عماله، فتعطلت أيضًا إلى سنة ثمان وأربعمائة، وراجعت همدان أبا جعفر في الرجوع إلى الإمام، فأجابهم.

وفي سنة عشر وأربعمائة ثار يزيد بن القاسم الزيدي مع قوم من بني شهاب بن مروان، فقتلوه بأشْيَح، فسار إليهم ابن أبي الفتوح، وأمده القائد مرجان صاحب الكَدْرَاء، وعاضده ابن أبي حاشد، ثم نزل ابن أبي الفتوح إلى تهامة، فتلقاه القائد بالكدراء بأحسن لقاء، وعاد فأقام بألْهَان، حتى خرج زيد من أشيح وسلّمه للقائد، وتحالفت همدان والأبناء على بني شهاب بأمر القائد، فحاربوهم مرارًا، ثم اصطلحوا، ووصل جعفر بن القاسم أخو الحسين من صعدة إلى محلة عَيَان، فاستدعته همدان وحمير، فسار إلى صنعاء، فدخلها آخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، فأقام بها إلى المحرم، وسار إلى صعدة بطائفة من الناس، فنهبها، وخَرّب دورًا، وقتل ناسًا، وقد كان ذَعْفان وابن أبي حاشد خالفا عليه عند مسيره إلى صنعاء، فلما رجع جعفر إلى عيان سألته همدان العود إلى صنعاء فكرهه، ثم وقع الخلف بين همدان وذعفان وابن أبي حاشد، فاستدعوا جعفر بن القاسم، فأدخلوه صنعاء في صفر سنة خمس عشرة، وطالب الناس مطالبة شديدة، وأقام بها مدة يحارب ذعفان وابن أبي الفتوح ثم اصطلحوا ونزل ذَعْفان إلى القائد في الكدراء فأحسن القائد تلقيه، وأمده بأموال جليلة، وكتب معه إلى المُنْتاب صاحب مِسْوَر، وأمرهم جميعًا بحرب جعفر، فاجتمعوا عليه، فخرج إلى بيت شعيب، فحصرته همدان وحمير، وأعادوا ابن أبي حاشد إلى إمارة صنعاء، وهجم أهل بيت خولان على محطة حمير، وقتلوا منهم مائة رجل، وانهزم عسكر المُنْتاب، وذلك في المحرم سنة ست عشرة وأربعمائة، ثم تهادنوا إلى آخر السنة.

ولما كان في ثمان عشرة وأربعمائة ظهر إنسان بناعِط، ولم يعرف الناس اسمه، وذكر أنه يتسمى عند ظهور رايته من المشرق، وسار إلى مأرب وبها المؤمن بن أسعد بن أبي الفتوح، وتلقاه أحسن لقاء، وأقام عنده وسطر كتبه من عبد الله الإمام المُعِيد لدين الله الداعي إلى طاعة الله الدافع لأعداء الله، وأنفذها إلى النواحي، فبلغ

القائد مرجان قيام المؤمن بن أسعد معه، فغضب على المنصور بن أسعد، وأعاد كتبه مختومة، فغضب المنصور، وانضم إلى هذا الإمام، ودخل صنعاء في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة وخطب له بها ابن التَّقوى قاضي صنعاء بالإمامة، ثم خرج منها، وخالف عليه من كان انضم إليه، فقتلوه في آخر ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، واشتد القحط باليمن من هذه السنة إلى سنة اثنتين وعشرين، وصنعاء خالية من السلطنة.

وفي شهر رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ظهر الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمٰن إمامًا، وتسمى بالنفس الزَّكِيَّة، ومعه ولده حمزة بن أبي هاشم وإليه ينسب الأشراف الحمزيون، فقصد صنعاء، فهرب منه ابن أبي حاشد، ووصل المنصور بن أبي الفتوح، فبايعه ورجع إلى بلده، واستمر هذا الإمام إلى سنة تسع وعشرين، فخالفت عليه همدان، فدخل ابن أبي حاشد صنعاء، ثم خرج منها فتعطلت من السلطنة إلى سنة إحدى وثلاثين، فاستدعت همدان جعفر بن القاسم، فدخل صنعاء في ربيع من السنة، ثم كان بينهم اختلاف يطول شرحه، وخلت صنعاء أيضًا من السلطنة إلى شوال سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

ووصل الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين الدَّيْلَمِيّ مُدَّعيًا للإمامة، وانضمت إليه همدان وجميع العساكر، ونهب صعدة، وخرب دورًا، وقتل من خولان مقتلة عظيمة، ودخل صنعاء في ذي القعدة من السنة، وأقام إلى صفر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، ودخل ابن أبي الفتوح، فبنى له في حصن عَلَب قصرًا بالجص والآجر، وكاتب له المنصورُ عبسًا، فأقبل من رؤسائهم مائة فارس، فدخلوا في طاعة الإمام، وبايعوه، والتحق به أيضًا الأمير جعفر بن القاسم، فجعله أمير الأمراء بينهما، ولم يتم.

وتمالأ جعفر وابن أبي حاشد على حرب الإمام، وخرجا من صنعاء فأمر الإمام بخراب دور بني الحارث، وبني مروان، فغضب ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد لذلك، ودخلا صنعاء، ورفعا أيدي ولاة الإمام، وقطعا اسمه من الخطبة، فخرج هاربًا، ثم رجع إلى بلد عَنس، ووصل إليه جعفر، وأقاموا بصنعاء، ثم مات السلطان يحيى بن أبي حاشد في أول سنة أربعين وأربعمائة، فأغلقت أبواب صنعاء ولم يبايع الناس ثلاثة أيام، وأقام الناس ابنه أبا حاشد، وحلفت له همدان.

ذكر أخبار دولة علي بن محمد الصُّلَيْحِيّ

وفي ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ظهر علي بن محمد الصليحي واستولى على اليمن في أقرب مدة داعيًا إلى الدولة العُبَيدية، وكان من خبر قيامه وابتداء أمره أنه لما مات المنصور الحسن بن زادان صاحب مِسور الذي قدمنا ذكره ـ وهو أحد الداعيَين لبني عبيد الله في سنة اثنتين وثلاثمائة ـ كما ذكرنا ـ استخلف على أهل دعوته رجلًا من بني شاور يقال له «عبد الله بن عباس» وابنه حسين بن المنصور، وأمرهما بالمحافظة على دينهما، وألا يقطعا دعوة بني عبيد الله، وأمرهما بمكاتبة المهدي، فإذا ورد أمره بولاية أحدهما سمع الآخر له وأطاع، وكان المهدي يعرف عبد الله بن عباس فكتب إليه ابن عباس يعرفه وفاة المنصور، وأنه قد قام بالدعوة فوصلت إليه كتب المهدي بولايته، وعزل أولاد المنصور، وبعث إليه سَبْعَ رايات، فسار أبو الحسين بن المنصور إلى المهدي بإفريقية، فأمره بطاعة ابن عياش وقد أيس من الرئاسة، فعمل على قتل ابن عياش فنهاه أخوته فلم ينتهِ، واستولى على الأمر، ولم يدع مكاتبة المهدي، ثم خرج أبو الحسين بن منصور إلى عين محرم، وفيه رجل من قبله يقال له ابن العرجي واستخلف على مسور إبراهيم بن عبد الحميد السباعي، وهو جد بني المنتاب، فوثب ابن العرجي على أبي الحسين فقتله، فاستولى إبراهيم على مسور، وادعى الأمر لنفسه، وأخرج أولاد المنصور وحريمهم عن مسور إلى جبل بني أعسب، فوثب عليهم المسلمون، فقتلوهم الصغير والكبير، وسَبَوْا حريمهم.

ثم اتفق إبراهيم وابن العرجي، فاقتسما المغرب نصفين، لكل واحد منهما ما يليه، ورجع إبراهيم إلى مذهب السُّنِّيَّة، وخطب للخليفة العباسي، وتتبع القرامطة بالقتل والسبي، ونصَّب من بقي منهم داعيًا يعرف بابن الطُّفَيْل، فقتله إبراهيم، ثم مات إبراهيم، فولى بعده ابنه المُنتاب بن إبراهيم، وانتقلت الدعوة الخبيثة بعد ابن الطفيل إلى رجل يعرف بابن أقحم، فخاف على نفسه من المُنْتاب، فكان لا يستقر في موضع واحد، وكاتب المعز بعد وصوله إلى مصر، فلما حضرته الوفاة استخلف رجلًا من شبام يعرف بيوسف بن الأسد، فأقام دعوتها مدة حياته، واستخلف رجلًا من شبام اسمه سليمان بن عبد الله الزواحي من حمير، فدعا إلى الحاكم ومن بعده، وكان كثير المال والجاه، فاستمال الرعاع والطغام إلى مذهبه، وكان إذا همّ به المسلمون يقول: «أنا رجل مسلم فكيف يحل قتلي؟»، وكان فيه كرم نفس، وإفضال على الناس.

وكان الصُلَيْحي كثير الاختلاط به، والحظوة لديه، فتفرَّس فيه، فلما حضرته الوفاة أوصاه بالدعوة، وأعطاه مالاً كثيرًا كان قد جمعه من أهل دعوتهم، وأقام الصُلَيْحي باليمن دليلاً للحاج على طريق السراة خمس عشرة سنة، وهو مع ذلك يُعْمل الحيلة في ظهور أمره، فطلع مَسارًا، وهو أعلى ذروة في جبال حراز، ومعه قوم قد بايعوه على الموت، فأحاط بهم جميع أهل حراز، وتهددوه بالقتل، فدافعهم بالحِيَل، وقال: إنما لزمته خوفًا أن يلزمه الغير فتلحقنا جميعًا المَضرَّة، ولم يمض عليه أشهر حتى بناه وحَصَّنه وأمرُه يستفحل، وشأنه يظهر، فلما ظهر بمسار ـ ومعه قوم من الحجاز وسِنحان ويام وجُشَم وهَبْرة ـ حصره جعفر بن القاسم في الأحبوش، وهم خلق كثير، ورجل يسمى جعفر بن العباس شافعي المذهب سار مع جعفر لحصاره في ثلاثين ألفًا، فأوقع الصُلَيْحي بجعفر بن العباس في محطته في شعبان من السنة، فقتله في جمع عظيم، فتفرق الناس عنه، ثم طلع إلى جبل حَضُور فافتتحه، وأخذ حصن يناع، وجمع له ابن أبي حاشد صاحب صنعاء فالتقوا بصَوْف، فقتل ابن أبي حاشد وألف رجل، وسار إلى صنعاء فملكها، وطوى اليمن طيًّا بسهله وجبله.

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة استقرّ ملكُ الصُلَيْحي بجميع اليمن من مكة إلى حَضْرَموت سهلها وجبلها، واستقر بصنعاء، وأسكن معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، واختط بصنعاء عدة قصور، واستعمل صهره ـ أخا زوجته ـ أسعد بن شهاب على زبيد، فدخلها في سنة ست وخمسين وأربعمائة، وأحسن سيرته في الرعية، وفسح لأهل السنة في إظهار مذاهبهم، وكان يحمل من تهامة إلى صنعاء في كل سنة ـ بعد أرزاق الجند الذين بها وغير ذلك من الأسباب اللازمة ـ ألف ألف دينار عَيْنًا.

ذكر مقتل الصُلَيْحي وقِيام ابنه المُكرَّم

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة توجه الصُلَيْحي إلى مكة شرّفها الله تعالى، واستخلف ابنه المكرم على الملك، وسار في ألفي فارس منهم من آل الصُلَيْحي مائة وستون رجلاً واستصحب معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم خوفًا أن يثوروا بعده في البلاد، وسار حتى نزل بظاهر المَهْجَم بضيعة تعرف بأم الدُّهَيْم وبئر أم مَعْبَد، وخيمت عساكره حوله، فلما كان في الثاني عشر من ذي القعدة لم يشعر الناس في نصف النهار إلا وقد قيل لهم قُتِل الصُلَيْحي.

وكان سبب قتله أنه لما استولى على زَبِيد في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقَتَلَ صاحبَها نَجاحًا بالسم، وكان قد أهدى له جارية وأمرها فسَمَّته، فهرب أولاد

نجاح: سعيد الأحول وجَيّاش وغيرهما، فلحقوا بأرض الحبشة، وشاع على ألسنة المُنَجِّمين وأهل المَلاحم أن سعيدًا الأحول قاتلُ علي بن محمد الصُلَيْحي، وبلغ ذلك الصُلَيْحي فاستشعره، وبلغ سعيدًا فترقت إليه همته، وتهَيّأ لأسبابه، فلما بلغه مسير الصُلَيْحي إلى الحجاز خرج من أرض الحبشة، فعارضه في خمسة آلافِ حربة كان قد انتقاها حين خرج من ساحل المَهجم، وهجم على الصُلَيْحي في نصف النهار، والناس مقيلون في خيامهم غير مستعدين لحرب، فدخل عليه خيمته في أهل بيته، وعنده دوابّ النوبة، وهو يريد الركوب، فقَتَلوه، وقتلوا أخاه عبد الله، وتَفَرّقوا في المحطة، فقتلوا من وجدوا، واستولى سعيد الأحول على خزائن الصُلَيْحي وأمواله، وكان قد استصحب منها أموالاً جليلة، وجمع آل الصُلَيْحي خاصة فقتلهم رميًا بالحراب، وأخذ أسماء بنت شهاب، فأركبها هودجًا، وجعل رأس الصُلَيْحي ورأس أخيه أمام هودجها حتى دخل زبيد، وتركها في دار والرأسان منصوبان قبالة طاق الدار التي هي فيها، وفي ذلك يقول شاعرهم العثماني من قصيدة:

بكرت مظَلَّتَه عليه فلم تَرُح إلا على المَلك الأجلِّ سعيدِها
ما كان أقبحَ وجهَه في ظلها ما كان أحسنَ رأسَه في عُودِها
سود الأراقم قابلتْ أسْد الشَّرى يا رَحْمَتا لأسودها من سُودِها

فأقامت تحت الأسر سنة، ثم تلطفت في الكتابة إلى ابنها المُكَرّم تقول: إنها قد حملت من الأحول، ولم يكن رآها قطُّ وإنما أرادت أن تستنفر حفائظ العرب، فلما وصل الكتاب إلى ابنها جمع رؤوس القبائل، وقرأه عليهم، فثارت حفائظهم، وخرج من صنعاء في ثلاثة آلاف فارس غير الراجل، فخطبهم في الطريق، وقال: «إنما تقدمون على الموت، فمن أراد أن يرجع فمن مكانه» فيقال: إنه رجع بعضهم وسار في الباقين، وبلغ الأحول، فجمع جموعه في عشرين ألف حربة، فطحنتهم خيل العرب، وقتل أكثرهم، فركب الأحول في خواصِّه وأهل بيته خيولاً مُضَمَّرة كان أعدّها للهرب، وهرب إلى الساحل، وقد أعدت له هناك سفن فركبها، وتوجه نحو دهلك، ودخلت العرب زبيد، فكان أول فارس وقف تحت طاق أسماء ولدها المكرم، فسلّم عليها، فلم تعرفه، وقالت: مَن أنت؟ فقال: أحمد بن علي، فقالت: أحمد بن علي في العرب كثير، وأمرته أن يرفع المِغْفَر، فرفعه، فقالت: مرحبًا بمولانا المكرم، فأصابته ريح ارتعش لها، واختلج وجهه، فكان كذلك سنين كثيرة حتى مات، وأعاد المُكرّمُ خالَه أسعدَ بن شهاب إلى ولاية زبيد والأعمال التهامية، ورجع بأمه إلى صنعاء فأقامت مدة وماتت.

ثم جمعت الحبشة لأسعد بن شهاب، فأخرجوه من زبيد، وعادت إلى ملكهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

قال: ثم إن المكرم بن الصُلَيْحي فَوّض الأمور إلى زوجته الحرة، واسمها سَيِّدة ابنة أحمد بن جعفر الصُلَيْحي، وكان الصُلَيْحي يكرمها قبل مقتله، ويقولون لزوجته أسماء: هي والله كافلة ذرارينا، القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا، فلما ماتت أسماء فوّض المكرم الملك والأمر لزوجته الحُرّة، وخلا للشراب واللذات، فارتحلت من صنعاء حتى بنت دارها بذي جِبْلة، وتعرف بدار العز، ونقلته إليها، فاستخلف على صنعاء عمران بن الفضل اليامي، حتى مات في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، فأسند الأمر إلى ابن عمه.

السلطان سَبَأ بن أحمد بن المُظَفَّر الصُلَيحي

وكان دَمِيم الخَلْق لا يكاد يظهر من السرج بطائل، وكان جوادًا شاعرًا قائمًا بأحوال الملك، وإياه عنى ابن القم بقوله:

ولما مدحتُ الهِبرِزِيّ[1] ابن أحمد ... أجازَ وكافاني على المدحِ بالمدحِ
وعوّضني شِعرًا بشعري وزادني ... عطاءً فهذا رأسُ مالي وذا رِبحي
شققتُ إليه الناسَ حتى رأيتُه ... فكنت كمن شَقّ الظلام إلى الصُبحِ

وكان مستقر ملكه حصن أشْيَحَ وما إليه من الجبال المُطلَّة على زبيد، وكانت الحرب بينه وبين أهل نجاح سجالاً، فبَيَّتُوه في بعض الليالي، وكبسوا عسكره، فقتلوا أكثرهم، ونجا سبأ على قدميه عامة ليلته حتى وجد من حمله على فرس في آخر الليل، فلم تعد العرب بعد ذلك إلى تهامة.

وخطبَ سَبَأ الحُرّةَ السيدة، فلم تُجبه، وأنكرت ذلك غاية الإنكار، فتحاربا مدة، فقيل له: ما تجيب إلا بأمر المستنصر خليفة مصر، فأرسل في ذلك إلى المستنصر رسولين، فعادا ومعهما خادم من أكابر خُدّام المستنصر بألفاظ حسنة، فردت بأحسن منها، وقال لها: أمير المؤمنين يقول لكِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] قالت: وما ذاك؟ قال: «قد زَوَّجَك أميرُ المؤمنين من الداعي الأوحد المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي

---

(١) الهبرزيّ: كلمة يمانية، ومن معانيها: الجيد الرمي بالسهام والحسن الثبات على ظهر الفرس (لسان العرب: هبرز).

حِمْيَر سَبَأ بن أحمد بن المُظَفَّر الصُّلَيْحي على ما حَضَر من المالِ، وهو مائة ألف دينار عَيْنًا، وخَمْسُون ألفًا من التحف والألطاف والطيب والكساء»، فقالت: أما كتاب مولانا صلوات الله عليه، وأمره فأقول فيه: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: ٢٩، ٣٠] ولا أقول في أمرِ مولانا ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ۝٣٢﴾ [النمل: ٣٢] وأجابت إلى العقد، فأقبلَ سبأ في جموع عظيمة إلى ذي جِبْلَة، فتلقتهم من الضِّيافات والعطايا الواسعة للناس، والنفقات على العساكر بما بهر سبأ، وصَغُر قدر نفسه عنده، وأقام هو ومن معه على ذلك شهرًا، ثم استأذَنَها في الدخول عليها، فأذنت له، فقِيلَ: إنه اجْتَمع بها ساعة واحدة، وقيل بعثت إليه بجاريةٍ تشبهها، وأصبح سائرًا، فلم يجتمعا بعد ذلك، وماتَ سبأ، فأقامت الحُرة للذبِّ عن ملكها، والقيام بأمرها.

المُفَضَّل بن أبي البركات بن الوليد الحِمْيَرِي

وهو تربيتها، فعظم شأنه وعلت كلمته، وغزا تهامة مرارًا، وكان إليه ولاية التَّعْكُر وبه ذخائر بني الصُّلَيْحي وأموالهم، وكان يتولاه من قبله رجل من الفقهاء فطلع إليه جماعة من الفقهاء السُّنِّية من المِخلاف، فحسنوا له الخلاف، فخالف على المفضل، واستولى على الحصن وما فيه من الذخائر، فجاء المُفَضَّل، وحصره أشد حصار، فقال بعض الفقهاء: والله لا بت حتى أقتل المُفَضَّل، فعمد إلى حظايا المُفَضَّل اللواتي يميل إليهن، فألبسهن فاخر الحلي والحلل، وأطلعهن أسطح القصور، فضربن بالدفوف والمعازف بحيث يراهن المُفَضَّل وجميع عسكره، وكان المُفَضَّل أشد الناس غيرة، فمات من ليلته كمدًا وقيل: امتص خاتمًا فأصبح ميتًا والخاتَم في فمه، فعند ذلك طلعت الحرة من ذي جِبْلَة، فخيمت بالرَّبادي، وكاتبت الفقهاء ولاطفتهم، وكتبت لهم خطها بما اقترحوه من أمان وأموال، وتسلمت الحصن فولّته أحد مواليها.

وقدم على أثر ذلك علي بن أحمد المعروف بابن نَجِيب الدولة رسولاً من قبل الخليفة بمصر إلى الحرة، وكان عاقلاً حسن التدبير فقام بأمر الحرة، وغزا أهل الأطراف، فاستقر أمره، واشتدت شوكته، واستخدم أربعمائة فارس من هَمْدان وغيرهم من عرب اليمن، فقوي بهم، وغزا ملوك زبيد، ولم تزل أموره مستقيمة حتى بلغ الحرة عنه أنه قال: إنها قد خَرِفت ولا تصلح لتدبير الملك، فتنكرت له، وأغرت به ملوك اليمن، وكانوا تحت طاعتها كعمران اليامي، وعمرو الجنبي، وكل منهما

يسير في ألف فارس، فحصروه حتى جهد، فلما اشتد به الحصار فرقت الحرة عشرة آلاف دينار مصرية، وأشاعت في الناس أنها من ابن نجيب الدولة، فطلبت العساكر من ملوكها الأموال والأرزاق، فغالطوهم فارتحلوا، وتفرق الناس، فقيل لابن نجيب الدولة: هذا من تدبير التي قلت إنها قد خرفت، فركب إليها إلى ذي جبلة، فاعتذر إليها.

ثم قدم رسول من الديار المصرية، فلم يحتفل به ابن نجيب الدولة، فشقّ عليه ذلك، والتحق به أعداء ابن نجيب الدولة، فقال لهم: اكتبوا على يدي كتابًا «أنه دعاكم إلى البيعة لنزار، واضربوا سكة نزار، وأنا أوصلها إلى الخليفة الآمر بأحكام الله» ففعلوا ذلك وفعل، فبعث الآمر أميرًا، فقبض عليه، وسيره إلى مصر، فأرسلت الحرة إلى مصر رسولاً، فشفع فيه، فلما توسطوا البحر غَرَّقهم الموكَّلُون بهم بمواطأة ذلك الأمير، وانتقلت الدعوة إلى آل زُرَيع.

ذكر أخبار ملوك الدولة الزُّرَيْعِيّة

قال: ولما جهز ابن نجيب الدولة إلى الديار المصرية انتقلت الدعوة إلى الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم بن يام بن أصبى، من حاشد من هَمْدان، وهو من بيت شرف ورئاسة، وكان لجده العباس سابقة محمودة، وبلاء حسن مع الصُّلَيْحي في القيام بالدعوة، ومع المكرم في نزول زبيد.

ولما تغلب بنو مَعْن على عدن وافتتحها المكرم، ونفى بني معن، ولاها العباس ومسعود ابني المكرم، فكانا كذلك إلى أن سارا مع المُفَضَّل بن أبي البركات إلى زبيد لقتال الحبشة، فقُتِلا على باب زبيد، فانتقل الأمر بعدن إلى أبي السعود بن زريع، وأبي الغارات بن مسعود حتى ماتا، فولى الأمر بعدهما الداعي سبأ بن أبي السعود، ومحمد بن أبي الغارات، فلما مات محمد ولي ما كان إليه من الأمر أخوه علي بن أبي الغارات، وبيد الداعي سبأ مع عدن تَبالة، وله في الجبال حصن الدُّمْلُوَة، والسَّانة، ومطر، وغَيْدان، وذُبْحان وبعض المعافِر وبعض الجَنَد، ثم وقع بينه وبين ابن عمه خلاف وقتال أُجلت الحرب عن هزيمة أبي الغارات واستقلال الداعي سبأ بالأمر بمفرده، وصَفَت له البلاد، ودخل عدن، وأقام بها سبعة أشهر، ومات في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فولى الأمر بعده ولده علي الأعز، ووصل القاضي الرشيد أحمد بن الزبير من مصر بتقليده الدعوة، فوافاه قد مات في سنة أربع وثلاثين، فقلدها أخاه.

محمد بن سَبَأ، ولقبه المُعَظّم المُتَوَّج المَكِين

وكان الداعي محمد هذا ممدَّحًا يقصده الشعراء، فيجزل لهم العطاء، وكان جوادًا كريمًا، وتوسع في الملك، وغلب على أكثر البلاد، وتوفيت الحرة السيدة بذي جِبْلَة سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وانتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر إلى المنصور بن المُفَضَّل، فابتاع الداعي محمد بن سبأ هذا منه الحصون والبلاد في سنة ست وأربعين وخمسمائة، مثل مدينة جِبْلَة والتَّعْكُر وحب وغيرها من حصون المخلاف وسواه، وطلع الداعي المخلاف، فسكن بذي جِبلة، وكانت وفاته في سنة ستين وخمسمائة، ولم يزل الأمر في ذراريهم إلى أن نفاهم سيف الإسلام بن أيوب.

وأما صنعاء فملكها بعد الداعي سبأ بن أحمد الصُّلَيْحي رجل من هَمْدان يعرف بحاتم بن الغشِم، وكان ناهضًا كافيًا، وكان له ولد اسمه محمد لم يشاركه أحد في شجاعته وجوده، إلا أنه كانت فيه لوثة واختلاط عقل، فكان إذا تزوج امرأة وأحبها قتلها، فتحاماه الناس فلم يزوجه أحد بعد ذلك، فخطب إلى بني الصُّلَيْحي أهل قيضان، فأبوا أن يزوجوه، فألحّ عليهم فقالوا: «إذا ضمن أبوك زَوّجناك»، فلم يزل بأبيه حتى ضمن، وقال له أبوه: «إن قتلتها قتلتك» فقتلها بعد مدة، ولحق بحصن بَرَاش صنعاء، فلم يزل أبوه يخادعه ويلاطفه، حتى التقيا تحت المدرج، فوثب عليه أبوه فقتله، وقطع برأسه ودخل به صنعاء على رمح، وكانت لمحمد بنية في بيت جدها، وقد سمعت أن جدها خرج ليأتي بأمها، فلم يفاجأها إلا رأس أبيها على الرمح، فماتت فجأة، ثم مات حاتم بن الغشم، فانتقل ملك صنعاء ومخاليفها إلى:

السلطان حاتم بن أحمد بن عِمْران اليامِي

وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكانت له حروب مع الإمام أحمد بن سليمان، ومات حاتم بن أحمد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فولى بعده ابنه حَمِيد الدولة علي بن حاتم، فخالفت عليه هَمْدان، وقتلوا أخاه عِمْران، ثم استقاموا له، وقويت شوكته ونزل اليمن الأسفل لقتال بني مهدي، فأوقع بهم في الجبال، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وذلك في ربيع سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر أخبار سعيد الأحول، واستيلائه على زبيد ثانيًا ومن ملك بعده من آل نجاح

قد ذكرنا أن المكرم هزم سعيدًا الأحول، وقتل رجاله واستولى على زبيد، وأعاد إليها خاله أسعد بن شهاب في سنة ستين وأربعمائة، فلما رجع المكرم بأمه إلى صنعاء

وثب سعيد الأحول، فطرد أسعد بن شهاب من زبيد فلحق بابن أخته، واستولى سعيد الأحول على زبيد والأعمال التهامية بها إلى أن تحيلت الحرة السيدة على قتله، فأمرت والي الشعر أن يكاتبه، ويباطنه أنه يسلم إليه جبل الشعر، ومنه يستولي على الحرة وما بيدها من الأعمال، فطمع في ذلك فخرج للميعاد، وأمرت الحرة ملوك اليمن الأعلى بحشد عساكرهم وراءهم ونزولهم من الجبال المطلة على زبيد، وأن يطووا المراحل خلف سعيد، فلما صار تحت الشعر أطبقت عليه جيوش العرب وجيوش الحرة، فقتل هو وأكثر من معه، وذلك في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة.

وعادت زبيد إلى المُكَرّم، وأعادت الحرة إليها أسعد بن شهاب، ثم انتزعها منه «جيّاش بن نجاح» أخو سعيد، وذلك أنه كان عند مقتل أخيه ببلاد الهند، وكان قد توجه إليها متنكرًا في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، فلما عاد وجد أخاه قد قُتل، وخرجت زبيد عنهم، فدخل زبيد متنكرًا، ولم يزل يتَحَيَّل ويتَلَطَّف حتى اجتمع له من مواليه وأصحابه خمسة آلاف حربة، وساعده على ظهوره علي ابن القم الشاعر، وكان وزيرًا لأسعد بن شهاب، فوثب بزبيد، وملكها وأعانه عوام المدينة، وأتى بأسعد بن شهاب أسيرًا، فأكرمه وأطلقه، وكان جياش قد أحضر معه جارية من الهند حاملًا، فولدت له ابنه فاتكًا، وفي ساعة وضعها كان وثوبه بزبيد، ولم يزل جيّاش في ملك زَبيد وتِهامة من سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة إلى سنة ثمان وتسعين، فمات في ذي الحجة منها، وقيل في شهر رمضان سنة خمسمائة. قال: والأول أظهر، وخلف من الأولاد الفاتك ـ ابن الهندية ـ ومنصورًا وإبراهيم وعبد الواحد والذخيرة ومعاركًا، فولى بعده ابنه الفاتك، وخالف عليه أخوه إبراهيم، وخالف عليه أيضًا أخوه عبد الواحد، وجرت بينهم وقائع وحروب، فظفر فاتك بأخيه عبد الواحد، فعفا عنه، وأكرمه، ونزل إبراهيم بن جيّاش بأسعد بن وائل بن عيسى الوَحَاظي، فأكرمه إكرامًا عظيمًا، وكانت عبيد فاتك بن جياش قد عظم شأنهم، وكثروا واشتدت شوكتهم، ثم مات فاتك في سنة ثلاث وخمسمائة، وترك ولده المنصور بن فاتك صغيرًا، فملكه عبيد أبيه، وحشد إبراهيم بن جيّاش بعد موت أخيه فاتك، فتواقعوا، وحين خلت زبيد منهم وثب بها عبد الواحد بن جيّاش فملكها، وحاز دار الإمارة، فأخرج الأستاذون والوصفان مولاهم منصور بن فاتك ودلوه من سور البلد خوفًا عليه، ولحق بعبيد أبيه.

ولما بلغ إبراهيم بن جيّاش أن أخاه عبد الواحد قد حصل على زبيد وسبقه إليها، توجّه إلى الحسين بن أبي الحِفاظ الحَجُوري.

وأما عبيد فاتك، فإنهم توجهوا بالمنصور ابن مولاهم، ونزلوا بالملك المفضل بن أبي البركات الحميري صاحب التَّعْكُر، وبالحرة السيدة بنت أحمد الصُلَيْحي بذي جِبْلة، فأكرما مثواهم، والتزم عبيد فاتك للمُفَضّل بريع البلاد على نصرتهم على «ابن جيّاش» فأخرجه من زبيد، وملكهم إياها، وهَمَّ المفضَّل أن يغدر بآل فاتك، ويملك البلاد، فبلغه ما كان من أمر الفقهاء، واستيلائهم على حصن التَّعْكر، ففارق زبيد، وتوجه إليهم، وكان من أمر وفاته ما قدمناه.

واستقر الأمر بتهامة للمنصور بن فاتك وعبيد أبيه، فمن أولاد فاتك الأمراء ومن عبيده الوزراء، فأما الأمراء فمنهم المنصور بن فاتك، ثم فاتك بن المنصور وهو ابن الحُرَّة الصالحة الحاجة.

ثم مات فاتك بن منصور، فانتقل الأمر إلى ابن عمه، واسمه أيضًا الفاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جيّاش في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وقتله عبيده في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وعنهم زالت الدولة إلى علي بن مهدي الخارج باليمن في شهر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ولم يكن لأولاد فاتك بن جَيّاش من الأمر شيء سوى النَّوامِيسِ الظاهرة، من الخطبة لهم، بعد بني العباس، والسكة، والركوب بالمِظَلّة في أيام الموسم، وعقد الآراء في مجالسهم، وما عدا ذلك من الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود، وإجازة الوفود، فلعبيدهم الوزراء، وهم عبيد فاتك بن جيّاش، وعبيد منصور ابنه.

وأول من وَزَر منهم أنيس الفاتكي، وكان من بطن في الحَبَشة يقال لهم الجرليون، وملوك بني نجاح من هذا البطن، وكان أنيس هذا جبارًا غشومًا مهوبًا، وبنى قصورًا عظيمة، ولما اشتدت شوكته عزم على قتل مولاه المنصور بن فاتك، وتهيأ للاستقلال بالملك، فبدره ابن مولاه، بأن عمل وليمة واستدعاه، فقطع رأسه واسْتَصْفى أمواله. ووَزَر بعده الشيخ أبو منصور مَنُّ الله الفاتكي، وكان كريمًا شجاعًا، وله وقعات مشهورة في العرب، ومآثر مذكورة، ولما وزر لمنصور بن فاتك بن جيّاش في سنة تسع عشرة وخمسمائة لم يقدم شيئًا على قتل منصور ابن مولاه بالسم، ومَلَّك ابنه فاتك بن منصور، وهو طفل صغير، ثم تعرض إلى حريم مولاه، فيقال: إن منصور بن فاتك وأباه فاتك بن جيّاش، وغيرهما من آل نجاح، ماتوا عن أكثر من ألف سُرِّية، ما منهن واحدة سلمت من الوزير «منّ الله» إلا عشرة نساء من حظايا منصور بن فاتك منهن الحُرَّة الملكة أم فاتك بن المنصور الملك، وكانت من جواري الوزير أنيس ابتاعها منصور من ورثته، وكانت حبشية مغنية، واسمها علم، فخرجت

امرأة صالحة خَيِّرة كانت تحج بأهل اليمن برًّا وبحرًا في خفارتها من الأخطار والمكوس، فاعتزلت القصر، وسكنت خارج المدينة، وبنت لها دارًا. هذا والملك ولدها.

قال: ولما أراد الله تعالى هلاك الوزير «منّ الله» حاولَ بنت معارك بن جيّاش وراودها، وكانت موصوفة بجمال، فافتدت نفسها منه بأربعين بكرًا فذكرت ذلك لعبيد عمها فاتك، وعبيد ابن عمها منصور بن فاتك فهابوه، ولم يقدروا على شيء فقالت لهم الحرة أم أبي الجيش ـ وكانت مولدة ذات جمال ـ: أنا أكْفيكُمُوه، ثم أرسلت إلى الوزير مَنّ الله تقول له: «إنك أسأت السُّمْعَة علينا وعليك فيما تقدم، ولو كنت أعلمتني خَدَمتُك أتمَّ خدمة، ولم يعلم بك أحد، ففرح الوزير بذلك، وتواترت الرسائل بينه وبينها، حتى قال: فإني أزورك في هذه الليلة إلى دارك متنكرًا، فقالت لرسوله: إن الله قد أجَلَّ قدر الوزير عن ذلك، بل أنا أزورُه في داره، وأتته عند المساء، فغَنَّته وشرب وطرب، فيقال: إنها مَكَّنَتْه من نفسها، فوقع عليها، فلما فرغ مسحته بخرقة مسمومة، فتَهَرَّأ ومات من ليلته، فدفنه ولده منصور في إسطبله، وسوّى به الأرض، فلم يعرف له قبر، وكانت وفاته في ليلة السبت خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ثم وَزَرَ بعده لفاتك بن منصور زُرَيْق الفاتكي «وكان شجاعًا كريمًا، وكان له من الأموال والأراضي ما لا تحصى قيمته، وكان له ثلاثون ولدًا إلا أنه لم يكن له نفاذ في سياسة العسكر، ولا خبرة بإقامة نواميس السلطنة، فاستقال من الوزارة، واستدعى لها الوزير أبا منصور مُفْلِحًا الفاتكي، وهو من بطن من الحبشة يقال لهم «سَحَرْت»، وكان يكنى بولده منصور، وكان منصور هذا من الأعيان أهل الخبرة والفقه والأدب والصباحة والسماحة والشجاعة والرئاسة الكاملة، وكان مُفْلِح يُنْبَزُ في صغره «بالبَغْل»، وكان يقال: «مفلح البغل» ولا يغضب من ذلك، وكان عفيفًا لم تعلم له صبوة في صغر ولا كبر، ولما عظم شأنه في الوزارة ثقل على أهل الدولة، فتُحُيِّل في إخراجه، فأُخْرِج من الوزارة، وكانت له حروب مع سُرُور الفاتكي، ثم مات في سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

وكان لمنصور ابنه مع العساكر حُروب، ثم خَذَله أصحابه وتَفَلَّلوا عنه، فاستأمن إلى القائد «سرور» ودخل معه إلى زبيد، والوزير يومئذ «إقبال» الفاتكي، فخلع على منصور، وأنزله في دار أبيه، ثم قبض عليه من الغد، وقتل في دار الوزير «إقبال»، فأنكر الملك فاتك ذلك، وهَمَّ بإقبال، ثم أبقاه على دَخَنٍ، فتلطف إقبال، حتى سقى مولاه فاتكًا السم، فمات فاتك بن منصور في شعبان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ومنهم القائد «أبو محمد سُرور الفاتكي» وجنسه من الحبشة «أمْحَرَة»، وكانت له مآثر وصدقات وصلات يطول الشرح بذكرها. وكان كثير الصلاة والعبادة والخير والبر، فكانت هذه حاله من سنة تسع وعشرين وخمسمائة إلى أن قتل في مسجده بزبيد في الركعة الثالثة من صلاة العصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، قتله رجل يُقال له «محرّم» من أصحاب علي بن مَهْدي، ثم قُتِل قاتله في تلك العشية بعد أن قَتَل جماعة من الناس، ولم تلبث الدولة بعد قتله إلا يسيرًا حتى أزالها علي بن مَهْدي، وملك زبيد وأعمالها في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، في آخر يوم من شهر رجب.

ذكر أخبار دولة علي بن مَهْدي الحِمْيَرِيّ وبنيه

وهم من أهل قرية يقال لها العَنْبَرة من سواحل زبيد، وكان أبوه رجلاً صالحًا سليم القلب، ونشأ ولده عَلِيٌّ هذا على طريقة أبيه في العُزْلة والتمسك بالصلاح، وحجّ وزار ولقي حاجَّ العراق وعلماءها ووُعّاظها، وتضَلَّع في معارفهم، وعاد إلى اليمن، فاعتزل وأظهر الوعظ، وإطلاق التحذير من صحبة العسكرية، وكان فصيحًا صبيحًا أخضر اللون طويل القامة مخروط الجسم بين عَيْنيه سَجّادة، حسن الصوت، طيب النغمة، حلو الإيراد، غزير المحفوظات، قائمًا بالوعظ والتفسير وطريقة الصوفية، وكان يُحَدِّث بشيء من أحواله المستقبلات فيَصْدُق، وكان ذلك من أقوى عُدَده في استمالة قلوب العالم، وظهر أمره بساحل زبيد بقرية العَنْبَرة وقرية واسط وقرية القضيب والأهْواب والمقتفى وساحل الفازة وكان يتنقل بينها. وكانت عَبْرَته لا ترقأ على ممر الأوقات، ولم يزل يعظ الناس في البوادي من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فإذا دنا الموسم خرج حاجًّا على نجيب له إلى سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

ثم أُطلقت الحرة أم فاتك ابن منصور له ولأخوته وأصهاره ومن يلوذ بهم خراج أملاكهم، فلم تمضِ بهم هنيهة حتى أثروا، واتسعت حالهم، فركبوا الخيل.

ثم حالفه قوم من أهل الجبال على النصرة، فخرج من تهامة إليهم في سنة ثمان وثلاثين، فجمع جموعًا تبلغ أربعين ألفًا، وقصد بهم مدينة الكَدْراء، فلقيه القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي في قومه، فهزموا أصحابه، وقتلوا خلقًا من جموعه، وعفوا عن أكثرهم، وعاد ابن مهدي إلى الجبال، وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين

وخمسمائة، ثم كاتب الحرَّة بزبيد، وسألها في ذِمَّة له ولمن يَلُوذ به، ويعود إلى وطنه، ففعلت له ذلك على كره من أهل دولتها، ومن فقهاء عصرها، لِيَقْضِيَ اللّهُ أمرًا كان مَفْعُولاً.

وأقام ابن مهدي يستغل أملاكه سنين عدة، وهي مطلقة الخراج، فاجتمع له من ذلك مال، وكان يقول في وعظه: «أيها الناس، دنا الوقت، أزِف الأمر، كأنّكم بما أقولُ لكم وقد رأيتموه عيانًا»، فما هو إلا أن ماتت الحرة في سنة خمس وأربعين حتى أصبح في الجبال في موضع يقل له الداشر «من بلاد خَوْلان» ثم ارتفع منه إلى حصن يقال له الشرف، وهو لبطن من خولان، يقال لهم خَيْوان ـ بإسكان الياء ـ وسماهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين، ثم ساء ظَنّه بكل أحد ممن معه خوفًا على نفسه، فأقام للأنصار رجلاً من خولان يسمى سبأ بن يوسف وكناه «شيخ الإسلام» وللمهاجرين رجلاً يسمى التُّويتي لقبه أيضًا شيخ الإسلام، وجعلهما نقيبين على الطائفتين، ولا يخاطبه ولا يصل إليه أحد سواهما، وربما احتجب فلا يرونه وهم يتصرفون في الغزو، فلم يزل يغادي الغارات ويراوحها على تهامة حتى أخرب الحزوز المُصاقِبة للجبال، والحبشة يومئذ تبعث الأبدال في المراكز، فلا يغنون شيئًا، فلم يزل ذلك دأبه مع أهل زبيد إلى أن أخلى جميع أهل البوادي، وقطع الحرث، ومنع القوافل، وكان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والقوافل، وما عجز عن السير عَقَروه، ففعلوا من ذلك ما أرعب وأرهب، وقضى بخراب الأعمال، ثم توجه إلى الداعي محمد بن سبأ صاحب عدن إلى مدينة ذي جِبلة في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، يستنجده على أهل زبيد، فلم يجبه إلى ذلك، فعاد إلى حصن الشرف، ودبر في قتل القائد «سرور الفاتكي» فقتل في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة كما تقدم.

وانشغل رؤساء زبيد بالتنافس والتحاسد على رتبة القائد سرور، فكان ذلك مما أعان ابن مهدي، وفارق ابن مهدي حصن الشرف، وهبط إلى الداسر، وبينه وبين زبيد أقل من نصف يوم، فانضمت إليه الرعايا وعرب البلاد، فلما كثر جمعه زحف إلى زبيد في جموع لا تحصى كثرة وحصر أهل زبيد بها، فصبروا، وقاتلوه اثنين وسبعين زحفًا يُقتل من أصحابه مثل ما يقتل منهم، واشتد بهم الضر والبلاء والجوع حتى أكلوا الميتة، فاستنجدوا بالشريف الزيدي ثم الرَّسي، أحمد بن سليمان صاحب صعدة، وشرطوا له أن يملكوه عليهم، فقال: «إن قتلتم مولاكم فاتكًا حلفت لكم

ونصرتكم، فوثب عبيد فاتك بن محمد بن فاتك بن جيّاش بن نجاح مولى مرجان، ومرجان مولى أبي عبد الله الحسين بن سلامة، والحسين بن سلامة مولى رشد الزمام، ورشد مولى زياد بن إبراهيم بن أبي الجيش إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن زياد - فقتلوه في شهور سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، ثم عجز الشريف عن نصرهم على ابن مهدي، ثم كانت بينهم وبين ابن مهدي حروب، وهم يتحصنون بالمدينة إلى أن فتحها في يوم الجمعة رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين، وأقام بها علي بن مهدي بقية شهر رجب وشعبان ورمضان، ومات في شوال من السنة، فكانت مدة ملكه أحد وثمانين يومًا.

ثم انتقل (الملك) بعده إلى ولده «المهدي» ثم إلى ولده «عبد النبي»، ثم إلى ولده «عبد الله»، ثم عاد الأمر إلى عبد النبي والأمر في اليمن بأسره إليه ما عدا عدن، فإن أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة، واجتمع لعبد النبي هذا ملك الجبال والتهايم، وانتقل إليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها، يقال: إنه حصل في خزائن ابن مهدي ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن.

قال: «وكان ابن مهدي يَتَمَذْهَب بمذهب أبي حنيفة في الفروع، ثم أضاف إلى عقيدته التكفير بالمعاصي، والقتل بها وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة، واستباحة الوطء لنسائهم، واسترقاق ذراريهم، وكان اعتقاد أصحابه فيه أن الواحد من آل مهدي إذا قتل جماعة من عسكره ثم قَدَروا عليه لم يقتلوه دينًا وعقيدة، وإذا غضب ابن مهدي على رجل من أكابرهم وأعيانهم حبس المغضوب عليه نفسه في الشمس، ولم يطعم ولم يشرب ولم يصل إليه ولد ولا زوجة، ولا يقدر أحد أن يشفع فيه حتى يرضى عنه ابتداء من نفسه، ومن طاعتهم له أن كل واحد يحمل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال، ويكون ابن مهدي هو الذي يكسوهم هم وأهاليهم من عنده، وليس لأحد من العسكرية فرس يملكه ولا يرتبطه، ولا عدة من سلاح ولا غيرها، بل الخيل في إسطبلاته، والسلاح في خزائنه، فإذا عنّ له أمر دفع من الخيل والسلاح ما يحتاجون إليه، ومن سيرته قتل من انهزم من عسكره ولا سبيل إلى حياته، وقتل من شرب المسكر، ومن سمع الغناء، ومن زنى، وقتلُ من تأخر عن صلاة الجماعة، أو عن مجلس وعظه في يومي الخميس والاثنين، وقتل من تأخر فيهما عن زيارة قبر أبيه، هذه رسومه في العسكرية.

ولم يزل أمره على ذلك حتى اتصل خبره بالسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب(١)، واتصل به أن عبد النبي يزعم أن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس، فجهز أخاه الملك المعظم فخر الدين(٢) في شهر رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، وملك زبيد، وأسر عبد النبي، وقتله على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر أخبار ملوك الدولة الأيُّوبية باليمن

قد ذكرنا أخبار الدولة الأيوبية بالديار المصرية والشام وبلاد الشرق، فيما تقدم من كتابنا، وأتينا على أخبار ملوكها ملكًا ملكًا، وأشرنا إلى نُبَذٍ يسيرة من أخبار ملوكهم باليمن، ونحن الآن نذكر أخبار ملوكهم ببلاد اليمن بما هو أبسط مما تقدم، لتكون أخبار اليمن سياقة يتلو بعضها بعضًا.

كان من خبر دولتهم باليمن أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك الديار المصرية، وأزال الدولة العُبَيْدية كان من جملة من اتصل بخدمته عُمارة اليمني الشاعر(٣)، فذكر له أخبار اليمن قال:

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب: هو السلطان صلاح الدين، أبو المظفر، يوسف بن أيوب بن شاذي، صاحب الديار المصرية والشامية والفراتية واليمنية، استوزره العاضد الفاطمي، وبعد مرض العاضد، قطع صلاح الدين خطبته وخطب للعباسيين وانتهى بذلك أمر الفاطميين، وهو الذي كسر الصليبيين في معركة حطين، حرر بيت المقدس منهم سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٨٩هـ (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/ ٣ ـ ٧، الفتح القسّي في الفتح القدسي للعماد الكاتب، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، الأعلام ٨/ ٢٢٠، ابن خلكان ٧/ ١٣٩ وما بعدها، الجوهر الثمين ٢/ ١٣ وما بعدها).

(٢) هو الملك المعظم توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المفاخر، فخر الدين، ولد بمصر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو آخر من بقي من إخوته، سمع الحديث بدمشق من محيي الدين الثقفي، وأجازه ابن بري، وكان ذا شجاعة وعقل، وكان مقدم الجيش الحلبي، وهو كان المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة ٥٣٧هـ، بقرب الفرات، فأسر يومئذٍ وهو مثخن الجراح، وانهزم عسكره هزيمة قبيحة. توفي سنة ٥٧٦هـ (انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٣) عمارة اليمني الشاعر: هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي، الفقيه، نجم الدين أبو محمد، الشاعر اليمني الشافعي، المتوفى مصلوبًا بمصر سنة ٥٦٩هـ، من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية» (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).

في سنة تسع وستين وخمسمائة، توجه إلى مكة شرّفها الله تعالى، ومنها إلى مدينة زبيد، فلما شاهده أهلها انهزموا عن الأسوار إلى المدينة، فلما انتهى العسكر إلى السور وجده خاليًا، فنصب عليه السلاليم، وصعدوا عليها إلى السور، فنال البلد عَنْوة، وذلك في يوم الاثنين التاسع من شوال من السنة، وأسر عبد النبي بن علي مهدي، فسلّمه الملك المعظم إلى الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فاستخرج منه شيئًا كثيرًا، وأظهر دفائن كانت له، ودَلَّتهم الحُرّة على ودائع لها كثيرة. ومات عبد النبي في أسره، وقيل شنقه، وخطب من بعده لأخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

ثم سار من زَبيد إلى ثغر عدن، وصاحبها يومئذ بلال بن جرير المحمدي. نائب آل زريع بها، فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه، فسبقهم عسكر المعظم إلى الثغر، فدخلوه، وأسر صاحبه، وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم الملك المعظم، وقال: «ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها».

ثم توجه من عدن إلى صنعاء في أول المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فملكها، وبنى بها المباني، ثم ملك الحصون والمعاقل منها: قلعة تعز، وهي الدُمْلُوَة، ورتب النواب في بلاد اليمن: فرتب في زبيد سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وبثغر عدن عز الدين عثمان الزنجيلي، وفي تعز ياقوت التعزي وفي ذي جِبْلة مظفر الدين قايماز، ورتب في كل حصن نائبًا، ولم يعجب الملك المعظم المقام باليمن، ففارقها وعاد إلى أخيه السلطان الملك الناصر إسماعيل إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، وكان وصوله في سنة إحدى وسبعين.

قال: ثم ادّعى كل من النواب المُلك لنفسه، وضرب سكة باسمه، وكان كل واحد لا يتعامل بسكة الآخر، فأما سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ فإنه مرض، وكره المُقام باليمن، فعاد إلى الملك الناصر، واستناب أخاه خطاب بن منقذ بزبيد، وأما مظفر الدين قايماز فإنه ضعف أمره ولم ينقذ بلده.

ولما علم الملك الناصر بفساد الحال، وما وقع باليمن، أرسل الأمير المقدم فارس الدين خطلبا في البحر إلى فخر الدين عثمان الزنجيلي بعدن، فلما وصل إليه قابله بالإجلال والتعظيم، واتفقا على المسير إلى خطاب بن منقذ، وسارا فلقيهما ياقوت التعزي وقايماز، فاصطلحوا وساروا جميعًا إلى خطاب، فلما سمع بذلك خطاب ارتفع إلى حصن قوارير، وأخلى زبيد، ودخل خطلبا زبيد، وملكها في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وكان خطاب يغير في بعض الأوقات على أطراف زبيد، ثم

مرض خطلبا وأشرف على الموت، فراسل خطابًا سرًا، وقال له: أنت أولى بالأمر من عثمان الزنجيلي، فدخل خطاب زبيد مختفيًا، وبلغ ذلك عثمان، فسار بجيشه إلى زبيد فخُذِل، ومات خطلبا، واستمر خطاب بزبيد إلى سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

ولما اتصل ذلك بالملك الناصر بعث أخاه الملك العزيز أبا الفوارس سيف الإسلام طُغْتَكين بن أيوب(١)، ومعه ألف فارس وخمسمائة جبَلي، فتوجه في سنة تسع وسبعين وخمسمائة، ودخل مكة معتمرًا في شهر رمضان، وبها صاحبها الشريف فليتة بن مطاعن الهاشمي، فتلقاه الشريف، وخلع عليه الملك العزيز خلعة سنية قيمتها ألف دينار، وتوجه إلى اليمن قبل الحج، فوصل إلى زبيد في أواخر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، فتلقاه خطاب، فخلع عليه الملك العزيز وعلى عسكره، ودخلا جميعًا زبيد، فأقام معه أيامًا، واستأذنه خطاب في المسير إلى الشام، فأذن له، فأخرج جميع أثقاله وأمواله إلى ظاهر زبيد، فعند ذلك أمر سيف الإسلام بالقبض على خطاب، والاحتياط على أثقاله، وخُنِق بعد ليالٍ بحصن تعز، وأما ياقوت، فسلّم إليه حصن تعز ومغْشاره، وأما مظفر الدين قايماز فتغلب على جِبْلة ومخاليفها، وأرسل إليه من أخذه، وأما عثمان الزنجيلي فعمر سفنًا عظيمة وشحن فيها جميع ما يملكه من الصامت والناطق، وتوجه إلى العراق.

وملك سيف الإسلام اليمن كله وَعْرَه وسَهْله، ودخل أماكن ما دخلها أحد قبله بالسيف، وجرت بينه وبين الإمام عبد الله بن حمزة عدة وقائع على صنعاء، وأقام خمس سنين وصنعاء ليست في ملكه.

وفي سنة خمس وثمانين استولى على حصن كَوكَبان ودان له ملك اليمن بكماله، وأزال ملك بني حاتم من صنعاء، وسوَّر زبيد سورًا جديدًا، وسوَّر صنعاء بعد أن أخرب سورها، ورمى النفط في دورها، واستمر في الملك إلى أن مات بالمنصورة بين الجَنَد وجِبْلة في شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وكان حسن السيرة، إذا تعرض له أحد وهو في موكبه وقف له، ولا ينصرف من مكانه حتى يكشف ظلامته، وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة، وكان قبل وفاته قد سلطن مملوكه «همام الدين أبو زبَا» وأرسله إلى البلاد العليا، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) هو الملك العزيز، أبو الفوارس، سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي، ملك اليمن، توفي سنة ٥٩٣هـ (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/ ١٥ ـ ١٦).

الملك المُعِزّ فتح الدين أبو الفدا إسماعيل(١)

وكان الملك المُعِزُّ هذا قبل وفاة والده قد غضب على أبيه وفارقه، وأراد اللحاق بأعمامه بالديار المصرية، فأدركته الرجال على النُّجُب بوفاة والده، وهو على ساعد حَرَض فجزّ شعره، ولبس السواد حزنًا على أبيه، وعاد، وملك البلاد وقتل جماعة كثيرة من غلمان أبيه، ثم صعد إلى صنعاء فقبض على «همام الدين أبو زَبَا»، وقتله، وذلك في المحرم سنة أربع وتسعين، وعاد إلى اليمن.

ثم أقام الإمام المنصور الدعوة في سنة أربع وتسعين، وانضم إليه جماعة من عسكر سيف الإسلام، فبلغ ذلك المُعزَّ، فرجع من فوره إلى صنعاء، فوجد الإمام على الحَقل ومعه الأمير جَكَوا في مائتي فارس، فلما تراءى الجمعان انحاز أصحاب جَكَوا إلى المعز، وثبت جَكَوا، وقاتل إلى أن قتل وانهزم الإمام، ودخل المعز صنعاء، وعاد منها إلى زبيد، وبنى المدرسة المعروفة بالمِيْلَيْن، ثم داخلته الخيلاء في عقله، وادعى الخلافة، وانتمى إلى بني أمية، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المُعزّ لدين الله أمير المؤمنين، فكتب إليه أعمامُه ينكرون هذه الدعوى، ثم أخاف مماليك أبيه، فهرب منهم سُنْقُر الأتابِك في طائفة كبيرة من المماليك، وبقي أكثر من معه من الأكراد.

ولما تفاحش أمره بدعوى الخلافة قتله الأكراد على باب زبيد في سنة ثمان وتسعين، ونهب الأكراد زبيد نهبًا شنيعًا، وكانت ولايته ست سنين.

ولما مات أرجع الأتابك سُنْقُر حصون حَجَّة، فوصل إلى تهامة، فتلقاه الأكراد والعساكر، وجعلوه أتابكًا للملك الناصر أيوب بن سيف الإسلام(٢)، وهو يومئذ صغير، وقيل: إن الأكراد لم يمكنوا الأتابك من زبيد، وكان للأتابك عدن، ومخلاف

---

(١) هو إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك المعز، شمس الملوك، ابن العزيز صاحب اليمن، كان منهمكًا في اللهو والشرب، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه، ولما توفي أبوه سنة ثلاث وتسعين كان بالسرين، أرسل إليه جمال الدولة كافور مَن عرّفه بوفاة والده، فحضر وملك اليمن، ثم ادّعى أنه أموي ورام الخلافة، ولبس شارتها، وسمّى نفسه المهدي، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك وينكر فعله، وقيل: ادّعى النبوة، ثم اتفق جماعة من الأكراد وقتلوه سنة ٥٩٨هـ، وقيل: سنة ٥٩٩هـ بالقور من أعمال زبيد، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام، وأقاموا أخاه الناصر أيوب (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٧١ ـ ٢٧٢، وانظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٤، مفرج الكروب ٣/ ١٣٦، السلوك ١/ ١٥٩، العبر ٤/ ٣٠١، بلوغ المرام ص٤١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٨١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ، شذرات الذهب ٤/ ٣٣٤).

(٢) توفي سنة ٦١١هـ (انظر البداية والنهاية ١٣/ ٦٩).

جعفر، ومخلاف تعز، وصنعاء وأعمالها، ونائبه فيها وفي حرب الإمام المنصور علم الدين وَرْد سار، ونزل الأتابك إلى تهامة، فقتل الأكراد قتلاً ذريعًا بقرية الزّربيّة، وهزمهم إلى زبيد، ودخلها الأتابك، وأمر بغلق مدرسة المعز، وأخرج الفقهاء الشافعية منها، وأخرج وقفها، وبنى مدرسة كبيرة بزبيد تعرف الآن بمدرسة ابن دُحمان وبنى بالدمْلُوة قناطر ومباني، واستقامت أحوال الأتابك إلى سنة ثمان وستمائة، فمات بحصن تعز، والأتابك هو والد بنت جورا.

واستقل الملك الناصر أيوب بالأمر، ووزر له غازي بن جبريل، وطلع إلى صنعاء في جيوش عظيمة، فلما استقر بها سمّه أستاذ داره غازي بن جبريل في المحرم سنة إحدى عشرة وستمائة، واستقل بالملك، وخطب له، وضربت السكة باسمه، فلما صار بالسّحُول وثب عليه مماليك الملك الناصر فقتلوه، ورجع الإمام المنصور إلى صنعاء بعد أن كان المالك الناصر أخرجه منها.

ثم وصل سليمان بن موسى الحَمْزي إلى ذمار بعسكر جرّار، فمر على طريق بني حبيش، فغزا لَحْجًا، فأخذها، وأقام بالرّعارع أيامًا، وعاد فافتقر أهل اليمن إلى سلطان فوجدوا:

سليمان بن شاهنْشاه بن تقي الدين عمر بن شاهَنْشاه بن أيوب[١]

وكان قد تَجَرّد وخرج في زي الصوفية، فوصل إلى اليمن، وأهله على هذه الحال، فملكوه عليهم، وأطلعوه حصن تعز، وذلك في أواخر سنة إحدى عشرة وستمائة، وتزوج بأم الملك الناصر، وكانت أموره ضعيفة.

ذكر مُلْك المَلِك المسعود صلاح الدين أتْسر

هو أقْسيس بن السلطان الملك الكامل بن السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب[٢].

---

(١) قال في البداية والنهاية ٦٩/١٣: ولما مات صاحب اليمن تلاها سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق الأمراء عليه، فأرسل العادل إلى ابنه الكامل أن يرسل إليها ولده أضسيس، فأرسله فتملكها فظلم بها وفتك وغشم، وقتل من الأشراف نحوًا من ثمانمائة، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقًا وأقلهم حياءً ودينًا، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب.

(٢) هو أخسس كما في البداية والنهاية، انظر الحاشية السابقة.

كان من خبر ملكه اليمن أنه لما اتصل خبر اليمن بالسلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، وكان ينوب عن والده السلطان الملك العادل بالديار المصرية، جهز ابنه الملك المسعود المذكور إلى اليمن في سنة إحدى عشرة وستمائة، فرحل من بركة الجُبِّ ظاهر القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان، ومعه ألف فارس، ومن الجاندارية والرماة خمسمائة، فتوجه إلى مكة شرّفها الله تعالى، وحجّ، ثم توجه إلى اليمن، فكان دخوله إلى زبيد في مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة وستمائة، فملكها من غير قتال، وندب قطعةً من العسكر لحصار تعز، وكان سليمان قد تحصّن بها، ففتح الحصن في ثالث صفر من السنة، وقبض على سليمان واعتقله، ثم جهزه إلى الديار المصرية هو وزوجته، وتزوج الملك المسعود بنت جوزا وشغف بها، وكانت صنعاء في يد الإمام المنصور، فخرج منها في شهر ربيع، ودخلها الأتابك فُلَيت بطائفة من العسكر المسعودي في مستهل جمادى الأولى، ونزل الإمام بموضع يسمى الليطة، وقامت الفتنة بينهما، وكانت بينهم وبين عز الدين محمد - ولد الإمام - وقائع كثيرة.

ثم مات الإمام بكوكبان في المحرم سنة أربع عشرة وستمائة، فدفن ثم نقل إلى مشهده بظفار، وتوفي الأتابك فُلَيت بعده بصنعاء في شهر ربيع الأول من السنة.

ثم وقع الصلح بين الملك مسعود وبين عز الدين بن الإمام على تسليم كوكبان، فسلمه، ولحق عز الدين ببلاده، وتسلم الملك مسعود حصن بِراش صنعاء في جمادى الآخرة، وعاد إلى اليمن في شهر رجب، وعاد إلى صنعاء في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة، وعاد إلى اليمن في شهر ربيع الآخر، ثم عاد إلى صنعاء مرة ثالثة في شهر رمضان من السنة، وعاد عنها، ورجع إليها مرة رابعة في شهر رجب سنة سبع عشرة، فحط على حصن بُكُر، وهو بيد عماد الدين يحيى بن حمزة، وبه من أولاد الإمام وأمهات أولاده طائفة، فأقام عليه تسعة أشهر، وأنفق أموالاً جليلة، فجمع عز الدين جموعًا كثيرة، وقصد تهامة، فخالف عليه علم الدين سليمان بن موسى الحمزوي، ووصل إلى محطة بُكُر، فتلقاه الملك المسعود وأكرمه، وأعطاه العطايا الجليلة، وجهز معه جيشًا لحرب عز الدين، فكانت بينهما حروب عظيمة، وتسلم الملك المسعود حصن بُكُر في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة وستمائة، وسار إلى مكة لقتال الشريف حسن بن قتادة، فدخلها بالسيف في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة، وعاد إلى اليمن، ثم فارق تعز في شهر رمضان سنة عشرين وستمائة، وتوجه إلى الديار المصرية لخدمة والده السلطان الملك الكامل، واستناب باليمن الأمير

نور الدين عمر بن علي بن رسول، وهو أتابك عسكره، ووصل إلى الديار المصرية في سنة إحدى وعشرين وستمائة كما ذكرنا، ولما فارق اليمن أقام مُرغم الصوفي فتنةً في الحَقْل وبلاد زبيد، فسار إليه عسكر من جهة الأمير نور الدين النائب، عليه راشد بن مظفر بن الهَرِش، فهزمهم مُرغم، وقتل راشد، وذلك في سنة اثنتين وعشرين، وكانت وقعة عُصْر بين الأمير بدر الدين حسن بن علي بن رسول، وهو مُقْطَع صنعاء وأعمالها، وبين عز الدين بن الإمام بعد العصر في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وعشرين.

ثم عاد الملك المسعود من الديار المصرية في سنة أربع وعشرين وستمائة، وقبض على بدر الدين حسن بن علي بن رسول وإخوته في سنة ست وعشرين، وسَيَّرهم مُقَيَّدين إلى مصر، ثم توجه إلى الديار المصرية في سنة ست وعشرين، واستناب نور الدين عمر بن علي بن رسول، فمات الملك بمكة شرّفها الله تعالى في ثالِث عشر جمادى الأولى من السنة، كما ذكرنا في أخبار والده الملك الكامل. ثم كانت الدولة الرسولية.

ذكر أخبار الدولة الرسولية ببلاد اليمن

أول من ملك منهم الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول بن هارون بن أبي الفتح بن نوحي من ولد جَبَلة بن الأيهم كما زعموا، وذلك أنه كان ينوب عن الملك المسعود، كما ذكرنا، فلما مات بمكة استولى على زبيد والأعمال التِّهامية في سنة ست وعشرين وستمائة، وتلقب بالملك المنصور، وتزوج زوجة الملك المسعود، وهي بنت جوزا، وأقام بزبيد حتى قرر قواعدها، وسار منها إلى حصن تَعِزّ وتسلم التَّعْكُر في سنة سبع وعشرين، ثم استولى في السنة على الأعمال الصنعانية. فأقطعها ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد بن بدر الدين، وتسلّم حصني بيت عِز وحَبّ في سنة ثمان وعشرين وستمائة.

وفيها طلع إلى صنعاء، وحصل الصلح بينه وبين الأمير شمس الدين بن الإمام، وعمه عماد الدين يحيى بن حمزة، وعقدوا صلحًا عامًّا بينهم، وطلع المنصور صنعاء مرة أخرى في سنة تسع وعشرين، وتسلم حصني بُكُر وكوكبان، وحصن بِراش، واستولى على بلد علوان بن عبد الله بن سعيد الجُحْدَري وحصونه في سنة ثلاثين، وتسلم حصون حَجَّة والمخلافة، ومخلافيهما في سنة أربع وثلاثين، وهي من حصون الإمام، ثم أعادهما عليه، وتم الصلح بينهما، ثم طلع المنصور مرة ثالثة إلى صنعاء

في سنة سبع وثلاثين، وتسلم حصن الكميم، وأتاه وهو بصنعاء خبر مقتل نجم الدين بن أبي زكرى بحضرموت، وتسلم جبل حُفاش، وهو من معاقل اليمن المشهورة في سنة إحدى وأربعين، واستولى على جبال العوادر وحصونهم في سنة خمس وأربعين، وكانت بينه وبين الإمام أحمد بن الحسين القاسمي الحسني في سنة ست وأربعين حروب وعاد إلى صنعاء في شهر رمضان سنة ست وأربعين، ورجع منها في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين، فلما استقر بمستقر ملكه، ونزل قصر الجَنَد، وَثَبَتْ عليه جماعة من مماليكه فقتلوه وذلك في سنة سبع وأربعين وستمائة باتفاق من أسد الدين محمد، وفخر الدين أبي بكر ولدي أخيه بدر الدين حسن، وكان سبب ذلك أن أسد الدين استشعر من عمه أنه يقصد أخذ صنعاء منه، ويقطعها لابنه الملك المظفر يوسف، فكره ذلك، وباطن مماليك عمه ووعدهم، وحسّن لهم قتله، فقتلوه، وكان ملكًا حازمًا كريمًا سريع النهضة حسن السياسة.

ومن جملة سياسته ودهائه أنه لما ملك اليمن، جَهّز الملكُ الكامل إليه أسد الدين جفريل وصحبته ألفي فارس، فلما اتصل به ذلك كتب أجوبة عن كتب الأمراء الذين كانوا مع الأسد جفريل، وتَحيَّل في وصولها إلى الأسد جفريل، فلما ظفر بها وقرأها ظن أنها حقيقة، وأن العسكر قد فسدت نياتهم، فرجع بالعسكر قبل وصوله إلى مكة، والتحق بالمنصور من العسكر الكاملي من أمراء الطبلخاناه ابن برطاس وفيروز.

وملك بعد المنصور ولده الملك:

المُظَفَّر أبو المنصور شمس الدين يوسف

وهو الثاني من ملوكهم، وذلك أنه لما قُتل والده كان الملك المظفر بإقطاعه بالمَهْجَم، وكانت المماليك المنصورية لما قتلوا الملك المنصور بالجَنَد أقاموا الأمير فخر الدين أبا بكر بن بدر الدين حسن بن علي، ولقبوه بالملك المعظم، وساروا به نحو تهامة، وكانت الشمسية ابنة الملك المنصور بزبيد وزمام دارها الطواشي تاج الدين بدر الصغير في السجن، فحين بلغها قتل والدها أخرجت الخادم، واستولت على المدينة، وحفظتها، فجاء فخر الدين والمماليك، فوجد المدينة قد حفظت، فنزل على باب المجرى.

أما الملك المظفر فإنه لما بلغه قتل والده سار من المَهْجم بمن معه، وكان كلما مر بقوم من العرب استصحبهم معه، فارسهم وراجلهم، حتى نزل بالأقواز، فراسل مماليك والده ووعدهم، وكان من جملة رسالته لهم: «لا تجمعوا علينا بين قتل أبينا

وخروج المُلك منا» فأجابوه، ودخلوا على فخر المعظم وهو في خيمته، فكتفوه بطنب من أطناب الخيمة، وساروا بأجمعهم إلى ابن مولاهم الملك المظفر يوسف، فقبض على فخر الدين، ودخل زبيد في موكب عظيم، واستولى عليها وعلى الأعمال التهامية، ثم سار في سنة ثمان وأربعين إلى عَدَن فاستولى عليها وعلى لَحْج وأَبْيَنَ في صفر من السنة، وطلع الجبال، فاستولى على بلد المَعافر وحصونها في الشهر أيضًا، وحَطّ على تعز، وبه الخدام والأمير علم الدين سنجر الشعبي في ربيع الأول، وتَسَلّمه في جمادى الأولى، وتَسلّم حصن حَبّ، وطلع صنعاء في ذي الحجة آخر السنة.

وكان الأمير شمس الدين بن الإمام اتفق هو والإمام أحمد بن الحسين وقصدا أسد الدين بصنعاء فأخرجاه منها إلى حصن براش، وقابلته عساكر الأشراف بالمذْرَج، فكانت هناك وقائع مشهورة، فلما قرب السلطان من صنعاء، خرج منها الإمام إلى سناع، وترك الحسن بن وهاس الحمزي رتبه في صفوة فقصده الأمير أسد الدين بعساكر المظفر فأسره وطائفة من أصحابه، وعاد الملك المظفر إلى اليمن فاستولى على حصن التَّعْكُر سنة تسع وأربعين وستمائة ووصل الأمير بدر الدين حسن بن علي بن رسول من الديار المصرية في سلخ المحرم سنة تسع، فلقيه إلى حيس، وقبض عليه، وحمله إلى حصن تعز، فأودعه دار الأدب، وبها ولده فخر الدين.

ثم اتفق الأمير أسد الدين هو والإمام أحمد بن الحسين في سنة خمسين، ودخل أسد الدين في طاعته، وباع عليه حصن بَراش صنعاء بمائتي ألف درهم، وسيّره بعساكره وعساكر من قبله عليهم الشريف هبة الله بن الفضل العَلَوي إلى ذمار، واستولى الطواشي المُظَفَّري على حصن الدُّمْلُوة وهو بيد بنت جوزا، وكانت فيه هي وولداها الفائز والمفضَّل، وخدامها، ومعها أربعمائة فارس، وكان الملك المظفر قد هادنها، ورهن ولده الأشرف عندها، ومعه مولاه الخادم ياقوت، وكان خادمًا حازمًا، فغافل أهل الحصن، ثم أمر من قال لها: «إن البقرة الفلانية ولدت عجلاً برأسين بالجوة»، فنزلت لتنظر إلى ذلك، فتسلم الحصن في تاسع عشر ذي القعدة سنة خمسين، وأوقد النار بأعلاه، وكانت هذه إشارة بينه وبين مولاه الملك المظفر، فركب المظفر من فوره وطَلع إلى الحصن، وسيّر الطواشي تاج الدين بدر إلى ذمار، ففرّ عنها أسد الدين وهبة بن الفضل، ثم عاد أسد الدين إلى طاعة السلطان، فأكرمه السلطان، وأمدّه بالعساكر، فعاد إلى صنعاء، فخرج منها الإمام، وطلع الملك المظفر إلى صنعاء، ثم عاد في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وستمائة، واختلف الأمير شمس الدين الإمام وأصحابه، فاستنصروا بالمظفر، وأمر أسد الدين بمساعدتهم،

فخرج إليهم إلى البيون، وتسلم المظفر حصن براقش والزاهر، وسار شمس الدين وأسد الدين إلى صعدة إلى الإمام، فخرج منها وترك بها السيد الحسن بن وهاش، فدخلا عليه قهرًا بالسيف فأسراه وعاد أسد الدين إلى صنعاء وشمس الدين إلى الظاهر، ثم اجتمعا وقصدا الإمام بالظرف من بلد ابن شاور، فالتقوا بِحِلَمْلِم فانكسر الإمام، وقتل من عسكره طائفة، وأسر شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة، وكان بعسكره مع الإمام، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين.

وجهز المُظَفَّرُ مُبارزَ الدين بن برطاس إلى مكة في شوال من السنة، فجرت الوقعة المشهورة بينه وبين الشريف ابن أبي نمي، وإدريس بن قتادة، فكانت الدائرة عليه، فانهزم، وقتل بعض عسكره، وأخذ ما كان معه.

قال: «ولما ضعف الأمير شمس الدين بن الإمام عن مناوأة الإمام أحمد بن الحسين قصد الملك المظفر بزبيد، فأكرمه المظفر، وأعطاه أموالاً جزيلة، وأقطعه مدينة القَحْمَة، وذلك في شوال سنة اثنتين وخمسين، فعاد وسكن بصنعاء.

ثم اختلف الزيدية على الإمام، وطعنوا عليه في شيء من سيرته، وكان بينهم اختلاف وحروب، قتل فيها الإمام أحمد بن الحسين، ووقع الخلاف بين الملك المظفر وبين عمه أسد الدين، فأخرجه من صنعاء، فتوجه إلى ظَفَار.

ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين طلع شمس الدين علي بن يحيى، فحطّ على الكُمَيم بعسكره المظفر، فتسلم المظفر حصن أشْيَح في ذي الحجة سنة ست وخمسين، وتسلم الكُمَيْم وهَدَاد في سنة سبع، وطلع نحو رُدَاع، فأخذ بَراش العرش بالسيف، وأسر منه ولد أسد الدين في جماعة كثيرة، وقصد الملك المظفر صنعاء ودخلها في المحرم سنة ثمان وخمسين، وقد خرج منها أسد الدين، فأقام المظفر بصنعاء أيامًا، ورتب بها جيشًا، وعاد إلى اليمن، فجمع أسد الدين جيشًا، وكانت له حروب مع عسكر صنعاء، فجهز الملك المظفر الأمير علم الدين سَنْجر الشعبي إلى صنعاء، فارتحل أسد الدين، ولحق ببلاد الأشراف، ولم تقم له بعد ذلك راية، ثم حصل له ضرر شديد، حتى باع ثيابه، فاضطر إلى مكاتبة المظفر وكتب إليه:

«فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ ... وإلا فأدركني ولما أُمَزَّق»[(١)]

---

(١) البيت من الطويل، وهو للممزّق العبدي (شأس بن نهار) في الأصمعيات ص١٦٦، ولسان العرب (مزق) (أكل).

ثم سار إلى زبيد في شوال سنة ثمان وخمسين، فقبض عليه وعلى شمس الدين بن علي بن يحيى وأرسلهما إلى تعز، واجتمع أسد الدين بها بابنه وأخيه في حبس المظفر، وكان أسد الدين في حبسه إلى أن مات في ثالث عشر ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة.

وفي سنة تسع وخمسين في رجب تسلّم الملك المظفر حصن براش صنعاء من الشريف أحمد بن محمد وعوضه عنه بالمَصْنَعة وعِزَّان ببلاد حمير، وبمال أعطاه إياه، ثم استعادهما في سنة أربع وستين، وعَوَّضه حصن اللحام ومال.

وفي شوال سنة تسع وخمسين طلع الأمير علم الدين سَنْجَر الشَّعبي إلى صنعاء مُقْطَعًا لهما، وفيها في شوال أيضًا توجه الملك المظفر لقصد الحج، فحج، وعاد في صفر سنة ستين.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة تسلم المظفر حصن الجاهلي وحَجَّه وسَراة من الشريف أحمد بن قاسم القاسمي بمال.

وفي سنة اثنين وستين تسلم حصن مُدَع من بني وهيب، وعوضهم حصن بيت أنعم ودراهم اشترطوها، وفيها دخلت عساكره صعدة.

وفي سنة ثلاث وستين قبض على محمد بن الوشّاح الشهابي، وقبض على حصون بيت بُرام وصوايب، وفيها في شعبان تسلم حصن ذي مَرْمر وبعده الفص الكبير، وفي جمادى الآخرة سنة أربع وستين تسلم الشعبي حصن ونعان وهو للأمير شجاع الدين يحيى بن الحسن.

وفيها تسلم المظفر حصن الفَصّ الصغير، وفيها تسلم حصن بيت ردم وحصن اللحام بالابتياع من الأشراف أولاد سليمان بن موسى.

وفيها توجه بَكْتُمر الغلاب بعسكر المظفر لعمارة الزاهر في الجوف فقصده الأشراف الحمزيون، فقتلوه في بعض عسكره، وانحاز من سلم إلى براش. وفيها تسلم الملك المظفر حصن مَبْيَن بحَجَّة وتسلم المُوقَّر وحصونه والمخلافة من الشريف أحمد بن قاسم القاسمي، وأعطاه مالاً جزيلاً.

وفي المحرم سنة ست وستين تسلم حصن العرايس وبلادها من عُلوان الجُحْدُري.

وفي سنة سبع وستين تسلم حصن براش صعدة من عز الدين محمد بن شمس الدين، وكان في سجنه، ففدى نفسه به.

وفيها كان بين جيوش المُظَفّر وبين الأشراف اختلاف وحروب استمرت إلى سنة اثنتين وسبعين، ثم صالحهم واستقر كل منهم ببلده.

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة كان باليمن قحط شديد، ومات خلق كثير، وأكل من عاش الميتة.

وفي سنة أربع وسبعين توجه الأمير علم سنجر الشعبي إلى مخلاف ذمار لقبض الحقوق، وترك الأسدية بصنعاء مع ابن الغلاب، ومعه منهم رجل، فوقع بينه وبين مملوكه المعروف بالداوي خصومة على شراب، فقتله الداوي، فلما بلغ ذلك الأسدية استولوا على صنعاء، وقبضوا ما وجدوه للشعبي، وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر، وكاتبوا الأشراف بالوصول إليهم، فوصل إليهم الشريف علي بن عبد الله يوم السبت التاسع والعشرين بسبعة آلاف رجل، فسكن القصر، وجاء الإمام والأمير صارم الدين داود، وعز الدين، وسار الأشراف في خامس جمادى الأولى، فأقاموا بصنعاء إلى نصف الشهر، وخرجوا متوجهين نحو ذمار لقصد الشعبي، وظنوا أن الملك المظفر لا يبادر بالحضور، فلما وصلوا جَهْران أتاهم الخبر بطلوعه، فهمُّوا بالرجوع واستقبحوه، فانحازوا إلى أَفَق، وسار إليهم المظفر، والتقوا في يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى، فانهزم الأشراف بعد قتال يسير وكان الإمام منحازًا في الحصن، فقبضت عليه العساكر، وأُحْضِر إلى المظفر، فأكرمه وآنسه وأركبه بغلة، وكان يسايره حتى دخل حصن تعز، ودعا الإمام المطهر إلى نفسه.

ثم كانت بين الأشراف وبين الأمير علم الدين الشعبي حروب، وانتصر عليهم فيها، فصالحوه على تسليم الحصون الحَضُورية، وتسليم رَذْمان، وعلى خروج من فيها من الأشراف.

ذكر استيلاء المظفر على ظَفار وحَضْرَمَوْت ومدينة شِبام

كان سبب ذلك أن شواني[1] سالم بن إدريس الحَبُوظِي أغارت على ثغر عَدَن، فعظم ذلك على المظفر، ونزل إلى ثغر عدن، وجهز الجيوش في البر والبحر، وسارت ثلاث قطع: قطعة في البحر، وهم معظم الرَّجَّالة ومعهم الأزواد، وقطعة فيها أربعمائة فارس مع شمس الدين أَزْدمَرَ المظفري أستاذ الدار وطريقهم على الساحل

---

(١) الشواني: جمع شينية وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (القاموس المحيط ٤/ ٢٤٣، مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

معارضين لسفنهم، والقطعة الثالثة فيها الشيخان عبد الله بن عمرو الجند، وشهوان بن منصور العبيدي وهم مائتا فارس من فرسان العرب وطريقهم حضرموت، فالتقت العساكر الثلاثة قريبًا من ظَفار، وقصدوا سالمًا، فلما قاربوا المدينة خرج إليهم سالم، وصَفَّ لهم، والتقوا، فأجلَت المعركة عن قتله في جماعة كثيرة من عسكره، وذلك في يوم السبت السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، ودخلت أعلام المظفر المدينة في الثامن والعشرين، ودخل شمس الدين أزدمر والعساكر في سلخ الشهر، وخطب للمظفر بها، ورتب بها أزدمر سُنقر البرنجلي، والخادم ألتوزيري، وعاد إلى اليمن، وتسلم حضرموتُ ومدينة شبام، واستعاد المظفر حصن كَوْكَبان من الحوالِيِّين بحصن رَدْمان، ومالٍ يسير، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة في الثامن عشر من شهر ربيع الآخر سقط القصر بصنعاء على مُقْطَعها الأمير علم الدين سَنْجَر الشعبي، فمات ومات معه تحت الهدم الأمير علي بن حاتم وصهره محمد بن الجحافي وجماعة من مماليكه وكتّابه، وأقطع الملك المظفر صنعاء لولده الملك الواثق نور الدين إبراهيم، فطلع إليها، ودخلها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، وتسلم حصن براش صنعاء، وقبض على الأمير سيف الدين بَلَبان الدوادار العلمي، واستمرت صنعاء في إقطاع الواثق إلى أن أخرجها الملك المظفر عنه لولده الملك الأشرف في سنة ست وثمانين وستمائة، ثم أقطعها هي وأعمالها لولده الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود[1] في سنة سبع وثمانين فدخلها في رابع عشر ذي القعدة.

وفي صفر سنة تسع وثمانين توفي الأمير صارم الدين داود بن الإمام، وكانت له فيما تقدم حروب وخلاف وطاعة للملك المظفر يطول بذكرها الشرح، وقام مقامه بعده ابن أخيه الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، وملك حصون ظفار، فقبض تَلَمُّص صَعْدَة.

وكان سبب استيلائه على ذلك أن الملك المُظَفّر نزل إلى زبيد ليَخْتِن أولاد أولاده، ونزل بسبب ذلك الملك المؤيد، والشريف علي بن عبد الله، والأمير

(١) هزبر الدين داود: هو داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني، ولي اليمن بعد وفاة أخيه الملك الأشرف سنة ٦٩٦هـ، وتوفي سنة ٧٢١هـ (انظر ترجمته في شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨).

نجم الدين موسى بن أحمد بن الإمام، فخلت تلك النواحي منهم، فاستولى على ذلك، وكان بسبب ذلك حرب بين المؤيد والأشراف، انتصر فيها المؤيد، واستولى على تَنْعُم في سنة تسعين وستمائة، وأَخْرَبها وعاد إلى صنعاء وأقطع الملك المُظَفّر ولده الملك الواثق ظفار الحَبُوظي، فركب البحر من عدن في سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

وفي السنة المذكورة خالف الأشراف، واجتمعت كلمتهم على الخلاف، وكان بينهم وبين المؤيد بصنعاء حرب إلى سنة أربع وتسعين، فنزل المؤيد من صنعاء إلى اليمن، وطلع الملك الأشرف إلى صنعاء للصلح، ودخل إليه الشريف علي بن عبد الله، وانعقد الصلح العام، وذلك أول المحرم من السنة.

ثم نزل الملك الأشرف من صنعاء إلى اليمن، فقلده والده الملك المُظَفّر المملكة بإقليم اليمن جميعه، وأسكنه حصن تعز، وأقام هو بثُعَبات، وتوجه الملك المؤيد إلى جهة المشرق ـ الشِّحر وحَضْرَمَوت ـ وفي نفسه ما فيها من تخصيص الأشرف بالأمر، وسارت معه عمته الشمسية.

ذكر وفاة الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ومُلْك ولده الأشرف

كانت وفاته آخر نهار الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان سنة أربع وتسعين وستمائة وهو ابن أربع وسبعين سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات تقريبًا، ومدة ملكه ستة وأربعون سنة وعشرة أشهر وأحد عشر يومًا، وكان ملكًا جوادًا كريمًا كثير البذل للأموال في الحروب خاصة، حسن السياسة، وكان له من الأولاد خمسة، هم: الملك الأشرف مُمَهِّد الدين عمر، والملك المُؤَيَّد هِزَبْرُ الدين داود، والملك الواثق نور الدين إبراهيم، والملك المسعود تاج الدين حسن، والملك المنصور زَنْدُ الدين أيوب، ولما مات ملك بعده ولده.

الملك الأشرف مُمَهِّد الدين عمر

ولما اتصل خبر ملكه بأخيه الملك المُؤَيَّد أقبل من الشِّحْر لطلب الملك، ولما قرب من اليمن وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره التقدم إلى جهة اليمن، وعرض عليه حصن السَّمَدان، وكان بيد المنصور، ولم يقع بينه وبين أخيه الأشرف اتفاق، فمال إلى المؤيد، ثم وصله كتاب الوزير موفق الدين علي بن محمد

يخبره أن الملك الأشرف أرسل إليه نفرين من الفِداويّة، وأوصاه أن يحترز على نفسه، فعند ذلك جهز حريمه وأثقاله إلى السَّمَدان، وتوجه إلى عدن، فاستولى عليها في مدة ثلاثة عشر يومًا، وكان النائب بثغر عَدَن الأمير سيف الدين بن برطاس.

ولما اتصل الخبر بالملك الأشرف جهز ولده الملك الناصر جلال الدين في ثلاثمائة فارس، وألحقه بجيوش صنعاء منهم الأمير الشريف جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي، وولدا أزدمر: نجم الدين وبدر الدين، ومع المؤيد ولداه المُظَفّر والظافر، وعسكره الذي وصل معه من الشِّحْر، وجماعة من الجحافل مقدمهم عمر بن سهل، فالتقوا فيما بين تعز وعدن بمكان يسمى الدُّعَيْس. وذلك في آخر المحرم سنة خمس وتسعين، فحمل المؤيد على جيش الأشرف، فضعضعه، ثم خذله الجحافل، وتفرقوا عنه، وبقي في نفر يسير، فتقدم إليه الملك الناصر جلال الدين بن الملك الأشرف، وألان له القول، وأشار عليه في الدخول في الطاعة، وحذره عاقبة المخالفة، فمال إلى ذلك، ورجع إلى الطاعة، فأراد الناصر أن يتوجه به إلى والده على حالته، فامتنع الشريف جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي وقال: أمر هذا الجيش إليّ وقيد المؤيد، وحمله إلى الملك الأشرف، ووصل إليه وهو بالجُوَّه، وهو تحت حصن الدُّمْلُوَة، فنقله إلى الحصن، واعتقله ببعض القاعات، فاستمر في الاعتقال إلى أن مات الملك الأشرف، وكانت وفاته لسبع خلون من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة والله أعلم.

ذكر مُلْك الملك المُؤَيّد هِزَبْرُ الدين داود

وهو ابن الملك المُظَفّر شمسِ الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عُمَر بن علي بن رسول.

ملك في ليلة وفاة أخيه الملك الأشرف لسبع خلون من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة، وذلك أنه لما مات الأشرف كان ولداه: الملك الناصر بالقَحْمَة، والملك العادل صلاح الدين بصَنْعاء، فنهضت عمته الشمسية في أمره، واستمالت الخُدّام ومَن بالحصن، فامتثلوا أمرها، وحضر الخدام إلى الملك فظن أنهم يقصدون قتله، فأخبروه بوفاة أخيه الملك الأشرف، وأخرجوه من الدار التي هو معتقل بها إلى دار السلطنة، فلما شاهد أخاه ميتًا سكن روعه عند ذلك، وأصبح الحراس، فأعلنوا بالترحُّم على الملك الأشرف، والدعاء والصياح للملك المُؤَيّد، وكانت حاشية الملك المؤيد قد تفرّقوا، فأعلن المنادي من رأس الحصن بجمعهم من تلك الليلة، فاجتمعوا

من خادم ومملوك، وغلام، وحُمِلوا في المَكاتِل والحبال، فلما وثق بمن اجتمع له من حاشيته وغلمانه أمر بفتح أبواب الحصن، فكان أول من صعد إلى الحصن، الصاحب حسام الدين حسان بن محمد العِمْراني، وزير أخيه الملك الأشرف، فاجتمع بالمؤيد، وحلف له الأيمان المؤكدة، واستحلف له الأمراء والجند وأعيان الدولة، وأمر بتجهيز الملك الأشرف وأُخْرِج من الحصن في تابوته، وأمامه ولدا المؤيد المظفر والظافر، وأعيان الدولة، ودفن بمدرسته التي أنشأها بمُغْرِبة تَعِز، وأنشأ تاج الدين بن الموصلي في ذلك اليوم الكتب عن المؤيَّد إلى بلاد التّهايم، وبلاد الجبال بأجمعها، وإلى جهة صنعاء والأشراف يُعْلِمُهم أمر سلطنة المؤيد، فدخل الناس في الطاعة، وأتته كتب الأشراف ورسلها بالتهنئة بالملك، وعقد الصلح، وكانوا عقيب موت الأشرف استولوا على عدة حصون وعلى صَعْدَة فوقع الصلح، وأعيدت الحصون.

وكان حصن الدُّمْلُوَة بيد الطواشي «فاخر الأشرفي» قد ولاه إياه الملك الأشرف، ونقل إليه ذخائره التي كانت بالتَّعْكُر، وأربعًا من بناته، فراسله الملك المؤيد مرارًا، فامتنع فاخر من تسليم الحصن، فجهز إليه المؤيد الأمير شمس الدين الطُّنْبا «أمير جانْدار» بالعسكر، فحاصروه، فلم يتمكنوا منه، وامتنع الخادم من تسليمه إلا أن تصل إليه كتب أولاد مولاه الناصر والعادل، فكتب المؤيد إليهما في ذلك، فكتبا إلى الخادم وأمراه بالتسليم، فامتنع من قبول الكتب، وقال: لا أقبلها حتى يأتيني ثِقَتَيْهما، فثقة الناصر خادمه مِسْك، وثقة العادل أنيس، فأرسل الملكان خادميهما إليه بالرسالة، فاشترط فاخر أن ينزل بجميع المال الذي طلع به من التَّعْكُر، فأجابه المؤيد إلى ذلك، فنزل ببنات مولاه الأربع، وبما كان عنده، واقتسمه الورثة الأشرفية، ولم يكن فيه نقد غير الأقمشة النفيسة، وتسلم نواب الملك المؤيد حصن الدملوة في السنة المذكورة، وزوج المؤيد ولديه الظافر والمظفر باثنتين من بنات عمهما الأشرف، واستمر الوزير حسام الدين بالوزارة، وفي خاطر المؤيد منه ومن أخوته ما فيه.

ثم استوزر الصاحب مُوَفَّق الدين علي بن محمد في جمادى الأولى سنة ست وتسعين وستمائة، وتمكن منه تمكنًا عظيمًا، وكان بين الملك المؤيد وبين الفقيه رضي الدين محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر اليحيوي صحبة متأكدة، ومودة قديمة، وكان من الصلحاء العلماء الفضلاء، فكره وزارة أخيه، فلم يجتمع به منذ وَزَر.

ثم قبض الملك المؤيد على جماعة من الأمراء، وهم: نجم الدين وبدر الدين ولدا أزدَمُر، وابن الهكاري، وقبض بعدهما على الطُّنْبا أمير جاندر، ونقلهم إلى حصن الدملوة، واعتقلهم بمكان يعرف بدار الأدب.

ثم قبض على الوزراء العِمْرانيين: حسام الدين حسان، وأخوته، لأمور بلغته عنهم، وأحضرهم قبل القبض عليهم، وقال لهم: «أنتم قضاة القضاة وبأيديكم أموال الأيتام ودفاترها وحساب الأوقاف». فقالوا: «لا نعلم شيئًا منها»، فراجعهم مرارًا، فأصرُّوا على الإنكار، فأمر بهجم منازلهم، فوجد بها عدة صناديق فارغة، فسئلوا عما كان فيها، فقالوا: أثاث، ولم يقرُّوا بشيء، وأمر بهم إلى عدن، وبُنِيَ لهم سجن مفرد على باب دار الولاية فحُبِسوا به، وأمر بقبض أملاكهم لبيت المال. فقبضت، وكانت كثيرة.

ذكر وصول أولاد الملك الأشرف إلى عمِّهما الملك المؤيد، ونزولِهما عما بأيديهما

قال: ووصل الملك الناصر جلال الدين محمد، وكان مُقْطَعًا بالقحمة، ثم وصل إليه أخوه الملك العادل صلاح الدين، وكان بصنعاء فأكرمهما، وأحسن إليهما، وعرض عليهما أن يستمرا على إقطاعيهما، فاستعفيا من الخدمة، وقالا: «لا نحب الخدمة بعد أبينا، ولكنا نكون في ظلِّ أسياف السلطان» وحَلِفا له على المناصحة، وعدم المنازعة، وحلف لهما على ما أرادا، وتوثقوا بالعهود بواسطة الفقيه رضي الدين، فعند ذلك عقد السلطان الألوية لولديه المظفر والظافر، وأقطع المظفر ضرغام الدين صنعاء، والظافر عيسى الفخرية والحازّتَين، وتوجه المظَفّر إلى صنعاء في شهر رجب سنة ست وتسعين، واستعاد حصن ود من بني الحارث في شعبان بالمنجنيق.

وتوجه الملك المؤيد إلى زبيد في جمادى الآخرة من السنة، ففرح به أهلها، ثم رجع إلى تَعز في شعبان، وفي آخر السنة أخذ الحصون الحَجِّيّة والمِخْلافية من الأمير الصارم إبراهيم بن يوسف بن منصور وكانت في يده من سنة إحدى وتسعين وستمائة، واشترط الصارم شروطًا منها: إقطاع مَوْزَع ونصف خَيْس والذمة الأكيدة والعفو عما جناه.

ذكر خلاف الملك المسعود تاج الدين الحسن ابن الملك المظفر على أخيه الملك المُؤيَّد

قال: «ولما ولي الملك المؤيد كان أخوه الملك المسعود مقطعًا للأعمال السُّرْدَدية من جهة أخيه الملك الأشرف، فتألم أن أفضت السلطنة إلى المؤيد، فلما

استقر الصلح بين السلطان والأمير الصارم إبراهيم بن يوسف، وسأل الأمان على تسليم الحصون الحِجِّية على ما تقدم، سأل أن يكون تسليمها إلى الملك المنصور زَنْد الدين أيوب أخي المؤيد، والقاضي الوزير موفق الدين، وأن يحضر معهما إلى الملك المؤيد، فأمر الملك المؤيد أخاه ووزيره بذلك، فقيل للملك المسعود: إن ذلك أحبولة ومكيدة للقبض عليه، وأخذ المَهْجم منه، وكان طريقهما عليه، فاستوحش من ذلك، وكتب إلى أخيه المؤيد يستعطفه ويترَقَّق له، ويقول: «إنه خائف، ويسأله أن يكون هو الذي يقبض الحصون الحِجِّية، وأنه لا فرق بينه وبين أخيه المنصور، فأجابه الملك المؤيد: أن إبراهيم لم يطلب إلا صِنْونا الملك المنصور، والوزير، ولو طلبك لفعلنا، فاتركهما يَمُرّان الطريق، ولا يكن لك إليهما سبيل اعتراض، فلم يجب إلى ذلك، فكتب إليه ثانيًا ذِمَّة أنه باق على ما بينه وبينه، وأن ليس القصد في تجهيز العسكر إلا أخذ الحصون الحِجِّيّة، وإذا كرهت أن أخاك المنصور لا يصل إلى المَهْجم أمرناه بطريق الحازة، فلا يصل إليك، وكتب إلى المنصور أن يتوجه على طريق الحازَة، ففعل ذلك، ولما صار المنصور بالفخرية حسّن أتباع الملك المسعود له الخروج، فخرج وقصد المحالب، وتم إلى حَرَض، وأقام الفتنة، وأما المنصور والوزير فطلعا إلى جهة حَجَّة، وقبضا الحصون الحجِّية.

وجمع المسعود العربان من كل ناحية، وكان عقيد رأيه والمدبر لجيشه علي بن محمد بن إبراهيم، وكان مقدمًا بحَرَض في الدولة الأشرفية، فلما اتصل خبره بالملك المظفر جهز ولده الملك الظافر عيسى، وكتب إلى المنصور والصاحب علي بن محمد اليحيوي أن يكون مع ولده، وفوّض تدبير الحرب إليهما، فتوجهوا إليه والتقوا فيما بين حَرَض والمحالب، فلم يكن للمسعود بهم طاقة، وتفرق جمعه، وقبض على المسعود وولده أسد الإسلام في المحرم سنة سبع وتسعين وستمائة، فلما أحضرا إلى الملك المؤيد جعلهما في «دار الأدب»، فكانا فيها دون السنة، ثم أطلقهما وأسكنهما حَيْس، وقرر لهما ولغلمانهما جامْكِيَّة.

ذكر مُتَجددات كانت في شهور سنة سبع وتسعين وستمائة

في شهر ربيع الأول منها قُتِل الأمير علم الدين سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى، قتله عبيده بالوادي الحار.

وفيها في جمادى الآخرة توجه الملك المظفر من صنعاء إلى خدمة والده الملك المؤيد متبرئًا من الأعمال الصنعانية، ثم عاد إليها في السنة المذكورة، واستولى على

حصن غِراس، وأخذه بالسيف، ثم انتقل إلى حصن إرياب فاستولى عليه بعد حرب، وطلع إلى جهة صنعاء مقطعًا لها.

وفي جمادى الآخرة وقع مطر شديد عظيم لم ير مثله عم القطر اليماني بكماله، وحصل رعد شديد، وريح باردة، وكان معظم ذلك بتهامة، وأخرجت الريح سفنًا ـ من الأهواب وساحل الشَّرْجَة ـ بما فيها إلى البر، وكسرت بعضها ببعض، وهدمت حصونًا شامخة، واقتلعت أشجارًا كبارًا بأصولها.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر من شهر رمضان من السنة توفي الشريف المطهر بن يحيى بن حمزة بحصنه بذَرْوان.

وفي شعبان تجهز العسكر المؤيدي إلى جهة حجة، وتقدمه الأمير بدر الدين محمد بن عمر بن ميكائيل أستاذ الدار، والفقيه شرف الدين أحمد بن علي بن الجنيد ونزلا على «ابن الصليحي» بمَبْيَن، وعلى عمر بن يوسف بظَفَر، وأخذا منهما الحصنين، ونزلا على الذمة.

وفي السنة المذكورة توجه الملك المؤيد إلى البلاد العليا، وذلك عند امتناع الأشراف من الصلح، ودخل صنعاء لخمس مضين من ذي القعدة، وطلع إلى الظاهر عن طريق حَدَّةَ في رابع عشر ذي الحجة، واستقر فيه بعسكره، ثم سار نحو الميقاع بعساكره، فقاتل عليه وعاد إلى منزلته، وأقام بالعسكر ثمانية عشر يومًا، وفي انتهائها دخلت عساكره صَعْدة مع جمال الدين علي بن بَهْرام، والأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين.

وفي يوم الخميس أول المحرم سنة ثمان وتسعين وستمائة نهض الملك المؤيد من محطته «وهي منزلة العسكر»، طالبًا للظاهر لقطع الأعناب فوقف بها ثمانية أيام، ثم نهض منها إلى جَهْران، فأقام بها ثمانية أيام، وحط بالظاهر الأسفل، وسار نحو جبل ظفار، فتأهب الأشراف للحرب، وأخرب ما حوله من الأعناب ونهض في يوم الاثنين ثالث صفر من محطته بالسُّبَيْع، فبات عند الكَوْلة، ثم سار منها وحط على المِيقاع، وهو إذ ذاك بيد الأمير جمال الدين علي بن عبد الله، ونصب المجانيق على الحصن، وبه الأمير عماد الدين إدريس بن علي، وتوالى الزحف على الحصن، ثم حصل الاتفاق، وحضر الأمير عماد الدين علي إلى خدمة الملك المؤيد، فلما قرب من مُخَيَّمه ركب إليه وتلقاه وانعقد الصلح بينهم، وأخذ لأصحابه الأشراف ذمةً سبعة أشهر، ودخلت الأعلام المؤيدية الميقاع، لإظهار الطاعة، وأنعم عليه المؤيد بالطبلخاناة والأموال والكساء والخلع، وأعاد عليه بلاده التي كانت بيده.

ثم توجه الملك المؤيد في يوم السبت أول شهر ربيع الأول قاصدًا صنعاء، ولما استقر بها وصل إليه الأمراء الأشراف ومشايخ العربان، وفي جملتهم الأمير أحمد بن علي بن موسى لتمام صلح الأشراف، فتم صلح الأشراف على تسليم نعمان واللحام وصعدة، وقسمة بلاد مُدَع كما كانت في زمن الملك المظفر، ثم توجه إلى تعز وصحبته الأمير جمال الدين علي بن عبد الله، والأمير أحمد بن علي، والأمير ابن وهّاس، وأمراء العرب، ثم توجه إلى زبيد في جمادى الآخرة، وصحبته الأشراف والأمراء، وطلع من زبيد في آخر شعبان، فلما كان عيد الفطر ودّعه الأمير جمال الدين على السِّماط، وتوجه إلى البلاد العليا، والذي حصل له من الإنعام من حين خرج من الميقاع إلى أن عاد إلى بلاده ما يزيد على سبعين ألف دينار «الدينار: أربعة دراهم، والدرهم: عشرة قراريط».

وفي شوال من السنة توجه الملك المؤيد إلى عَدَن، فأقام إلى ثاني ذي الحجة وعَيَّدَ عيدَ النحر بفور، وعاد إلى تعز في آخر ذي الحجة سنة ثمان وتسعين.

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة توفي الأمير جمال الدين علي بن عبد الله المُقَدَّم الذكر، وكان من أكابر الأشراف وأعيانهم، ورؤسائهم وصدورهم، وقد ناف عمره على السبعين، ولما مات أجمع أهله على تقديم ولده الأمير عماد الدين إدريس، وكاتب الملك المؤيد في ذلك، فكوتب بأن يصل إلى بابه فطلب ذِمّةً، فكتب إليه، وحضر إلى الملك المؤيد في ذي القعدة، والمؤيد يومئذ بثُعَبات.

فلما كان بعد عيد النحر تقررت الحال على أن يُسَلِّم الحصونَ التي بيده ـ وهما المِيقاع والعظيمة ـ فتسلمهما نواب الملك المؤيد في سنة سبعمائة، وأنعم على الشريف عماد الدين إدريس بعشرة أحمال طبلخاناة، وثمانية عشر ألف درهم، وسَنْجَقًا وخِلَعًا وملابس ومماليك وخيول وبغال، وركب معه الأمراء، وأعطى القَحْمة.

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة حطَّ الملك المظفر على أشْيَحَ، وأخذ حصن إرْياب وغِراس بالحَقْل قَهْرًا، فزينت صنعاء لذلك.

وفي سنة سبعمائة توجه الملك الظافر عيسى بن المؤيد مُقْطَعًا لصنعاء وأعمالها، فدخل صنعاء في العشر الأخر من شهر رمضان.

وفي رابع عشر شهر رجب من السنة أخذ الأمير صارم الدين داود بن علي حصن الجميمة بجبال شَظَب والأمير علي بن أحمد حصن العجرد بشظب بموافقة من فيها.

وفي سنة إحدى وسبعمائة خالف الأشراف السلمانيون، وقتلوا المقدم خُطْلُبا، وكان مقيمًا بالراحة، فأخذوا من خيله أربعين فرسًا، فرسم الملك المؤيد إلى الأمير عماد الدين إدريس بالتوجه إلى الراحة، وأضاف إليه عسكرًا من الحلقة، وأمر الأمير شهاب الدين أحمد بن الخرتبرتي شادّ تهامة، وأمر متولي حَرَض بالمسير، فسار العسكر، بكماله، ودخلوا الراحة، وأحرقت بلاد المفسدين، وتتبعوهم إلى قُرَيْب اللؤلؤة، وسألوا الصلح، وأعادوا الخيل التي أخذوها، وتسلم نائب الملك المؤيد ـ وهو الشريف علي بن سليمان ـ الراحة وبلادها، وعاد العسكر.

وفيها أوقع الأمير سيف الدين طُغْرِيل ـ وهو مُقْطَع لَحَج ـ بالجحافل والعجالم، وقتل منهم ما ينيف على أربعين رجلًا، واتفقت له وقعة أخرى بالدُّعَيْس، فقتل منهم ما ينيف على سبعين.

ذكر ما وقع بين الأشراف من الاختلاف وما وقع بسبب ذلك من الحرب والحصار

وفي سنة إحدى وسبعمائة توجه الملك المؤيد إلى البلاد العليا، فأقام بالجَنَد أيامًا، وبالمَوْسَعة أيامًا، وبصنعاء أيامًا، ثم خرج منها إلى الظاهر، وطلع من نُقَيل عجيب، والموجب لطلوعه ما جرى بين الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى، وبين الشيخ قاسم بن منصور الضَّرَبْوَه ـ صاحب ثُلا ـ من التشاجر على البلاد التي بينهما، فأخرب كل منهما على الآخر بعض بلاده، وكان الشيخ ممن يحالف الملك المؤيد، فاجتمع الأشراف إلى ظفار: منهم الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، فسألهم تاج الدين القيام معه لمحاربة صاحب ثُلا، فذكروا أنه حليف الملك، ولا يمكن حربه إلا بمحاربة السلطان، ورأوا إخراب القُنّة، وبعض ثغر ظفار من المصلحة، وأن يرسلوا القاضي أحمد بن محمد الذماري إلى الملك المؤيد ليتحقق رأيه، فأرسلوه، وعاد كل منهم إلى بلاده.

فأما الأمير موسى بن أحمد فإنه لما وصل إلى صعدة قبض بعض بلاد الأمير سليمان بن القاسم، وكتب إلى الأمير شرف الدين شكر بن علي يستدعيه إلى صعدة، فوصل إليه فأرسله إلى الملك المؤيد، وسيَّر معه ابنه الأمير علم الدين موسى، وقبض منه رهينة، فلما وصل إلى صنعاء ترك الرهينة في حصن ذَهَبان عند الأمير محمد بن أحمد الحاتمي الهمداني، ثم وصل إلى المؤيد وهو على الحركة إلى البلاد العليا، فأكرمه المؤيد، وأنعم عليه، وسار معه إلى الموسعة، ومن هناك تقدم إلى صوب ابنه.

وأما الأمير تاج الدين فإنه تقدم إلى الجهات الغربية، وأوقد نار الحرب في بلاد المُوَقَّر والعارِضة وما يليها من بلاد السلطان، ومال إليه بنو شاور، وجماعة من قبائل العرب ودخل المؤيد صنعاء، وأقام بها أيامًا، ثم سار إلى اليمن، ولقيه الأمير نور الدين موسى بن أحمد، والأمير عبد الله بن وهّاس، وطلع الملك المؤيد القُنّة من طريق جبل صُبَيْح، وتسنّم سعده القُنّة، ونزل فيها بجميع عساكره، وذلك يوم العيد، وأشرف على أخذ ظفار من الجهة التي تلي القاهرة من غربيها، ولم يبق إلا أخذها، وعاد المؤيد إلى القنة، وأقام بها ثمانية أيام، وشرع في عمارتها، وسماها المنصورة، وحصل للعسكر ضرر شديد، لعدم الماء والطعام والعلف، حتى بيعت القربة بعشرة دراهم، والزبدي الدقيق بعشرة دراهم، فعند ذلك أمر السلطان بضرب مخيمه بورور، ورتب في القنة الأمير نجم الدين موسى بن أحمد، ورتب في تعز وهو الحصن المقدم الذي أخربه الأمير سليمان بن قاسم ـ الحسام بن مسعود بن طاهر، وأمر بعمارة الموضعين، ونصب في تعز منجنيقين ترمي إلى ظفار وإلى المدينة فأضرهم المنجنيق غاية الضرر، وعيد الملك المؤيد عيد الأضحى في محطة وَرور.

ثم طلع المؤيد إلى تعز ليشاهد العمارة، ورَمْيَ المنجنيق، فعلم الأمير علم الدين سليمان بن قاسم صاحب ظفار أنه إن دام هذا الأمر أدى إلى خراب بلاده فأعمل الحيلة، وأخرج بني أخيه وجماعة من الأشراف إلى خارج درب ظفار ومعهم وزيره علي بن دحروج، وصاح بأعلى صوته أن الأمير والأشراف قصدهم أن يخدموا السلطان، وسؤالهم أن يشرف عليهم، فأشرف عليهم فخدموا بأجمعهم، وقالوا: نحن غلمان السلطان، وهذه المواضع مواضعه، وأشار ابن دَحْروج أن معه خطابًا يفضي إلى المصلحة، ويسأل أن يرهن به الفقيه شرف الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل الشيخ ابن دَحْروج، واجتمع بالملك المؤيد بحضور القاضي الوزير موفق الدين، واستقر الأمر أن الأمير سليمان بن قاسم يبيع المؤيد حصن تَلَمُّص بخمسين ألف دينار، ويرهن بذلك ولدي أخيه محمدًا وداود، ووزيره علي بن محمد بن دحروج، وأن يخرب الملك المؤيد تعز المعمورة على ظَفار والقُنّة، فأشار من حول الملك المؤيد عليه بذلك وقالوا: السلطان يملك صعدة بغير شريك، والرهائن توثقة لمن صدق، فركن إلى ذلك، وقبض الرهائن، ونزل الفقيه شرف الدين أحمد بن علي من ظفار، وأطلع لهم المال المشروط، وأرسل الملك المؤيد الفقيه شرف الدين أحمد بن علي (الجنيد) بعسكر لقبض تَلَمُّص، وأرسل الشريف سليمان بن قاسم ثقة منه، وتقدموا إلى جهة صعدة.

وتوجه المؤيد من محطة ورور، والرهائن صحبته، وقصد صنعاء في يوم الجمعة نصف ذي الحجة، فانتهى إلى جَرَبان في يوم الأحد سابع عشر الشهر، فزحف العسكر في اليوم الثاني، وقاتلوا قتالاً عظيمًا وبلغ الشفاليت باب الحصن، ونزل للشفاليت الكسوة، فأخرب أهل الحصن الحمولة وعاد الشفاليت فوجدوها خرابًا، وكان قد تجمع إليه خلق كثير من همدان وغيرهم، ونصب الملك المؤيد المنجنيق، وأقام ثمانية أيام على جَرَبان، ثم توجه إلى صنعاء، وتولى الحصار الأمير شمس الدين عباس بن محمد، والأمير عماد الدين إدريس والأمير محمد بن حاتم، ومحمد بن أحمد بن عمرو، ووصل المؤيد إلى صنعاء في المحرم سنة اثنين وسبعمائة.

وأما سليمان بن قاسم صاحب ظَفار، فإنه لما نظر إلى المال عنده والخلع، وقد أخربت القُنّة وتعز، وارتفعت عساكر السلطان عنها، نوى الغدر، وزهد في الرهائن، فكتب إلى المقيم بتَلَمُّص أن يسلم تَلَمُّص إلى الشريف أبي سلطان، ففعل ذلك، وكتب سليمان بن قاسم إلى الملك المؤيد: أنه غلب على تَلَمُّص أبو سلطان، وأنه قد صار في حرزه، وانتقض ما كان تقرر، فأرسل المؤيد شكر بن علي إلى صاحب ظفار يطالبه بإعادة المال، وأخذ الرهائن، فغالط في الجواب، وبادر بعمارة تعز الذي كان أخربه، وأكد بناءه، وعاد الذين توجهوا ليتسلموا تَلَمُّص، وتهدد السلطان صاحب ظفار أنه إذا لم يعد المال أشهر رهائنه، فلم يحتفل بالرهائن، فتقدم المظفر بإشهار ولديه، وولد عمه، ونعاه بالعيب، كعادة العرب في الغادر بعد الوفاء، ولما نظر الشيخ علي بن محمد بن دَخروج أن الشهرة لاحقته لا محالة، بذل للملك المؤيد الخدمة والنصيحة، ووثقه من نفسه، وأرسله صحبة سيف الدين طُغْريل - بعد إقطاعه صنعاء، وذلك في يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعمائة - بالعساكر إلى عمارة المنصورة وهي القُنَّة، وكان عند الأشراف أن العسكر لا يطلع إليها، ولا يعمرها فطلعها العسكر قهرًا، وتسنموا القنة، وعمرت المنصورة، واستمرت العمارة بها، واستمرت المحطة بورور، ولحق الناسَ قحطٌ شديد، بلغ الزيدي في ورور أربعة دنانير وأكثر من ذلك، فخلا كثير من أهل البلاد.

فلما كان في أثناء شهر رجب تداعى الناس إلى الصلح على رد المال المسلم في تلمص، فردوا منه ستة عشر ألف دينار نقدًا، وحريرًا وحليًا بإثني عشر ألف دينار، ورهنوا على ما بقي ولدي الأمير أحمد بن قاسم وحصن المدارة على يد الأمير ابن وهاس إلى عشرة أيام في شوال والقنة للسلطان.

ومالت قبائل المرقان وبنو أسد الصيد، وبنو حسن ومخلاف تلمص وبنو دحروج إلى جنب السلطان، وما كان إليهم من مال وغيره، وأخرجوا حريمهم من ظفار وسكنوا صنعاء، وسلم الأمير تاج الدين الحَدّة وخَرّب شُرَيب، ورهن ولده مع رهينة الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، وانعقد الصلح بين الملك المؤيد وبين أصحاب ظفار وتاج الدين، على أن المؤيد يحارب تلمص، ويعمل فيه ما شاء.

وعاد الملك المؤيد إلى اليمن في الثامن عشر من شعبان سنة اثنتين وسبعمائة ووصل تعز في غرة رمضان منها.

وفيها توفي الملك العادل صلاح الدين أبو بكر ابن الملك الأشرف بن الملك المُظَفّر، ودفن في أول شهر رمضان في ضِراس.

وتوفي الأمير نجم الدين موسى بن شمس الدين بنواحي صعدة.

وفيها أمر الملك المؤيد بإنشاء مدرسة بمَغْربة تعز، ووقفها على طائفة الشافعية، ورتب بها مدرسًا ومعيدًا وعشرة من الطلبة، ومتصدرًا لإقراء القراءات السبعة، ومعلمًا يقرىء جماعة من الأيتام القرآن، وإمامًا يصلي بالناس الخمس، ووقف بها خزانة كتب، ونقل إليها كتبًا كثيرة من كتب العلوم والتفاسير.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة في العشرين من المحرم توفي الملك الظافر قطب الدين عيسى بن الملك المؤيد بحصن تعز، ودفن بمدرسة أبيه، ورتب والده قراء يقرأون القرآن على قبره، وتألم والده عليه، وأمر بذبح خيله الخواص فذبحت، وتَصَدَّق بلحمها حالة حمله إلى قبره، وعملت له الأعزية في سائر المملكة.

وفيها توفي الأمير أبو سلطان المتولي على تَلَمُّص المتقدمة الذكر، فغلب المرتبون في الحصن عليه، وباعوه من الأمير علي بن موسى بن شمس الدين، فسار نحوه، ونقل إليه الطعام، ووقعت الحرب بين عسكر السلطان والأشراف بسبب ذلك، وذلك في النصف الأخير من شعبان، ثم حصل الصلح، وانعقدت الذمة إلى سلخ ذي الحجة على إخلاء صَعْدة من الفئتين.

وفي سنة أربع وسبعمائة أمر الملك المؤيد بالقبض على الأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين، وولده، والشريف شكر بن علي، وسبب ذلك أنه بلغه مباطَنَتُهم في صعدة وتلمص.

وفي ذي الحجة من السنة فارق الأمير سيف الدين طُغْرِيل الخزندار صنعاء وأقطعها السلطان ولده الملك المظفر، وأقطع طغريل الخزندار المذكور الأعمال

الأَبْيَنِيّة، ونزل إليها في المحرم سنة خمس وسبعمائة، ثم فارق المظفر صنعاء في آخر شعبان من هذه السنة، وتوجه إلى أبيه، فأَقْطِعَت الأمير سيف الدين طغريل المذكور، وأقطع الأمير عماد الدين إدريس بن علي الأعمال الأبينية، وفيها تم الصلح بين الملك المؤيد والأشرف، وقبض رهائنهم، ورجع أهل مدينة صعدة إليها وسكنوها.

وفي سنة سبع وسبعمائة ملك الملكُ المؤيد حصن القَرانع وهو مُزاحمُ الطويلة بينهما رمية حجر، وحصلت الحرب بين تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة وبين الأمير سيف الدين طغريل مُقْطَع صنعاء.

وفيها في جمادى الأولى خالف ابن أصْهب بأصاب وأخذ حصن السانة بها، وهو حصن منيع مرتفع، فتوجه الملك المؤيد إليه بعسكر، وحصره به، فراجع ابن أصهب إلى الطاعة، ونزل على الذِّمة هو وأولاده وحريمه، واستعاد الحصن ومعه حصونًا أخر، ورجع إلى زبيد، وأقيمت التهاني والأفراح بسائر المملكة، ومدحه الشعراء.

ذكر إنشاء القصر المَعقلي والمنتخب

وفي سنة ثمان وسبعمائة في النصف من صفر من عمارة القصر المسمى بالمعقلي بثَعَبات، وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا بسقفين مذهَّبين بغير أعمدة بأربع مناظر بأربع رواشن[1]، وفيه طشتيات من رخام شكل حلزون، وفي صدره شبابيك تفتح على بستان، وكذلك الرواشين وأمامه بركة طولها مائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا على حافتيها الأوزّ الصُّفّر ترمى بالماء من أفواهها، ويقابل المجلس شاذَرْوان[2] بعيد المدى ينصب ماؤه إلى البركة، ولما كَمل أمَرَ الملك المؤيد بمجتمع حضره الأمراء والوزراء والفقهاء والأعيان والعامة من أهل البلد، وجلس الملك في الطبقة الثانية ينظر إلى الناس، وخلع على الأعيان وامتدحه الشعراء.

وعند الفراغ من هذا القصر أمر ببناء قصر ثان سمّاه المُنْتَخب، وبستان وفي السنة المذكورة توجه الملك المؤيد إلى زبيد في رابع جمادى الأولى، فأقام بها نصف

---

(١) الرواشن: جمع روشن: وهو لفظ فارسي، بضم الراء وفتح الشين، بمعنى الكوة والنافذة، وتكون أيضًا بمعنى الشرفة (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١١٨).

(٢) الشاذروان: أساس يوضع حول القناطر ونحوها، فارسية الأصل، وهو ما يترك من عرض الأساس في الجدار خارجًا (شفاء الغليل ص١٣٥).

شهر، وتوجه إلى المَهْجم، فأقام به إلى تاسع عشر شهر رجب، وسار إلى جهة حَجَّة، ورجع منها في تاسع عشر شعبان، ودخل المَهْجم في الثالث والعشرين منه، وخرج منه وعيَّد بزبيد.

وفي السادس عشر من شوال وصل الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة إلى الملك المؤيد، ولم يطأ بساطه قبل ذلك، وهو من أعيان الأشراف ورؤسائهم، وله حصون منها كَحْلان والطويلة وعدة حصون غيرهما، فأكرمه المؤيد، وأنعم عليه، وتوجه به إلى صوب البحر، وركب الملك المؤيد فيلًا، وأردف الشريف تاج الدين خلفه، ودخل البحر فلجج الفيل بهما في الماء، فبادر الفيّال بأن ركب فيلة، ودخل البحر، واتبع الفيل وأسرع حتى أدركه، فلما شمّ الفيل رائحة الفيلة رجع إليها، ورجع الفيّال بالفيلة أمامه، واتبعه الفيل إلى البر، وهذا دليل على خفة وطيش، وعدم ثبات وتغرير بالنفس، وكانت سقطة من الملك المؤيد، ثم عاد إلى زبيد، ثم إلى تعز، ودخلها في السابع والعشرين من ذي القعدة والشريف تاج الدين معه، وفرّجه في قصور ثعبات.

وفي سنة تسع وسبعمائة رسم الملك المؤيد للأمير عماد الدين إدريس أن يتوجه إلى صوب الشرفين لاستفتاحهما بعد أن استخدم له مَذْحِج، وأصحبه جماعة من العسكر فتوجه وطلع من الطهرة إلى الشرف الأعلى، واستولى على جبل سعد ببلد الجبر، وحصن القاهرة ببلد المحابسة، وأخذها من أهل الشرفين، وتوجه إلى الشرف الأسفل وحطّ بقِلْحاح، وتسلم في ذلك اليوم حصن القُفْل وكان يومئذ بيد ابن مقرعة مولى الشريف إبراهيم بن قاسم، ثم توجه إلى جبل الشاهل، فاستولى على حصن أقتاب وحصن الناصرة واستولى على الشرف الأسفل بكماله، ولم يبقَ إلا حصن المسوكة للأشراف أهل جبل حرام، ومنهم عند الملك المؤيد محمد بن علي، وأخوه يقصدان بيع الحصن عليه، فأخذه الأمير عماد الدين بمصالحة على ألفي دينار، وكتب إلى المؤيد بذلك فصادف وصول كتابه وقد عقد القاضي الصاحب موفق الدين مجلسًا لشراء الحصن من الشريف محمد بخمسة آلاف دينار وكساوى، ولم يبق إلا وقوع المعاقدة، فقرأ الملك المؤيد الكتاب، وأمر بنقض المجلس، ثم تسلم الأمير عماد الدين حصن المفتاح في سنة عشر، وسلم جميع ذلك إلى غلام الدولة حسن بن الطماح بن ناجي بحكم ما بيده من ولايتها من جهة الملك المؤيد.

ذكر مقتل الأمير سيف الدين طُغْرِيل مقطع صنعاء

وفي سنة تسع وسبعمائة غدر الأكراد بالأمير سيف الدين طُغْرِيل الخزندار مقطع صنعاء، وقتلوه في يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وسبب ذلك أنهم توهموا أنه يريد القبض عليهم، وأتاه النذير بذلك في تلك الليلة، فلم يعبأ به، فخرج الأكراد من المدينة، وقصدوا عسكر صنعاء فعقروا خيلهم، وتوجهوا نحو القصر الذي به الأمير المذكور، فاستولوا على إسطبله وحالوا بينه وبين مراكبيه، وسألوه الخروج إليهم على ذمة، فامتنع، فحصروه إلى أن طلعت الشمس، فخرج إليهم على ذمتهم، فقتلوه، وقُتِل معه صهره وهو أستاذ داره، وكاتبه، ووالي ذمار، ونقيبه، وأربعة من مماليكه، فوصل عسكر صنعاء إلى الملك المؤيد فعوضهم ما أخذه الأكراد، وجَرّد الأمير شجاع الدين عمر بن القاضي العماد أمير جانْدارة، والأمير شمس الدين عباس بن محمد إلى جهة صنعاء من طريق تهامة، فدخلا ذمار، وانحازت الأكراد بجملتها إلى الوادي الحار، فقصدهم العسكر، وقاتلوهم ثلاثة أيام، وقتل من الأكراد ثلاثة نفر، وأخذت خيلهم، ثم تفرقت الأكراد في كل ناحية، وعاد الأميران إلى ذمار، ثم حصر الأميران الأكراد بمَصْنَعة عُبَيدة ثلاثة أشهر إلى نصف رمضان، وأنفقت أموال جليلة، فلم تجد المحاصرة شيئًا، فتركا الحصار، وسار الأمير عباس بعسكر صنعاء إلى صنعاء، واجتمع الأكراد إلى الإمام ابن المطهر[1]، وحالف بني شهاب وأهل الحصون، فقويت شوكته، وقصد حصن ظفار، فأخذه وحط في حَدّة، فقاتل من بصنعاء، ووقعت حرب عظيمة على باب صنعاء ولم يكن فيها إلا الأمير شمس الدين عباس في جمع قليل من عسكرها، فثبت حتى وصلت إليه عساكر السلطان، وابن المُطَهَّر مقيم في حَدّة، وظهره بلاد بني شهاب، فلما اتصل ذلك بالملك المؤيد بادر بنفسه إلى صنعاء، فدخلها في يوم الخميس الثالث والعشرين من شوال، ووجه ولده الملك المظفر إلى قاع بيت الناهم فنزل به يوم الاثنين السادس من ذي القعدة، واستولى على بيت خبص، وانهزم ابن المطهر هو ومن معه من الأكراد إلى حاقد، ثم طلعوا إلى سبأ، وأقام ابن المطهر بجَبَل رَهْقَة، والأكراد في البروية، ثم افترقوا فسار الأكراد نحو طوران، وقد باطنوا أصحابه، وسار ابن مطهر نحو ذَرَوان.

---

(١) الإمام ابن المطهر: هو الإمام محمد بن المطهر بن يحيى، توفي سنة ٧٢٨هـ (المقتطف ص١٢٧).

وفي سنة عشر وسبعمائة تسلّم الأمير شمس الدين عباس حصن عزّان، ونقل محطته نحو ظفار فحط بالطَّفة، ونصب المنجنيق على حصن تعز، فرغب الأشراف في الصلح، فوقع، وعاد الملك المؤيد من صنعاء إلى تعز في الخامس والعشرين من صفر سنة عشر وسبعمائة، وأقطع صنعاء للأمير أسد الدين محمد بن حسن بن نور، وفي سنة تسع توفي الفقيه رضي الدين أبو بكر بن محمد بن عمر صاحب الملك المؤيد، وأخو وزيره، وكانت وفاته بزبيد، وفيها توفي الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة.

وفي عشر وسبعمائة في سابع عشر جمادى الآخرة دخل الأكراد في الطاعة، وبذلوها من أنفسهم، ورهنوا رهائن وأعطوا حصن هِران واستخدم من أراد الخدمة منهم. وفيها أقطع المؤيد الأمير جمال الدين نور بن حسن بن نور الأعمال الصعدية والجوفية والجَنَّة بتهامة وعوض الإمام عماد الدين عن الجَنَّة بالقحمة.

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة توفي الملك الواثق نور الدين إبراهيم بن الملك المظفر يوسف بن عمر، وكانت وفاته في آخر المحرم بظَفار الحَبُوظي.

وفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وفي شهر رجب احترقت دار المرتّبة بتعز، واحترق فيها أشياء كثيرة.

وفيها في يوم الأحد سادس ذي القعدة توفي الملك المظفر ولد الملك المؤيد بتعز وأوصى قبل يوم وفاته ألا يُصاح عليه، ولا يُشق عليه ثوب، ولا يُغطى نعشه إلا بثوب قطن، وأن يُدفن في مقابر المسلمين، وألا يُعقر عليه شيء من خيله، فنُفذت وصيته في جميع ذلك إلا الدفن، فإنه دفن مع أخيه الظافر في المدرسة المؤيدية، وكان من جملة وصيته أن يعمل له في تربة المحاريب مدرسة، وأن يُجْرى لها الماء، ويُجْرَى الماء منها إلى حوض تحتها، ففعل ذلك، ورتب بها جماعة من الطلبة.

وفي ثالث ذي الحجة توفي الصاحب القاضي موفق الدين وزير الملك المؤيد المقدم الذكر، وكان مكينًا عند السلطان كما تقدم.

وفي السنة المذكورة أمر الملك المؤيد بإنشاء قصر ظاهر الشَّبارق بزبيد في البستان الذي أمر بإنشائه هنالك.

قال: وصورة بنائه أن وضع به أيوان طوله خمسة وأربعون ذراعًا، وفي صدره مقعد عرضه ستة أذرع، وله دهليز متسع، وفوق الدهليز قصر بأربعة أواوين، والجميع جملون، وفيه المباني الغريبة المشرفة على البستان المذكور من جميع نواحيه.

وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة توجه الملك المؤيد من تعز إلى الجَنَد، وكان قد رسم للأمير أسد الدين محمد بن نور أن يخرج من ذمار، وينازل حصن هرّان الذي هو بيد الأكراد، وينصب عليه المنجنيق، ففعل ذلك، وقتل الأكراد بعض المماليك وجماعة، فأردفه الملك المؤيد بالأمير شمس الدين عباس في خمسين فارسًا غير عسكره الذين معه، فراسل الأكراد السلطان المذكور، ما سبق لهم من الذمة، فأبقى عليهم لشهامتهم، وأمر بحضور أعيانهم، فحضر الأميران إبراهيم بن شكر، والجلال بن أسد إلى السلطان بالجَنَد، فاستقرت الحال بينهم على أن يسلموا هرّان، وعادوا إلى ذمار على عادتهم، وذلك في مستهل شهر رجب من السنة، وتوجه الملك المؤيد إلى زبيد، فدخلها في ثاني عشر شهر رجب.

وفي سنة أربع عشرة توفي الأمير عماد الدين إدريس المُقدّم ذكره.

ذكر وصول الأمير علاء الدين كشتغدي إلى خدمة السلطان الملك المؤيد

وفي سنة خمس عشر وسبعمائة وصل الأمير علاء الدين كُشْتُغْدي من الشام إلى خدمة الملك المؤيد باستدعاء من المؤيد، وكان قبل ذلك أستاذ دار الملك المُظَفَّر صاحب حماه، وكان خبيرًا باللعب بالجوارح، فتقدم عند الملك المؤيد تقدمًا عظيمًا، ونادمه في خلواته، ثم استنابه بعد ذلك، وردّ إليه أمور دولته على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها ولي القاضي جمال الدين محمد بن الفقيه رضي الدين أبي بكر ـ الذي تقدّم ذكر والده وعمه ـ قضاء الأقضية وعمره عشرون سنة، وكان الملك المؤيد يكرمه ويعظمه لحقوق أبيه السالفة.

فلما كان في سنة ست عشرة مرض الملك المؤيد مرضًا خيف عليه فيه التلف، وأرجف الناس بموته، فراسل القاضي المذكور الملك الناصر جلال الدين بن الملك الأشرف بالأمور الباطنة، وأشار عليه بنشر الدعوة، وآيسه من عمه، فلما اتصل بذلك المؤيد خرج من تعز إلى الجَنَد، وبه بقية التوعك، فخاف ابن أخيه الناصر من ذلك، ولجأ إلى جبل يقال له السَّوْرق، وهو جبل حصين، وحوله أناس من العربان، وهو مطل على مدينة الجند، فجهز له المؤيد العساكر، ومقدمها الأمير جمال الدين بن نور، فنزل الناصر بذمّة، وحضر إلى خدمة عمه الملك المؤيد، ووقع الصلح بينهم والاتفاق، ويقال: إنه عرفه ما وصل إليه من كتب القاضي، فعزله عن القضاء، واعتقله بحصن تعز، وفوّض القضاء إلى القاضي رضي الدين أبي بكر بن أحمد الأديب الشافعي.

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة، وصل القاضي الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد من دمشق إلى اليمن إلى خدمة الملك المؤيد باستدعاء منه له، وولاه كتابة إنشائه، وأكرمه وقرّبه.

وفيها دخل عسكر المؤيد فَلَلَة وملكوها، وضربت البشائر في سائر البلاد.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة وصل صفي الدين عبد الله بن عبد الرازق الواسطي، وهو من جملة الكتاب ببلد حماة، وباشر كتابة بيت المال بطرابلس الشام، فلما استقر علاء الدين كُشْتُغْدى في الخدمة المؤيدية نوّه بذكره وشكره، وأثنى عليه، وذكر معرفته ونهضته، فاقتضى ذلك طلبه، فطلب طلبًا حثيثًا وأنفق عليه إلى حين وصوله من الذهب العين ألفي مثقال، ولما وصل فَوّض إليه شادّ الاستيفاء، وحظي عند المؤيد وانبسطت يده في الدواوين، والمذكور زوج ابنة الأمير علاء الدين كشتغدي، وتوجه المذكور في السنة المذكورة إلى عدن وحمل منها ثلاثمائة ألف دينار، وعاد بها والمؤيد بالجَنَد فأكرمه وعظّمه.

وفي السنة المذكورة رتب الأمير علاء الدين كشتغدي الجيش اليمني على قاعدة الجيوش المصرية، وجعل له حاجبًا للميمنة، وحاجبًا للميسرة، ورتّب خلف السلطان إذا ركب العصايب والجَمْدارية[١] والطَّبَرْدَارِيّة[٢]، فركب المؤيد بهذا الزي.

وفي سنة تسع عشر وسبعمائة فوّض الملك المؤيد للأمير علاء الدين كشتغدي نيابة السلطنة وأتابكية العسكر، وتقدم عنده تقدمًا لم يسمع بمثله، وقرىء منشوره بأيوان الراحة، وكان يومًا مشهودًا، ووقع بينه وبين صهره صفي الدين منافسة ظاهرًا، وباطنًا، ثم كانت وفاة كشتغدي في سنة عشرين وسبعمائة.

وفي سنة عشرين وسبعمائة حصلت مرافعات من الكتاب على صفي الدين، وحاققه الكتّاب بمجلس الملك المؤيد، ونسبوا إليه أنه أخذ جملة من المال، ولم يظهر عليه أثر ذلك، فعزله المؤيد عن شد الاستيفاء، وفوّض ذلك إلى الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد.

---

(١) الجمدارية: من الفارسية، مركب من لفظين: «جاما» ومعناه: الثوب، و«دار» أي ممسك، والجمدار موظف يتصدى لإلباس السلطان.

(٢) الطبردارية: هم الذين يحملون الأطبار حول السلطان، والطبر باللغة الفارسية: الفأس (صبح الأعشى ٢/ ١٥٠).

وفيها وصل القاضي محيي الدين يحيى بن القاضي سراج الدين عبد اللطيف التكريتي الكارمي من الديار المصرية على طريق مكة، واجتمع بالملك المؤيد، وقدّم له جملة من الزُّمُرُّد واللآلىء، وتقدم عنده تقدمًا كثيرًا، وأحلّه محل الوزارة، وفوّض إليه الوكالة، وصَرّفه في عدن تصرفًا عامًا تامًا مطلقًا، وأعطاه من ماله - على حكم المتجر - مائة ألف دينار، وأطلق له من عَدَن خمسين ألف دينار، وتوجه إلى عَدَن، وعاد منها في سنة إحدى وعشرين، وحصل بينه وبين صفي الدين مرافعات بمجلس السلطان، ولم ينتصر أحدهما على الآخر، وركب السلطان ومحيي الدين في يوم العيد في موضع الوزارة، وركب بالطرحة على عادة وزراء مصر.

ذكر وفاة الملك المؤيد هزبر الدين داود(١)

كانت وفاته رحمه الله تعالى في نصف الليلة المسفرة عن يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وكان قد همّ بالنزول من تعز إلى زبيد على عادته، فنزل قصر الشجرة، وحصل له وجع، فأقام بالقصر عشرة أيام، ومات وغسل بدار العدل أسفل الحصن، ودفن بمدرسته التي أنشأها بمغربة تعز وكانت مدة ملكه خمسًا وعشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا. وكان ملكًا حازمًا فاضلًا محبًا للعلوم مقرِّبًا لأهلها يستميلهم إليه حيث كانوا، ويرغب فيهم، ويرغبهم فيما عنده، ويكرم من وفد عليه من الديار المصرية وغيرها، وكان محبًّا لجمع الكتب والتحف، جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة ألف مجلدة، وحملت إليه الكتب والتحف من كل جهة، وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ ينسخون الكتب، وترفع إلى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها، رحمه الله تعالى.

وملك بعده ابنه سيف الإسلام.

ذكر ملك الملك المجاهد سيف الإسلام علي ابن الملك المؤيد هزبر داود بن الملك المنصور عمر ابن علي بن رسول وخلعه من الملك

ملك بعد وفاة والده رحمه الله تعالى، وعمره يوم ذاك خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، فإن مولده في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست وسبعمائة.

---

(١) هزبر الدين داود: تقدمت ترجمته.

وكان سبب ملكه أنه لما مات والده نزل الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد ـ وكان الملك المؤيد قد فوّض إليه الأستادارية والأتابكية، ونيابة السلطنة ـ فتوجه إلى الشجرة حفظًا للجهات السلطانية، ومعه جماعة من العسكر وأعيان الأمراء، وثبت ثباتًا حسنًا في تلك الليلة وحفظ نظام السلطنة، وضرب بركًا على الشجرة. وكان الملك المجاهد عصر تلك الليلة قد تقدم إلى الحصن ودخله، فكاتب الأمراء والأعيان، ورغّبهم فرغبوا إليه، وصعدوا إلى خدمته، وتمّ له نظام السلطنة، فلما استقر في الملك عزل الأمير جمال الدين، وفوّض النيابة والأتابكية إلى الأمير شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور، وكان شاد الدواوين، وكُتِبَ له منشور وقرىء في دار الضيف، وفي ذلك اليوم عقد لولدي أخيه المفضل والفائز الألوية، ورفع لهم الطبلخاناة، وقرىء منشور شجاع الدين بحضورهما، فتغيرت قلوب الأمراء والجند من تلك الساعة، وحصل بينه وبين ابن عمه الملك الناصر مراسلة اقتضت أيمانًا وعهودًا، فأرسل إليه من جهته الطواشي صلاح الدين، والفقيه وجيه الدين عبد الرحمٰن معلمه، فحلف الناصر اليمن المغلظة.

ولما تمكن شجاع الدين من الملك المجاهد، حسّن له أشياء منها أن يقبض على الناصر، وسعى شجاع الدين في خلاص المعتقلين بمعقل الدملوة، وكان فيه الأميران نجم الدين وبدر الدين ولدا أزدمر المظفري، وشمس الدين الطُنْبا أمير جندار والشريفان داود وأخوه، ولدا الشريف قاسم بن حمزة، ونجم الدين أحمد بن أيدمر الخزندار الفارس المظفري، وكانت لهم مدة طويلة، ومنها أن يغير مماليك أبيه، ويستجد له عسكرًا، وكان هو والفقيه عبد الرحمٰن مدبري دولته، وفوّض قضاء الأقضية للفقيه عبد الرحمٰن المذكور، فأرسل شجاع الدين جماعة رايَتُهم الشيخ عيسى بن الحريري ناظر المخلاف، وبدر الدين محمد بن الصليحي، والشيخ أحمد بن عمران رأس مذحج، للقبض على الناصر، فلما علم بذلك لجأ إلى تربة الفقيه عمر بن سعيد بذي عقيب من أعمال جِبْلة، فأحاطوا به، وأخذوه من التربة، ودخلوا به تعز، ثم نقل إلى عدن.

ونزل الملك المجاهد من الحصن في ثالث المحرم إلى الشجرة، فلبث بها إلى مستهل شهر ربيع الأول، ثم تقدم إلى الجند فلبث بها أيامًا، ثم توجه إلى الدُمْلُوة، فدخلها وخرج منها، ولم يعط أحدًا مما جرت به العادة إلا قليلاً ممن يختص به، ومنع الملوك من الدخول إلى المنصورة، فتغيرت قلوب الناس عليه، ولما نزل من الدملوة توجه إلى ثَعَبات، وعزم على أخذ حصن السمدان من عمه الملك المنصور.

فلما علم الأمراء البحرية وأكابر الدولة ما أضمره شجاع الدين لهم، بادر جماعة منهم في النصف الأخير من جمادى الآخرة، فقتلوا شجاع الدين المذكور في داره بالمحاريب هو وقاضيه الفقيه عبد الرحمٰن، ثم قبضوا على الملك المجاهد وهو بثَعَبات، ونهبت تلك الليلة دور كثيرة بالمغربة والمحاريب.

ذكر مُلك الملك المنصور زَنْد الدين أيوب بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن علي ابن رسول، وخلعه

قال: ولما قبض الأمراء والعسكر على الملك المجاهد بادروا إلى عمه الملك المنصور ومَلّكوه، وحلفوا له، وصعد إلى الحصن، وبذل الأموال، وأنفق في العساكر وصرف في مدة سلطنته سبعمائة ألف دينار خارجًا عن التشاريف، وكاتبه الأشراف، وهنئوه، فبعث إلى كل شريف منهم ما جرت العادة به، وفوّض نيابة السلطنة إلى الأمير شجاع الدين عمر بن علاء الشهابي فأقام أيامًا، ثم حصل بينه وبين الأمراء البحرية منافرة أوجبت أن استبدل به الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد المقدم ذكره، وفوّض إليه أمر بابه بكماله.

قال: وفي ليلة جلوس الملك المنصور أرسل إلى الملك الناصر جلال الدين ابن أخيه الملك الأشرف يطالبه، فلما وصل إلى الجَنَد تلقاه بالطبلخاناة، وأقطعه المَهْجم، وعقد أيضًا للأمير بدر الدين حسن بن الأسد الألوية، ورفع له الطبلخاناة وأقطعه صَعْدة وما والاها، وعقد للأمير نجم الدين أحمد بن أزدمر الألوية، ورفع له الطبلخاناة، وأقطعه حَرَض، وعقد لولديه الملك الكامل تامور الدين، والملك الواثق شمس الدين الألوية، ورفع لهما الطبلخاناة وعيَّن لهما الإقطاعات، وأرسل ولده الملك الظاهر أسد الدين عبد الله إلى حصني الدملوة والمنصورة، وفي خدمته الشيخ افتخار الدين ياقوت العزيزي فتسلّم الحصنين.

ذكر عود الملك المجاهد إلى الملك والقبض على عمه الملك المنصور ووفاته

وكان الملك المنصور لما ملك أبقى على حاشية أخيه الملك المؤيد، ولم يغير أحدًا منهم، وكان منهم من يميل إلى الملك المجاهد ولد مخدومهم، فتقدم بعض غلمان المجاهد إلى بلاد العُرَيبيين، واتفق هو وجماعة منهم مقدمهم بشر الذهابي،

وكانوا عاملوا شخصًا يقال له صالح بن القواس على طلوع الحصن من ورائه باتفاق جماعة من عبيد الشراب خاناة وكانوا مؤيديه، فوصل العرب إلى المكان الذي تقرر طلوعهم منه، وكان بينهم وبين العبيد إشارة، فلما علم العبيد بهم أرسلوا لهم الحبال التي أعدوها للطلوع، فطلع الحصن أربعون رجلاً، وباتوا تلك الليلة في الشراب خاناة، وهي الليلة السادسة من شهر رمضان، فلما نزل الطواشي شهاب الدين موفق الخادم بمفاتيح أبواب الحصن خرجوا عليه فضربوه بالسيوف وأخذوا منه المفاتيح، ودخلوا على الملك المنصور، وطلع العرب بظاهر البيوت، ونادوا باسم المجاهد، فترامى العرب المنصورية من الحصن، وقاتل شمس الدين الطُّنْبا والي الحصن قتالاً عظيمًا، فقُتِل.

ولما علم الناصر بهذه الحادثة ركب في جماعة من العسكر إلى أسفل الحصن، فلم يتهيأ لهم ما أرادوا، وقام سواد البلد على الناصر، ونادوا بشعار المجاهد، وحمل الناس إلى المجاهد بالحبال، وملك الحصن ثانيًا، واستولى على ما فيه، وقبض على عمه المنصور، فلم يزل في اعتقاله إلى أن مات في المحرم سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ودفن بمدرسة أبيه المُظَفّر.

ولما ملك المجاهد ثانيًا حلف لمماليك أبيه، وكتب لهم ذُرّاعة بالأمان والوفاء، وجمع ملوك بني رسول كلهم عنده تحت الاحتياط ما خلا ولدي الواثق، فإنه لم يعثر عليهما، واستناب في السلطنة الأمير جمال الدين نور، وكان شديد الكراهية له، وطلب من عمه الملك المنصور أن يكتب إلى ولده الملك الظاهر بتسليم الدملوة، فكتب إليه كتابًا شافيًا، فامتنع الظاهر من تسليمها، فأرسل إليه عسكرًا مقدمه الأمير شجاع الدين عمر بن علاء الدين والشيخ أحمد بن عمران الغياتي، والشيخ عمران بن أبي بكر المغلسي، فخامر جماعة من الأشعوب على الظاهر مقدمهم، ومكنوا عسكر المجاهد من طريق يفضي بهم إلى الصليّ، وحاصروا حصن المنصورة، وحصل بينهم وبين عسكر الظاهر زحوف كثيرة، ولم ينالوا من الحصن شيئًا، فرجعوا وتركوا أكثر أثقالهم وخيامهم، فخرج أصحاب الظاهر من المنصورة، فانتهبوا ذلك.

وفي آخر سنة اثنتين وعشرين اختل أمر المخلاف، وخرج عن السلطنة، وثار به مشايخ العربان والقبائل، وملكوا أملاك الملوك، ونهبوا جِبْلة، وأخذوا جميع ما فيها حتى حصر المسجد الجامع، وخالف بنو فيروز وعسكر الدروب، واتسعت دائرة الخلاف.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة التحق جماعة من الجند إلى الملك الظاهر، وجماعة من عرب ذمار، فأكرمهم، وصاروا يغيرون على أطراف بلاد الملك المجاهد، وسار جماعة من المماليك إليه، ووصل إليه الأمير غياث الدين محمد بن يحيى بن منصور الشبابي، فأكرمه، وكاتب الأمير بدر الدين حسن بن الأسد والي ذمار، فأجابه.

وكان في جملة المماليك البحرية جماعة يكاتبون الظاهر، ويميلون إليه، منهم: الأمير عز الدين أيبك الدوادار المؤيدي فجيش الأمير بدر الدين حسن بن الأسد، وجمع وحشد، ودخل إلى الجند قاصدًا حصار تعز، وأمده الظاهر بأموال جمة من الذهب والفضة، فخرج إليه العسكر المجاهدي، ومقدمهم إبراهيم بن شكر، وكان قد نزل إلى المجاهد من بلاده لما عاد الملك إليه، ومعهم الفائز قطب الدين بن أخي المجاهد، فلما تراءى الجمعان نكس جماعة من المماليك والجند رماحهم، والتحقوا بعسكر الظاهر، وصار العسكر بكماله ظاهريًا، وعاد الفائز من ليلته بمساعدة إبراهيم بن شكر، وحصل بين ابن شكر وبين الأمير بدر الدين حسن بن الأسد أيمان وعهود، وأجمع العسكر على دخول تعز، ولاقاهم الأمير غياث الدين بن الشبابي من ناحية الدملوة، وضربت الخيام بمزارع عدنية، وأقامت المحطة سبعة أيام، وكان أهل تعز في أشد ما يكون من التعب من قوة الحصار، ثم التحق جماعة من العسكر بالمجاهد، فارتفعت المحطة.

ثم اضطربت أحوال المجاهد واختلفت آراء من حوله، فأشار عليه بعض من عنده ـ ويقال إنه ابن شكر ـ بالقبض على الأمراء البحرية والمماليك، وكان المحرّض له عبد الرحمٰن المعروف بابن العنقاء، وهجموا عليه سحرًا، فنجا بعضهم، وقبض على جماعة كثيرة، ونهبت منازلهم، وشنق بعضهم، والتحق من هرب بالظاهر وانضموا إليه، فلما تحقق نفورهم عن المجاهد، ووثق بمناصحتهم، وكان منهم الأمير بهاء الدين بَهادُر الصقري، أرسلهم الظاهر إلى الخوخية، وكان للظاهر بها محطة تبلغ مائتي فارس، وكانوا بين إقدام وإحجام، فلما انتهوا إليهم، وكان الحاث لهم على النزول، والمتدرك لهم بالبلاد بَهادُر الصقري فنزلوا إلى تهامة، ودخلوا السلامة، وتوجهوا إلى حيس، ثم توجهوا إلى زبيد، فلما صاروا بالقرتُب اختلفت آراؤهم، فهمّ جماعة منهم بالتوجه إلى جهة أخرى، وهمّ آخرون بالرجوع إلى الظاهر، ثم جمعهم الصقري، وثبتهم، وتوجه هو وجماعة من المماليك إلى زبيد، وكان بها الأمير بدر الدين محمد بن طُرنطاي، وأمر البلد إليه، فكاتبه الصقري، فلم يعد إليه جوابًا، وأصرّ على حفظ البلد.

وكان أهل زبيد يرغبون في الصقري، ويميلون إليه لتقدم ولايته عليهم في الأيام المؤيدية، ووقع بين أهل زبيد اختلاف على قتيل، فخرج جماعة من عوارين[١] البلد إلى الصقري والعسكر بكماله قد نزل بستان الراحة بباب الشبارق، فتكفلوا للعسكر أنهم يطلعون رجالهم بالحبال، فبادر عسكر الظاهر إلى ذلك ودخلوا البلد في مستهل شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وقت الظهر، ونهبت بيوت مخصوصة منسوبة إلى المجاهد: كدور بني النقاش، ومن والاهم، وكان بها جملة من الطعام، وظفر الصقري بآلات وتحف للمجاهد منها: حياصتان مرصعتان بالجواهر النفيسة، وكانت للملك المؤيد، وسرموزه مُرصّعة بالجوهر يقال أنها كانت لبنت جوزا، أخذها المجاهد من الدملوه حال طلوعه، فأحضرها الصقري إلى الظاهر، واستولى الظاهر على زبيد والبلاد التهامية. وقامت دعوته بها، وضُرِبت السِّكّة باسمه، وخطب له في التهايم كلها، وسكن عسكر الظاهر بكماله زبيد.

ولما اتصل ذلك بالمجاهد جهز عسكره، وقدم عليهم الأمير نجم الدين أحمد بن أزدمر: وابن العماد، والزعيم بن الافتخار، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة فارس، وأربعمائة راجل، ومقدم الرجّالة أخو الورد بن الشبيلي، ولما دخلوا إلى السلامة نهبوا أكثر بيوتها، وساروا إلى جهة زبيد، فخرج إليهم جماعة من العسكر وأقام الصقري بالبلد، فالتقوا بالمنصورة، فانهزم عسكر المجاهد، وقتل منهم خلق كثير، وأخذ العَلَم والحمل الذي كان مع ابن أزدمر وأسروه، ودخل رديفًا خلف الشريف صارم الدين داود بن قاسم بن حمزة، وقتل أخو الورد بن الشبيلي، وابن العماد، وتفرّق العسكر، واستأمن منهم جماعة، وقوي الظاهر بذلك.

وكانت عدن بيد الملك المجاهد، وواليها ابن النقاش، فوقع بينه وبين الأمير شجاع الدين عمر بن بلبان العلمي منافرة، فكتب إلى المجاهد يشكو منه، فظفر بعض

---

(١) عوارين: كذا بالأصل، ولعله يقصد «العيّارون» والعيّار من الرجال هو الكثير التجوال والطواف والذي يتردد بلا عمل، وهو الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها، وقد ورد اللفظ عند ابن خلدون: «. . . حتى لا يبقى إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيّارة وسواد العامة».
وقد وجد في بغداد في العصر العباسي جماعة من مختلف الأوساط الشعبية أطلق عليهم اسم «العيّارون» وكانوا عادة من الفقراء اللصوص وقطّاع الطرق، إلا أنهم يحملون مبادىء إنسانية مثالية لا توجد عند اللصوص العاديين، فالعيّارون لا يعتدون على النساء ولا يسرقون الفقراء، وإنما يسرقون أموال الأغنياء الذين امتنعوا عن أداء الزكاة، ولهم مواقف مشهودة في الدفاع عن بغداد (المعجم الوسيط مادة «عير»، ومقدمة ابن خلدون ص٦٦٩، والأعلاق الخطيرة ـ عن نفاضة الجراب ـ ٣/ ٩٣٠ ملحق).

غلمان الظاهر بإنسان وصل من عدن ومعه كتب فقتله، وأخذ كتبه، وأحضرها إلى الظاهر، فوجد في جملتها جوابًا لابن النقاش، وفيه فصول تتعلق بالأمير شجاع الدين المذكور وإخوته لا ترضى، وكان قبل ذلك قد توجه شجاع الدين إلى المجاهد بمال، وصحبته جماعة من الجحافل، فلم يقابلهم المجاهد بما جرت به العادة، فنفروا، ونفر شجاع الدين معهم، وانضم إلى ذلك أن المجاهد طلب من شجاع الدين أن يقرضه سبعين ألف دينار فرفض فزاد نفوره مع مشاحنة ابن النقاش.

فلما وقف الظاهر على الكتاب أرسل به إلى الأمير شجاع الدين، فلما وقف عليه أعلن أنه ظاهري، وتوجه من ساعته، وحاصر عدن، فأقام عليها عشرين ليلة، ثم افتتحها في الثامن والعشرين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة برجال أدخلهم، وتَحيّلوا على فتح الباب، ودخلوا البلد دخولاً صعبًا، نهبت فيه أكثر البيوت الخصوصية، وعاث الجحافل في البلد، وقبضوا على ابن النقاش، ونهبوا داره، واستقر الثغر للأمير نجم الدين يوسف بن علي الصليحي، وهو رجل شهم من بيت الزعامة والرئاسة، واستقرت المملكة كلها بيد الظاهر ونوابه، ولم يبق مع الملك المجاهد غير حصن تعز، وهو يبذل لأهل صبر في كل شهر جملة من المال، خوفًا منهم أن يقطعوا عنه الماء ويحاصروه.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة ثار الزعيم ابن الافتخار ببلاد المحالب، وتوجه إليه البحرية من قبل الظاهر، وكسروه كسرة شنيعة، وقتلوا من أصحابه جماعة.

وفي السنة المذكورة عقد الظاهر للأمير بهاء الدين بَهادُر الصقري الألوية ورُفعت إليه الطبلخاناة، ودخل زبيد دخولاً لم يعهد مثله، وعامله الظاهر بأتم إحسان، وهو مع ذلك «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتِغاء»[1].

وفي السنة المذكورة خالف أهل صبر على المجاهد، وقطعوا المياه عنه، وضعف حاله، وشعث أهل المغربة وعدنية بين أهل صبر والمجاهد فجهز الظاهر الأمراء البحرية ومقدمهم الأمير نجم الدين محمد بن طرنطاي، ووافاه الأمير شجاع الدين عمر بن بلبان الدوادار العلمي من عدن، فحطُّوا على الحصن وحاصروه.

وكان غياث الدين بن بوز من خواص أصحاب المجاهد قد فوّض إليه أمر أستاذ داريته، وأتابكية عسكره، فلما حوصر المجاهد استأذنه غياث الدين في اللحاق بهم،

(١) يسّر حسوًا في ارتغاء: مثل يضرب لمن يظهر طلب القليل وهو يسرّ أخذ الكثير (انظر مجمع الأمثال ٢/ ٣١٢، ولسان العرب مادة: ر غ و).

وقال: إنه إذا وصل إليهم تَحيَّل على استمالتهم إليه، فإن مالوا إليه، وإلا تحيل أن يسقي ابن الدوادار السم، فأذن له: فلما التحق بهم قالوا له: لا نقبلك ونتحقق نصحك إلا إذا نصبت المنجنيق على تعز، ورميتها به، وبالغت بالنصيحة للملك الظاهر، فراسل المجاهد في ذلك، وقال له: إنهم لا يرضون مني إلا أن أرميك بالمنجنيق، فأذن له في ذلك، فنصب عليه المنجنيق ورموه بها، وأزالوا ما بتعز من المناظر والمنازل.

قال القاضي تاج الدين: فأخبرني المحقق للحال، أن الذي وصل إلى الحصن من الحجارة المنحوتة أربعة آلاف حجر، وحصل قتل كثير، وخربت تعز خرابًا لا يتدارك، وخلت أكثر بيوتها، واستمر الحصار إلى ذي الحجة سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

ولما اشتد الحصار على المجاهد، ورأى تَألُّبَ الناس عليه، وخروج البلاد عنه، راسل السلطان الملك الناصر في ذلك، واستغاث به، وتضرع إلى مراحمه، والتزم تحمل الأموال، والتحف والنفقة في العساكر، فوصلت رسله إلى الأبواب السلطانية وذلك في سنة خمس وعشرين كما تقدم، فكان من تجهيز العساكر المصرية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: واتفق أن الأشراف كانوا قد استولوا على صنعاء بعد وفاة الملك المؤيد عندما وقع الاختلاف بين الملكين باليمن، فلما علموا أن الصقري ومن معه من المماليك استولوا على زبيد وبلاد تهامة، وأنهم مظهرون الطاعة للملك الظاهر بن الملك المنصور، مخالفون على المجاهد، وأنهم استقلوا بأموال البلاد لا يحملون منها إلى الظاهر شيئًا، تحرك الأشراف عند ذلك، ونزلوا في جمع كبير يقال إن عدتهم كانت خمسمائة فارس وكثير من الرجال، وراسلوا الأمير بهاء الدين بهادر الصقري أن يعطيهم نصف بلاد تهامة، فقال: لا جواب لكم عندنا إلا السيف، فوقعت الحرب بينهم على وادي سهام من عمل الكدراء، فكانت الدائرة على المماليك، وأسر الأشراف جماعة من أعيانهم، فعند ذلك اضطربت المحطة الذين كانوا يحاصرون المجاهد بتعز، وفارقوا الحصار، وتوجهوا لإنجاد أصحابهم، وأظهر الأشراف عند ذلك الانتصار للمجاهد.

وكان الحامل لهم على ذلك ولدا المظفر أخي المجاهد، وهما: الملك المفضَّل شمس الدين يوسف، والملك الفائز قُطْب الدين أبو بكر، فإنهما التمسا من الأشراف نصرة عمهما الملك المجاهد.

ولما حصل من الأشراف ما حصل رجع المماليك البحرية ـ الصقري وغيره، وغياث بن نور ـ إلى خدمة الملك المجاهد، ورجعت زبيد وتهامة إليه.

هذا ما أورده المولى تاج الدين في تاريخه، وبعضه شافهني به، فلنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الناصرية لسنة خمس وعشرين وسبعمائة، وما بعدها.

ذكر تجريد طائفة من العساكر المنصورة إلى البلاد اليمنية وما كان من خبرها إلى أن عادت

قد ذكرنا وصول رسل الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية يستغيث به، ويستنجده لتفريج ما به من الكرب، وإعادة ما أخذ من بلاده إليه، فبرزت المراسيم الشريفة السلطانية في يوم الاثنين الخامس من صفر سنة خمس وعشرين وسبعمائة بتجريد طائفة من العساكر المنصورة لإنجاده، فجَرَّد لذلك من نذكر من الأمراء والمماليك السلطانية، ورجال الحلقة، وأجناد الأمراء، وهم:

الأمير ركن الدين بيبَرْس الحاجب، كان وهو مُقَدَّم العسكر، وصحبته من طلبة خمسين خمسون فارسًا، ومن المماليك السلطانية سبعة عشر فارسًا ومن الأجناد والأمراء ثلاث وسبعين فارسًا، ومضافيه ومن أمراء الطبلخاناة خمسة وهم: الأمير سيف الدين أقول الحاجب، وصحبته اثنين وخمسين فارسًا من طلبة عشرين، ومن المماليك السلطانية عشر، ومن أجناد الأمراء اثنين وعشرين.

والأمير سيف الدين قجماز بنخاص وصحبة ثمانية وأربعين فارسًا من طلبه عشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر.

والأمير سيف الدين بَلبان الصَّرْخَدِي، وصحبة ثلاثة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر.

والأمير سيف الدين بَكْتَمُر العلائي أستاذ الدار، كان، وصحبة خمسة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء عشرين.

والأمير سيف الدين ألْجَاي الساقي الناصري، وصحبته ثلاثة وخمسون فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر. ومن أمراء العشرات الأمير عز الدين أيْدَمُر الكَوْنْدَكِي، وثلاثة من أصحابه.

والأمير شمس الدين إبراهيم التُّرْكُماني كذلك، ومن مقدمي الحلقة المنصورة خمسة، وهم: سيف الدين كُكْتَمُر بن كراي الظاهري، ومضافية ثلاثين فارسًا. علاء الدين علي بن أميرك الدَّوادار، ومن مضافية ثلاثة وثلاثين. عز الدين أَيْدَمُر الحسامي، ومن مضافية اثنين وثلاثين، بهاء الدين بَكْمش الحُسامي ومضافية كذلك، عز الدين أَزْدَمُر السيفي(١)، ومن مضافية تسعة وعشرين. هذه التقدمة الأولى.

والتقدمة الثانية: الأمير سيف الدين طَيْنال حاجب الميسرة، وهو أحد مُقَدّمي الألوف، وصحبتُه من طلبة أربعين فارسًا، من المماليك السلطانية، خمسة عشر فارسًا، ومن أجناد الأمراء اثنين وأربعين فارسًا، ومضافيه من أمراء الطبلخاناة خمسة، وهم: الأمير سيف الدين ططقر العفيفي الناصري(٢) وصحبة أربعة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية تسعة نفر، ومن أجناد الأمراء عشرين، والأمير سيف الدين كوكاي طاز وصحبة تسعة وأربعين فارسًا من طلبة عشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية تسعة، ومن أجناد الأمراء عشرين فارسًا، والأمير علاء الدين علي ابن الأمير سيف الدين طُغْرِيل الإتْقاني(٣) وصحبته كذلك، والأمير عز الدين أَيْبَك الكَوْنْدَكي، وصحبة ستة وأربعين فارسًا من طلبة عشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية ثمانية، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر، والأمير سيف الدين جَرِباش(٤) أمير علم، وصحبة أحد وأربعين فارسًا من طلبة خمسة عشر، ومن المماليك السلطانية تسعة، ومن أجناد الأمراء سبعة عشر، ومن أمراء العشرات: الأمير سيف الدين بَلَبان الدَّوادارِي، وثلاثة من أصحابه، والأمير حسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي كذلك.

ومن مُقَدّمي الحلقة المنصورة خمسة، وهم: سيف الدين سوندك الجاشْنَكير، ومن مضافية ثلاثين فارسًا بدر الدين بيليك أمير آخُور، ومن مضافية تسعة وعشرين: سيف الدين طاجار الفَخْري، ومن مضافيه كذلك شمس الدين سُنْقُر الشمسي، ومن مضافية ثمانية وعشرين سيف الدين أَسَنْدَمُر السَّيفي، ومن مضافية كذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٥.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠، النجوم الزاهرة ٩/ ٧٨.

(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠، والدرر الكامنة ٢/ ٢٢٢.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٧٨، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠.

فكانت عدة هذا العسكر ألف فارس وخمسة وسبعين فارسًا، ومن أمراء الطَّبْلَخاناة اثني عشرة، عدتهم ثلاثمائة، وخمسة من أمراء العَشَرات ممن عدتهم ستة عشر، ومن المماليك السلطانية مائة وستة وعشرين، ومن مقدمي الحلقة المنصورة ومضافيهم ثلاثمائة ومن أجناد الأمراء ثلاثمائة وستة، فتجهز هذا العسكر أحسن جهاز وأجمله، وجهز السلطان ـ خلّد الله ملكه ـ معهم خزانة مال، ورسم لمقدم الجيش الأمير ركن الدين المذكور أن ينفق المال لمن نفق له فرس، أو تَنَبَّل[1] له جمل، وجهز صحبة المقدم المذكور عدة تشاريف لملك اليمن، وأمراء الحجاز، وغيرهم من العُربان.

قال: وكان بروز هذا العسكر من القاهرة المحروسة في يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ورحل أوائل العسكر من بركة الجب بظاهر القاهرة المحروسة في يوم الاثنين التاسع من الشهر، وتكامل رحيله في يوم الأربعاء حادي عشر، واستمر بهم السير إلى أن وصلوا إلى مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ معتمرين في السادس والعشرين من جمادى الأولى، وأقاموا بمكة عشرة أيام، وكتب الأمير ركن الدين مقدم العسكر الأمانات، وسيّرها أمامه إلى العُرْبان، وإلى أهل حَلْي بني يعقوب، وإلى الأشراف بالمخلاف السليماني، وضمنها ما برزت به الأوامر السلطانية من الوصية بمن تَمُرُّ العساكر عليه منهم، وعدم التعرض إلى أموالهم وغلالهم، والإحسان إليهم، فاستقرت خواطرهم بذلك، ولم ينفروا من العسكر.

وحضر الرسل إلى مقدم العسكر وهو بمكة، وسألوه أن يكتب إلى الملك المجاهد كتابًا يخبره فيه بوصول العسكر، فكتب إليه، وجهز الكتاب على يد بعض رفقتهم إليه في البحر، ورحل العسكر من مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ في السادس من جمادى الآخرة، وفي صحبته الأمير السيد الشريف سيف الدين عُطَيْفة[2] أمير مكة، والأمير الشريف ناصر الدين عُقَيل أمير يَنْبُع، وتأخر الأمير عز الدين رُمَيْثَة[3] عن الحضور، حتى حلف له مقدم العسكر وأمنه، فلحق بالعسكر المنصور في الخامس والعشرين من الشهر في أثناء الطريق، ووصل العسكر إلى حَلْي بن يعقوب في سادس عشر الشهر، وأقام العسكر به يومين للراحة والاستراحة، ورحل في تاسع عشر

---

(١) تنبّل الرجل، أو البعير: مات.

(٢) سيف الدين عطيفة: هو عطيفة بن محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس الحسني (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٤٥٥).

(٣) عز الدين رميثة: توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١١١).

الشهر، ونزل جَعْل، وتعرّف بعَمْق وهو أول بلاد المين، ووصل إلى حَرَض في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، وهي أول بلد يُجْبَى خراجه لملك اليمن، وهي خاص الملك، وعند الوصول إليها أشهر مقدم العسكر النداء بالعَدْل، وألا يتعرض أحد للرعية، ورحل منها ووصل إلى المَحالِب في ثالث شهر رجب.

ووصل جواب الملك المجاهد إلى مقدم العسكر بهذه المنزلة، وظهر من فحوى جوابه ما دلّ على أنه سُقِطَ في يده، وندم على طلب العسكر، وخاف على نفسه، فأعيد جوابه صحبة جمال الدين عبد الله الدواداري البريدي بما يُسكّن خاطره، ويُطَيّب نفسه، وكان الحصار قد ارتفع عن الملك المجاهد لما بلغهم إقبال العسكر، وأطاعه جماعة ممن كان خالفه، وخرج عليه كما تقدم، وقبض المجاهد عند ذلك على ابن عمه جلال الدين بن الملك الأشرف وابن طُرُنْطاي وحضر إلى مدينة زبيد، ليتلقى العسكر، فلما قرب العسكر من زبيد قويت إشاعة أن الملك المجاهد عزم على ألا يتلقى العسكر، وأن يعود إلى تعز، ووصل العسكر إلى بلد تسمى فَشَال في ثامن رجب، فأرسل مقدم العسكر إلى المجاهد مُلَطَّفًا كان على يده من جهة السلطان يخبره فيه بما رسم فيه باطنًا وأرسله على يد الأميرين: عز الدين أَيْدَمُر الكَوُنْدكِي[1]، وحسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي، وهما من أمراء العشرات، فتوجها إليه، وعرفاه أن يقف على الملّطف، ويكتم ما تضمنه، وإذا وصل المثال السلطاني، وقرىء في المجلس العام تقابَلُ الأوامر فيه بالسمع والطاعة.

ثم وصل العسكر إلى زبيد في يوم الأحد عاشر رجب الفرد، وخرج الملك المجاهد للقائه، فتلقاه بالقرب من أسوار البلد، وألبسه مقدم العسكر التشريف السلطاني، وعاد المجاهد والعساكر في خدمته إلى داره، وترجل مقدم الجيش والأمراء في خدمته حسب ما أمرهم السلطان، ومشوا حتى انتهوا إلى الإيوان الذي يمد فيه الإخْوان[2]، فعضده الأمير ركن الدين بِيبَرْس عند نزوله عن فرسه، وبذلك كله كان السلطان أمره عند توجهه، وقرىء عليه المثال السلطاني، في المجلس العام بعد أن قبّل الملك المجاهد الأرض عند رؤية المثال، ومدّ المجاهد للعسكر إخوانًا.

وتحدّث مقدم العسكر مع الملك المجاهد في إرسال رسول إلى الملك الظاهر بقلعة الدُمْلُوَة بالمثال السلطاني إليه، فوافق على ذلك، ثم كرهه بعد الموافقة، فجهز

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٨٧.

(٢) الإخوان: هو الخِوان (بضم الخاء وكسرها)، وهو ما يوضع عليه الطعام.

إلى الظاهر عز الدين الكَوُنْدَكِي، وحسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي، فتوجها من زبيد نحو الدُمْلُوَة ولما توجها تحدّث الملك المجاهد مع مقدم العسكر أن يجرد معه مائتي فارس، ليتوجه أمامه إلى تعز، وذكر له أنه بلغه أن الملك الظاهر قد عزم على مفارقة الدُمْلُوَة، واللحاق بحصن السَّمَدان، وأنه حصن حصين، ومتى صار به تعذر الوصول إليه، وذكر أن الطريق لا تسع العساكر بجملتها، فجرد معه الأمير سيف الدين ططقر العفيفي السلاح دار، والأمير سيف الدين قَجْماز بنخاص، وتوجهوا من زبيد في سادس عشر رجب، ووصلوا إلى تعز في العشرين من الشهر.

ثم توجه الأمير ركن الدين ببقية العسكر إلى تَعِزّ، فوجد رسله الذين أرسلهم إلى الملك الظاهر قد منعهم نائب قلعة تَعِزّ من التوجه إلى الدُمْلُوَة، واعتذر أنه خشي عليهم من الطرقات، فجهز معهم الأمير سيف الدين عُطَيْفة أمير مكة، وتوجهوا إلى الملك الظاهر، واجتمعوا به، فوقف على المثال السلطاني، وكان يتضمن الاتفاق بين الملكين، فسأل الظاهر الكشف عن سيرته وسيرة المجاهد، وأن تكون قلعة الدُمْلُوَة للسلطان، ويكون نائبه بها، وأكرم الرسل غاية الإكرام، وأعادهم.

وحصل من الملك المجاهد في خلال ذلك اضطراب كثير، وعدم موافاة بما كان التزم به، وقرره على نفسه من النفقة على العسكر، وكان جميع ما أعطاهم في جملة ثمن ما تَنَبَّلَ للجند من الجمال ثمانية وأربعين ألف درهم، وطولب بعُلُوفات دوابهم، فاعتذر أن خيله لها سبعة أيام ما أكلت عليقًا، وأنه لا شيء عنده، فالتمس منه أن يأمر رعيته ببيع العليق للجند، والجند يقومون بالثمن، فقال: ما عندي إلا ما تأخذونه بسيوفكم.

ولم يكن مع المقدم مرسوم بالقبض على المجاهد، ولا نهب البلاد، فلذلك كفّ العسكر عنهم، وضاقت المِيرَةُ على العسكر، ومرض جماعة منهم، وتوجه جماعة من أجناد الحلقة إلى بعض الجهات ليبتاعوا ذرة برسم عليق دوابهم، فخرج عليهم جماعة من أهل جبل صَبِر، فأخذوا الجمال، وجرحوا الجَمّال، فوصل الخبر إلى مقدم العسكر، فأرسل جماعة لكشف الخبر، فقاتلهم أهل الجبل وكاثروهم، فركب بنفسه، وتوجه إليهم، فاعتصموا منه بالجبل، وهو جبل وَعْر صعب المسلك لا ماء فيه، فصعد جماعة من العسكر إلى الجبل مشاة، وقتلوا من أهله نحو ثلاثمائة نفر، واشتد العطش بالعسكر، فمات منهم خمسة أحدهم من المماليك السلطانية، والآخر من الحلقة، وثلاثة من أصحاب الأمير سيف الدين قَجْماز بنخاص.

وظهر لمقدم العسكر أن الملك المجاهد قد ضاق من العسكر، وعمل على ما يحصل به الضرر التام، وسأل أن يفرق العسكر، ويتوجه بعضه إلى عَدَن، وبعضه إلى لَحْج وأبْيَن وضُبا ونواحيها، وبعضهم إلى مخلاف جعفر، وبعضهم إلى بلاد المُغَلسي وغير ذلك من الجهات، وقصد بذلك أن يفرق العسكر في البلاد خوفًا على نفسه منه، وقابل إحسان السلطان بالإساءة على ما نقل مقدم العسكر عنه.

ثم بلغ المقدم أن بَهادُر الصقري قرر مع المجاهد أن يمنع أهل البلاد من بيع العلوفات على العسكر، وربما شهر النداء بذلك، وكان الأمر السلطاني قد برز لمقدم العسكر أنه متى ظفر ببَهادُر الصقري يقتله، فأخر المقدم قتله ليطمئن غيره ممن كان قد خالف الملك المجاهد، ويحضروا، ثم ينفذ فيهم أمر السلطان.

فلما تحقق المقدم سوء طويته ركب إلى خيمة بَهادُر الصقري، وقبض عليه وعلى الغياث بن نور، وكانا ممن خالف المجاهد وألّبا عليه كما تقدم، ثم رجعا إلى طاعته لما بلغهم قرب العسكر، ثم عملا على إفساد العسكر، ولما قبض على الصقري، وَسَّطَه لوقته، وقيّد الغياث بن نور، وهو أيضًا ممن رسم السلطان بقتله، وشهد عليه جمال الدين محمد بن مؤمن، والزعيم عند مقدم العسكر ـ على ما حكاه المقدم في مطالعته للسلطان ـ أنه عمل على الإضرار بالعسكر، ومنع الأجلاب عنه، فلم يزل في القيد إلى أن رجع العسكر، ووصل إلى حرض فوَسّطه المقدم بالقرب من المخلاف السليماني.

وأما الملك المجاهد، فإنه لما ضاق بالعسكر، واشتد خوفه منه، قال للمقدم: إن كان السلطان قد رسم لكم بالإقامة باليمن فالأمر إليه، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي فارجعوا إلى أبواب السلطان، وأحضر القاضي والشهود، وأشهد على نفسه أنه أذن للعسكر في العود، ثم طلع المجاهد إلى القلعة، وامتنع من النزول إلى العسكر، فأرسل إلى المقدم أن يرحل بالجيش، وأنه يلحقه إلى زبيد، فعاد العسكر من تَعِزّ في التاسع من شعبان، ووصل إلى زبيد، وأقام بها في ميعاد المجاهد، فوصل الزعيم إلى مقدم العسكر، وأخبره أن الملك المجاهد تَوجّه من تَعِزّ إلى بعض الجهات، فانتظره المقدم ثمانية أيام، فلم يصل فعاد بالعسكر.

ولما وصل إلى منزلة بالقرب من بئر علي، توفي الأمير سيف الدين ططقر العفيفي السلاح دار الناصري، وكان رحمه الله تعالى رجلًا جيدًا كريمًا، صادق اللهجة، ووصل أوائل العسكر إلى مكة شرّفها الله تعالى عائدًا إلى الديار المصرية في عاشر شهر رمضان، وآخره في ثالث عشره وأقام بها بقية شهر رمضان، ثم توجه منها إلى الديار المصرية.

وكان وصول جاليش[1] العسكر إلى القاهرة المحروسة في يوم الخميس مستهل ذي القعدة من السنة، ووصل المقدم وبقية الجيش في يوم السبت ثالث الشهر، ومثلوا بين يدي السلطان في يوم الاثنين خامس الشهر، وخلع على الأمراء في هذا اليوم، فخلع على الأميرين المقدمين خِلَعًا كاملة بكَلُّوتات زَرْكَش، وحوائص ذهب، وخلع على بقية الأمراء خلعًا كاملة على عادتهم، وزيد الأمير سيف الدين كوكاي في خلعته كَلُّوتَة زركشًا، ثم كان بعد ذلك من أمر الأمير ركن الدين بِيبَرْس الحاجب، والقبض عليه ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة أيضًا، في العاشر من شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل بالمحروسة الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة بالشام المحروس على خيل البريد، وشمله الإنعام السلطاني والتشاريف، وعاد إلى دمشق على عادته في النيابة، وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

ذكر حفر الخليج الناصري

وفي هذه السنة أمر السلطان بحفر خليج مُسْتَجَدّ سمي الخليج الناصري عوضًا عن خليج الذكر، وجعل فوهته من قبلي خليج الذكر، وتولى أمره نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرغون الناصري، وولاه الأعمال البرانية، وابتدأ بحفره من فم البحر، ومر به على باب اللوق، ثم إلى بركة قرموط، واتصل الحفر إلى أن انتهى إلى الخليج الحاكمي، وبطل خليج الذكر، وسدّ فمه وبنى على هذا الخليج الناصري عدة قناطر في عدة أماكن منه، لسلوك المارّة عليها فأنشأ القاضي فخر الدين ناظر الجيوش قنطرة عند فم الخليج بقرب البحر، وأنشأ الأمير سيف الدين قُدودار متولي القاهرة قنطرة عند باب اللوق، وأنشأ القاضي شمس الدين عبد الله غبريال قنطرة عند دائرة بركة قرموط، وأمر السلطان بإنشاء قنطرة عند باب البحر بظاهر القاهرة، وأنشأ بعد ذلك في سنة ست وعشرين الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي ـ الحاجب كان ـ قنطرة

---

(١) الجاليش: كلمة فارسية، ومعناها: الحرب والمعركة، والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يومًا قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخاناه (مكان في القلعة). والجاليش أيضًا تستعمل بمعنى طليعة الجند، وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش»، ويجمع على «جواليش» (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٨، وصبح الأعشى ٤/ ٧).

في أرض الطَّبّالة خارج باب الشعرية، وأنشأ الأمير جمال الدين آقُوش الأشرفي المعروف بنائب الكَرَك قنطرة قبلي قناطر الأوز عند اجتماع الخليجين الحاكمي والناصري، وحصل بهذا الخليج نفع كثير، وجرى مدة طويلة بعد انقطاع الخليج الحاكمي، ثم نشف.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر ضُرِب عنق نصراني تعرض إلى ذكر دين الإسلام، وأغض منه، وأصَرّ على إظهار ذلك، فحكم قاضي القضاة تقي الدين بن الأخنائي المالكي[1] بإراقة دمه، وأنهى أمره إلى السلطان، فرسم بتنفيذ حكمه، فجلس بعد صلاة العصر من اليوم المذكور بالمدرسة الصالحية بإيوان المالكية، وضربت عنقه بين يديه.

ذكر عمارة القصر والخانقاة[2] بسماسم والجلوس بالخانقاة

وفي هذه السنة كملت عمارة القصر والخانقاة الناصرية بأراضي سماسم بالقرب من سَرْياقُوس، وحصل الجلوس في يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة، ورسم السلطان بحضور قُضاةِ القضاة، والعلماء، وسائر مشايخ الزوايا والخوانق والربط بالقاهرة ومصر المحروستين والقرافتين، ومن معهم من الفقراء، وحضر السلطان ونائبه، وأكابر أمراء دولته، واجتمعوا بالخانقاة، ومدت الأسمطة الكثيرة من الأطعمة اللذيذة، والأشوية، والحلويات والمشروب، وخلع على شيخ الشيوخ علاء الدين القونوي[3]، وشيخ الخانقاة المذكورة الشيخ مجد الدين

---

(١) تقي الدين بن الأخنائي: هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي المالكي، ولد سنة ٦٦٠هـ، ولي قضاء المالكية بالديار المصرية، وكان الملك الناصر يحبه ويرجع إليه في أمور كثيرة، مات بالطاعون سنة ٧٥٠هـ، وقال السيوطي في حسن المحاضرة: له تصانيف حسنة (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/ ١٥٧، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٩).

(٢) الخانقاه: كلمة فارسية معناها «بيت» وأصلها «خونقاه» أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (خطط المقريزي ٢/ ٤١٤).

(٣) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل بن يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي الأصولي الشافعي. قدم القاهرة ودرس بها، ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨هـ، وتوفي سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصرف في شرح التعرف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع، «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج» (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

الأقْصُرائي[١] وغيرهما من المشايخ والقضاة، وفرقت الأموال الكثيرة على سائر فقراء الخوانق والزوايا والربط من الذهب والفضة، وكان يومًا مشهودًا.

ورتب السلطان بالخانقاة أربعين صوفيًا، ورتب لهم فوق الكفاية، ورتب لكل منهم في كل شهر أربعين درهمًا، وفي كل يوم ثلاثة أرطال خبز، ورتب سِماطًا عامًا يمد في كل يوم يأكله الفقراء المقيمون بها، والواردون إليها، وجعل للواردين إليها ضيافة، وأنشأ بها حمامًا للسبيل، وجامعًا، ورتب له خطيبًا، واحتفل بالمكان غاية الاحتفال، وأنشأ به بساتين، ووقف على الخانقاة أوقافًا كثيرة، يفضل ريعها عن كفايتها، ثم زاد بعد ذلك عِدَّة الصوفية، فجعلهم مائة، ووَصَلَهم بالافتقاد الوافر، ورتب لهم في كل شهر عند وصوله إلى الخانقاة سبعة آلاف درهم يخص الشيخ منها بألفي درهم، وتفرق منها خمسة آلاف على الفقراء، وليس هذا المال من الوقف، وإنما هو من ديوان الخاصّ السلطاني، وسمع السلطان في هذا اليوم أحاديث نبوية على قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[٢] بقراءة ولده القاضي عز الدين عبد العزيز، وانفصل هذا الجمع بأوفر الصلات، وأتم الإنعام.

ذكر رَوْك[٣] الإقطاعات بالمملكة الحلبية

وفي هذه السنة أمر السلطان برَوْك المملكة الحلبية، فإنه لم يتأخر من الممالك بغير رَوْك سواها، وتوجه لذلك الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي[٤] الناصري مُدَبِّر المملكة في العشر الأخر من جمادى الآخرة وصحبته مكين الدين إبراهيم بن قَرْوِينَة مُستوفِي الصحبة، وكان عوده في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان، وحصل الانتصاب لتحرير الرَّوْك، وتعين فيه جملة أقطع عليها جماعة من المماليك السلطانية والحلقة.

---

(١) مجد الدين الأقصرائي: هو موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائي الحنفي، مجد الدين، توفي سنة ٧٤٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٤).

(٢) بدر الدين محمد بن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٣) الروك: في الاصطلاح التاريخي معناه مسح أرض الزراعة في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال. والروك مأخوذ من الكلمة القبطية «روش» ومعناها قياس الأرض بالحبل (انظر خطط المقريزي ١/ ٨٧ ـ ٨٨، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٦٥، السلوك للمقريزي ٢/ ١٤٦).

(٤) هو الأمير علاء الدين مغلطاي بن عبد الله الجمالي، كان يلقب بخرز، ومعناه: ديك، توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٤).

وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أزْبَك صاحب البلاد الشمالية، وهم: الأمير سيف الدين بُكْمَش الجَمَدار الظاهري، والأمير بدر الدين بيليك السَّيفي السَّلاري المعروف بأبي غُدَّة، وصحبتهما رسله ورسل الأشْكَرِي[١]، ومعهم التقادم، فسمع السلطان رسالتهم، وأنعم عليهم، وأعادهم صحبة رسله، وهم الأمير سيف الدين أضجلي أحد الأمراء، وسيف الدين قَرادَمُر أحد المقدمين، وأصحبهم الهدايا، فتوجهوا، وكان خروج رسل الملك أُزْبَك من بين يدي السلطان في يوم الاثنين السادس من شوال، بعد أن شملهم بالخلع والإنعام، وتوجهوا في يوم الجمعة عاشر الشهر.

ذكر وفاة الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري[٢]

وفي ليلة الخميس المسفر صباحها عن خامس عشرين شهر رمضان المعظم من هذه السنة كانت وفاة الأمير ركن الدين بِيبَرْس الدَّوادار المنصوري، وهو من أكابر مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون في زمن إمرته، وكان رحمه الله تعالى أجلّ الأمراء في وقته لا يَتَخطّاه أحد، ولا يجلس في مرتبته، وهو رأس الميسرة، وتَأمَّر في ابتداء الدولة المنصورية السيفية، ثم فوّض السلطان الملك المنصور إليه نيابة قلعة الكَرَك كما تقدم، ونقل منها إلى الديار المصرية في جملة الأمراء في الدولة الأشرفية الصّلاحية، وَرُدَّ إليه في ابتداء الدولة الناصرية أمر ديوان المكاتبات لصغر سن السلطان في ذلك الوقت، وتنقّل في المراتب؛ فكان ينوب عن السلطنة الشريفة في الغَيْبة، ثم ولي نيابة دار العدل الشريف، ونظر البِيمارِسْتان المنصوري في أول الدولة النّاصِريّة الثالثة، ثم فوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة استقلالاً، ثم قُبض عليه بعد ذلك، وأُفرج عنه كما تقدم ذكر ذلك، واستقر في جملة أكابر الأمراء، وجلس رأس الميسرة، وكان رحمه الله تعالى مُولعًا بالتاريخ، يُديم مطالعته، وألّف كتابًا سماه: «زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلدًا، وتاريخًا مختصرًا منه في مجلدين، واستعان على تأليفه في ابتدائه بكاتبه

---

(١) الأشكري: هو ملك بيزنطية (انظر النجوم الزاهرة ٩/ ٣٤٣).

(٢) هو ركن الدين بيبرس (ويقال بكبرس) بن عبد الله المنصوري الخطائي الدواداري، له من المصنفات: «تفسير القرآن»، «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٢٣٣، الدرر الكامنة ١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٣).

شمس الرئاسة بن كبر النصراني[١]، وكان الأمير ركن الدين رحمه الله تعالى من بقايا الخير.

ولما مات فرق السلطان إقطاعه، فأعطى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مُدَبِّر الدولة وأستاذ الدار العالية منه خمسين فارسًا على ما بيده، وقدّمه على ألف فارس، وأعطى بقيته للأمير سيف الدين بَلَبان السَّنائِي[٢] أحد أمراء العشرات وأمَّرَه بطبلخاناه، وجعل الأمير عز الدين أَيْدَمُرَ الخَطِيري[٣] رأس الميسرة.

وفي سنة خمس وعشرين أيضًا كان عيد الفطر بالقاهرة، والديار المصرية في يوم الأربعاء، وأما دمشق فإن الناس ارتقبوا الهلال في ليلة الثلاثاء فلم يره أحد، فصلّى الناس التراويح، وسَحَّر المُؤَذِّنون بالمواذن، وأصبح الناس صيامًا إلى نصف النهار، ثم ثبت على الحكام بدمشق رؤية الهلال، ونودي بذلك، وأفطر الناس بقية النهار، وصلّى صلاة العيد في يوم الأربعاء قضاء بالجامع الأموي دون المصلّى، نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي...

وفيها توجه الحاج على العادة وكان رحيل المحمل السلطاني من بركة الجب في يوم الجمعة سابع عشر شوال، وأمير الحاج الأمير سيف الدين طُرْجِي[٤] أمير مجلس، فلما وصل الناس إلى منزلة السويس، حصل حر شديد مفرط، وقلّ الماء، فرجع من الناس خلق كثير من الأعيان وغيرهم.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بِيبرس الحاجب وتنقل الأمراء في الإقطاعات والتَّقادِم

قد ذكرنا في هذه السنة أن الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب[٥] عاد من بلاد اليمن بمن معه من العسكر في يوم السبت الثالث من ذي القعدة، وأنه خلع عليه وعلى الأمراء في يوم الاثنين خامس الشهر، وقدم تقدمته، وأهدى للأمراء هداياه، وقبل ذلك منه، ثم أعطى بعد ذلك بأيام قَبَاء الشِّتاء بطَرْدوحش.

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، والدرر الكامنة ١/ ٥١٠.

(٢) توفي سنة ٧٥٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٩٣).

(٣) توفي سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، الدرر الكامنة ١/ ٤٢٩).

(٤) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٧).

(٥) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٠٨).

فلما كان في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر المذكور، وحضر إلى الخدمة السلطانية على عادته، ومشى في خدمته نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون[١] إلى دار النيابة، فقال له نائب السلطنة: قد برز أمر السلطان أن تتوجه إلى نيابة السلطنة وتقدمة العسكر بغَزّة، فظنّ أن المراد بذلك القبض عليه، فامتنع من قبول الولاية، فقال: ما المملوكِ من هذا القبيل، أنا من جملة أوشاقية[٢] السلطان، فإن كان قد رسم فيّ بأمر فمن الآن، وحلّ سيفه بيده، فغضب نائب السلطنة منه، وعوّقه بدار النيابة، واجتمع بالسلطان، وأخبره بذلك، فأرسل السلطان إليه الأمير سيف الدين قِجْلِيس[٣] أمير سلاح، وأمره بأنه متى أصرّ على الامتناع يقتله، فكلمه في ذلك وراجعه، فصمم على أنه لا يتوجه إلى غزة أبدًا، واختار الاعتقال على ذلك، فاعتقل في برج عند باب القلعة وخرج إقطاعه للأمير سيف الدين طيْنال، وفرق إقطاع طينال، فكمل للأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي مائة فارس، وقدم على ألف، وأمر في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر اثنان بطبلخاناة، أحدهما: على ما بقي من الإقطاع المحلول عند تنقل الأمراء، والثاني: على إقطاع الأمير سيف الدين، ونقل بَهادُر البدري إلى نيابة السلطنة بقلعة الكرك، وتضمن تقليده أن يكون نائبًا عن أولاد السلطان بالكَرَك، ونقل نائب السلطنة بالكَرَك إلى نيابة السلطنة وتقدمة العسكر بغزة المحروسة.

وعرض السلطان في يوم الخميس المذكور المماليك الكتابية، وعيّن منهم سبعين مملوكًا لخدمة ولده الذي تقرر إرساله إلى الكَرَك.

وفيها، في يوم الاثنين ثالث ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على الأمير أبي إسحاق إبراهيم ولد أخي الخليفة أبي الربيع سليمان[٤]، واعتقاله، وسبب ذلك أنه تزوج امرأة مغنية تعرف بفالِحَة بنت المغربية، فوقفت أمها للسلطان، وشكته، وادعت أنه تمم على الشهود، وأحضر امرأة غيرها، وسماها باسمها، واستأذنها الشهود

---

(١) هو أرغون بن عبد الله الناصري، توفي بحلب سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٨، ٣٣٩، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٨، الدرر الكامنة ١/ ٣٥١).

(٢) أوشاقية: ويقال أيضًا «أوجاقية» بالجيم المعجمة، واحدها «أوشاقي» أو «أوجاقي» وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة (صبح الأعشى ٥/ ٤٢٧).

(٣) هو قجليس بن عبد الله، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٧، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٣٩، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) هو الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان بن أحمد، أبو الربيع، توفي بقوص سنة ٧٤٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٤١).

فأذنت، وعقد العقد عليها ولم تكن هي، وادعى هو أن العقد إنما وقع عليها دون غيرها، وشهد الشهود بصحة العقد، فأمره السلطان بطلاقها، وأرسل إليه يقول: إنكم من بيت الخلافة، ولا يصلح أن تفعل مثل هذا، وزواج هذه عارٌ عليك، فصمم على ألا يفارقها، واعتذر أنه يمسكها خشية أنه إذا فارقها تعود إلى الغناء، فيكون عليه عارها، فرسم السلطان أنها لا تمكن من الغناء، وراجعه في طلاقها، فأصرّ وأبى ذلك، وامتنع منه، فأمر باعتقاله، فاعتقل بالبرج في قلعة الجبل، وادعى أنه غَرِم عليها نحو خمسين ألف درهم، وأمر السلطان أن يستخرج ذلك منها، واعتقلت عند الشيخة البغدادية، وأخذوا جوارِيَها المغنيات، وبقي الأمير إبراهيم المذكور في الاعتقال أيامًا أفرج عنه نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُن، وأرسل إليه مع بَهادُر العلمي نائب الفتاح يقول له: رسم لك السلطان إن لم تطلقها حصل لك ما لا يمكن أن تستدرك فارطه، وأشهد عليه بطلاقها، فعرفه بَهادُر المذكور الرسالة، وشدّد عليه الجواب، وما فارقه إلى أن شهد عليه بطلاقها، فتوجه بهادر، وعرف الأمير سيف الدين أرْغُن أنه تلفظ بالطلاق، فشاور عليه السلطان فأفرج عنه حين أذن، ففارقها وعادت لما كانت عليه من الغناء.

ذكر توجه السلطان إلى الصيد والإفراج عمن نذكر من الأمراء

وفي هذه السنة في يوم الخميس الثالث عشر من ذي الحجة توجه السلطان إلى الصيد المبارك، وقصد جهة البحيرة.

ولما قارب ثغر الإسكندرية أرسل الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مدبر المملكة وأستاذ دار العالية إلى الثغر، وأمره بالإفراج عن الأميرين سيف الدين طاجار المحمدي(١)، وسيف الدين كيتم(٢)، وأمره أن يكشف أحوال الأمراء المعتقلين بالثغر، ومن اختار أن يكتب قصة فليستصحبها معه، ففعل ذلك، وكتب الأمراء قصصًا بما أحبُّوا، وامتنع الأمير بهادر النقوي(٣) أمير جاندار ـ كان ـ والأمير سيف الدين بَلَبان الشمسي من كتابة قصة، وقالوا: نحن لنا ذنوب عند السلطان، وبأي وجه نرفع إليه قصة، فلما عاد الأمير علاء الدين إلى السلطان عرض على السلطان قصص الأمراء

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٢١٣، النجوم الزاهرة ٩/١٤٦، السلوك للمقريزي ٢/٢٦٩.

(٢) توفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٠).

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٤٩٨، السلوك ٢/٢٦٩.

وأخبره بامتناع الأميرين المذكورين من كتابة قصة، وبما قالاه، فشملتهما عواطفه، وأمر بالإفراج عنهما، وأحضرا إلى المخيم المنصوري، وخلع على الأمراء الأربعة المذكورين، وحضروا إلى القاهرة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذي الحجة.

وفيها في ليلة الأحد ثامن عشر صفر توفي الشيخ الإمام المقرىء المتقن المعمر تقي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي المصري الشافعي المعروف بالصائغ[1] شيخ القراءات في وقته، وكانت وفاته بمصر، وصلّى عليه يوم الأحد بعد صلاة الظهر بالجامع العمري بمصر، وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جَمَاعة الشافعي، ودفن بالقرافة، ومولده في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وستمائة بمصر، قرأ القرآن على الكمال الضرير، وسمع الحديث من الرشيد العطار، وابن البُرهان، وغيرهما رحمهما الله تعالى.

وتوفي في ليلة السبت مستهل شهر ربيع الأول الخطيب جمال الدين محمد بن الخطيب تقي الدين محمد بن مجد الدين الحسن بن الشيخ تاج الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن القَسْطَلاني[2] خطيب جامع قلعة الجبل المحروسة، وإمام الجامع العمري بمصر، ودفن من الغد بالقرافة، سمع من ابن خطيب المِزَّة، وصحب الشيخ العارف أبا محمد المَرْجاني، وحجّ معه ولازمه، ومولده سنة ثلاث وستين وستمائة تقريبًا، وخطب بالجامع العمري بمصر بعد والده في سنة خمس وتسعين وستمائة، وخطب والده بالجامع المذكور قبله ثماني عشرة سنة.

ولما مات الخطيب جمال الدين، عرض جماعة من الخطباء على السلطان وخطب كل منهم بجامع القلعة، ومنهم من خطب في مجلس السلطان في غير يوم الجمعة، ثم استقرت الخطابة بجامع قلعة الجبل باسم ابن أخيه الخطيب تقي الدين بن الخطيب نور الدين، واستقر ولده الخطيب زين الدين أحمد بن جمال الدين في خطابة جامع عمرو بمصر، وإمامته ونظره.

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٢٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠.
(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٧٣.

وتوفي في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة الشيخ الفقيه المفتي شرف الدين يونس بن أحمد بن صلاح القَرْقَشَنْدِي الشافعي[١]، أحد المفتين، وأحد المعيدين بزاوية الإمام الشافعي بالجامع العمري بمصر، ودفن من يومه بالقرافة، رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الآخر، توفي القاضي الفقيه الإمام العالم سراج الدين يونس بن عبد المجيد بن علي بن داود الهُذَلي الشافعي الأَرْمَنْتِي[٢] قاضي الأعمال القوصِيَّة، وكانت وفاته بظاهر مدينة قوص بالمشهد الذي يسكنه الحكام بقوص من لسعة عقرب، ومولده بأرمَنْت من عمل قوص في المحرم سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان فقيهًا فاضلاً أصوليًا وله مصنفات وشعر لَيّن، رحمه الله تعالى.

وتوفي في الليلة المسفرة عن ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة القاضي فتح الدين محمد بن القاضي كمال الدين أحمد بن عيسى السَّعْدي المعروف بابن القَلْيُوبي[٣] وكان فيما مضى ينوب عن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعي في بعض الأعمال، ونقل إلى قضاء صَفَد نيابة عنه أيضًا، ثم صرف منها، وعاد إلى الديار المصرية، فناب في أعمال الدقهلية والمرتاحية عن قاضي القضاة المشار إليه، ونقل إلى قضاء أبْيار، ثم عزل وعطل مدة، حتى ضاق عليه الحال، فتوجه إلى مدينة المحلة، وناب بها عن القاضي عز الدين الحاكم بالغربية مدة تقارب أربع سنين، ثم فارق الجهة، وحضر إلى القاهرة وهو مُضْعَف، فاستمر به المرض، واشتدت علته إلى أن مات رحمه الله تعالى، ودفن بالقرافة، وكان رحمه الله رجلاً كريمًا فاضلاً جيد الشعر والنثر، جيد البديهة لَسِنًا حسن الفكاهة والمحاضرة والمذاكرة، رحمه الله وإيانا، وكان بينه وبين نجم الدين سعيد بن أحمد بن عيسى الغِماري المالِكي[٤] عداوة مستحكمة ثابتة على الحكام، فلما أيس من الحياة أرسل إليه، وسأله الصلح عما مضى والمُحالَلَة، ففعل، ثم لم تطل حياة نجم الدين المذكور بعده، فإنه مرض أثر ذلك، ومات بالمدرسة الصالحية النجمية في ليلة الخميس ثاني جمادى الآخرة ودفن من الغد بمقبرة باب النصر رحمه الله تعالى وإيانا.

---

(١) ويقال أيضًا «القلقشندي» باللام بدل الراء، وقلقشندة بلدة في القليوبية بمصر. (وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٨٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٥، السلوك ٢/ ٢٧٠).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/٤٨٨.

(٣) ابن القليوبي: هو محمد بن أحمد بن عيسى بن رضوان، القاضي فتح الدين الكناني العسقلاني الشافعي، المعروف بابن القليوبي، له من المصنفات «نتف الفضيلة في نتف اللحية الطويلة» (كشف الظنون ٦/ ١٤٥).

(٤) توفي سنة ٧٢٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٣٤).

وتوفي في عشية الأربعاء قبل أذان المغرب في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة الشيخ المحدّث نور الدين أبو الحسن علي بن جابر بن علي بن موسى بن خلف بن منصور بن عبد الله بن مالك الهاشمي الشافعي المعروف باليَمَنِيّ[١] شيخ الحديث بالقبة المنصورية، وكانت وفاته بالمدرسة الظاهرية، وصلّى عليه في يوم الخميس بالمدرسة المذكورة، وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ثم صلّى عليه بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بالقرافة. ومولده بمكة شرّفها الله تعالى، في سنة ثمان وأربعين وستمائة تقريبًا، وكان رحمه الله جيد النظم، ورحل إلى الهند وغيره من البلاد، وخلف كتبًا كثيرة جدًا.

وولي تدريس الحديث بعده بالقبة المنصورية الشيخ العالم زين الدين عمر بن أبي الحزم بن يونس الشافعي المعروف بابن الكَتّاني[٢] وجلس لإلقاء الدروس بالقبة في يوم الأربعاء رابع عشر رجب، وتكلم الناس عليه لقبوله الولاية، فإنه لم يشتهر بطلب الحديث، ولا الاشتغال به وأما فقهه ومعرفته بمذهب الإمام الشافعي فغير مدفوع عنه.

وفيها في ليلة الخميس السادس من شعبان كانت وفاة الشيخ الصالح الإمام العالم القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ كمال الدين أبي العباس أحمد بن الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن يحيى بن أبي المجد اللخمي المعروف جده جمال الدين بالأسيوطي[٣]، قاضي الكرك بها، وكان قد وليها في شهر رجب سنة ست وتسعين وستمائة من قبل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجِين المنصوري، واستقر بها إلى أن مات، ومولده بالقاهرة المعزية بالجامع الظافري المعروف الآن بالفاكِهي عند أذان الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، ودفن بمقبرة تعرف بالقبر الجديد، وكان رحمه الله فقيهًا عالمًا متقنًا محققًا من أجلّ مشايخ القراءات، والعلوم مقتصدًا في مأكله وملبسه وسائر أحواله، وكان من قضاة العدل والحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يخشى سطوة ملك، تساوى عنده في الحق الآمر والمأمور، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٥.

(٢) توفي سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١٦١).

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

وتوفي في ليلة السبت الثاني والعشرين من شعبان الشيخ الفاضل العالم البارع شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي[(١)]، ثم الدمشقي كاتب الإنشاء بدمشق، وصلّى عليه بجامعها، ثم بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون، بتربة بناها لنفسه، ومولده في شعبان سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان رحمه الله رجلاً فاضلاً، كاتبًا أديبًا شاعرًا، انتهت إليه كتابة الإنشاء، ولو قيل فيه كاتب الشرق والغرب لاستحق ذلك غير مدفوع عنه ولا منازع فيه، وكان يكتب التقاليد والتواقيع والمناشير من رأس القلم[(٢)]، ويأتي فيها بما لم يأت به سواه مع الفكرة والرويّة، رحمه الله تعالى، وولي بعده كتابة الإنشاء بدمشق ولده شمس الدين محمد، رسم له بذلك في شهر رمضان من السنة باعتناء نائب السلطنة بالشام به، وقدم على غيره لهذه الوظيفة مع توفر الأعيان والأكابر بدمشق.

وفيها في يوم الخميس رابع شهر رمضان توفيت الست الجليلة فالحة ابنة الملك الأمجد، مجد الدين حسن بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، ودفنت من يومها بالتربة المعظمية بسفح قاسيون، وتعرف هذه المتوفاة «بداردينار» وكان لها بر ومعروف وإيثار، رحمها الله تعالى.

وتوفي في يوم الجمعة خامس شهر رمضان الأمير شرف الدين عيسى بن عمر البِرْطاسِي الكردي[(٣)]، أحد أمراء الطبلخاناة بمدينة طرابلس، وشادّ الدواوين بها، وكان رحمه الله تعالى رجلاً شهمًا شجاعًا مقدامًا، وأنشأ مدرسة بمدينة طرابلس، رافقته في سنة عشر وسبعمائة بطرابلس، فكان حسن المرافقة، كثير الاحتمال، رحمه الله تعالى.

وفيها في الرابع والعشرين من شهر رمضان قتل الأمير السيد الشريف ناصر الدين أبو عامر منصور بن الأمير عز الدين جَمّاز بن شِيحة الحسيني[(٤)] أمير المدينة النبوية

---

(١) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي، الحنبلي، كاتب الدست المعيد بدمشق الشام، المعروف بابن فهد، ولد سنة ٦٤٤هـ، وتوفي سنة ٧٢٥هـ، من تصانيفه: «أهنى النائح وأسنى المدائح» قصائد في مدح النبي ﷺ، «حسن التوسل في صناعة الترسل»، «مقامات العشاق»، «منازل الأحباب ومنارة الألباب» (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/ ٤٠٧، الدرر الكامنة ٤/ ٣٢٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠).

(٢) أي لديه بديهة وقدرة على الارتجال.

(٣) ولد سنة ٦٦٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٨).

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٦٩، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤.

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قتله شاب من أقاربه بالبرية، وكان قد كبر وأسن، وولي إمرة المدينة بعده الأمير بدر الدين كُبَيْش[١].

وفيها في يوم السبت ثالث ذي القعدة توفي نجم الدين أبو بكر بن القاضي بهاء الدين محمد بن الشيخ بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، كان بالمدرسة الناصرية بالقاهرة وكان يقول: إن ما يخاطب به يستغني الآن عن إعادته، ولم يزل يدعي ذلك إلى آخر وقت، رحمه الله تعالى، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر غرق مدينة بغداد

وفي جمادى الأولى من هذه السنة زادت دجلة زيادة عظيمة، وكان ابتداء الزيادة في يوم السبت ثالث عشر الشهر، واستمرت الزيادة إلى يوم الثلاثاء، وعظمت فغرق دائر البلد جميعه، بحيث أنه ما بقي أحد من الناس يستطيع الخروج من البلد، وانحصر الناس واجتهدوا في عمل السُّكُورة، وتساوى في العمل الرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، ونَقَل الترابَ ـ حتى الحكام والقضاة والمترفين ـ في حُجُورهم وبقيت بغداد جزيرة في وسط الماء، واستدار الماء عليها، ودخل الماء الخندق وكان له هدير عظيم، وغرق ما حول البلد، وخربت أماكن كثيرة منها البازار[٢]، وسائر التُرَبِ والبساتين والسواد[٣] والجانبين المتقابلين لسوق الخيل والدكاكين والساباط[٤]، وخرب بستان الصاحب جميعه، والمصلى، وبعض الكُمُش، وسائر البساتين التي حوله، ووصل الماء إلى الثلاث نخلات، ووقعت قبة الجعفرية، وخربت مدرسة عبيد الله، وغرقت خزانة الكتب التي بها، وكانت فيما قيل تساوي عشرة آلاف دينار، وسَطَّح الماءُ وعلا بمقدار عشر قامات، وكان الإنسان إذا وقف لم ير ما امتد بصره إلا ماء وسماء، وفَتَح في الرَّقَّة وخَرّب إلى الحارِثية، وما ترك طُرْفه قائمة، وغرق خلق كثير من المزارعين الذين كانوا عند زروعهم ممن لم يحسن السباحة، وغرقت بساتين الرَّقَّة مثل بستان القاضي، وبستان ابن العفيف، والخاتوني، وبستان جمال الدين الدكروالي، وغرقت بساتين الحارثية، مثل: بستان الخادم، وابن الأمليس، وسديد الدولة، وبقي الناس في خلقة ضَيِّقة،

---

(١) في النجوم الزاهرة ٩/٢٦٤: كبيش بن منصور بن جماز الحسيني المدني.

(٢) البازار: السوق (فارسية).

(٣) السواد: جماعة الشجر والنخل والنبات.

(٤) الساباط: سقيفة بين حائطين أو دارين، يمر من تحتها طريق نافذ.

وامتنعوا من النوم ليلاً والمعايش نهارًا من شدة الزَّعقات، وخوف الغرق، وغلق البلد ستة أيام، والناس ينظرون إلى الخندق والشط هل زاد أو نقص، وتحول كثير من الناس إلى المحال العالية مثل تل الزينية، وتل اللوازه بالمُستَضِيئِيَّة، وأسْكِرت سائر أبواب المحال العالية ببغداد، وأبواب الخانات بها، وسد باب خان السلسلة، وبقي إذا انفتح من الخندق فتح تداركه الناس بالسد، والناس يدورون في الأسواق مكشوفي الرؤوس، والرقعات الشريفة على رؤوسهم، وهم يضجُّون بالبكاء ويَخِرُّون إلى الله تعالى، ويسألونه كشف هذه الحادثة عنهم، ووَدّع بعض الناس بعضًا، ولو انخرق إليهم من الخندق أدنى شيء لغرقوا، وزاد الماء في الخندق حتى ركب القنطرة الجديدة بسوق الخيل، وعلا فيها أكثر من ذراعين، وبلغ الماء إلى شباك دار شيخ المشايخ، ولو لم يُعَلَّ السور بالسِّكْر كان انقلب إلى البلد، ولولا ما حصل من هذه البُثُوق ـ بثق الخَنْدق، وبثق الرَّقَّة، وبثق التعسار ـ لغرقت بغداد.

قال الناقل: ومع ذلك فإلى عشر سنين ما يمكن عمارة ما خرب بالجانب الغربي؛ فإنه غرق أكثره، وغلت الأسعار أيامًا، ثم نقص الماء بعد أن أشرف الناس على الهلاك، وكان ابتداء النقص يوم الأربعاء، وذكر القاضي ابن السباك[(١)]: أن جملة ما خرب من البيوت بالجانب الغربي خمسة آلاف وستمائة بيت. نقلت ذلك ـ وبعضه بمعناه ـ من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي، وقال في تاريخه: إنه كتبه من كتاب ابن الساعي[(٢)]، وأنه اختصر بعضه.

ومن غريب ما وقع في ذلك الغرق أن مقبرة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل[(٣)]

---

(١) ابن السباك: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) ابن الساعي: لعله تاج الدين أبو طالب علي بن الحسين بن عثمان بن عبد الله البغدادي خازن الكتب المستنصرية المعروف بابن الساعي الفقيه المؤرخ الشافعي، ولد سنة ٥٩٣هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٤هـ (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٧١٢).

(٣) أحمد بن حنبل: هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، أصله من مرو، ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ، وتوفي سنة ٢٤١هـ. له من التصانيف: «تفسير القرآن»، «طاعة الرسول ﷺ»، «كتاب الأشربة الصغير»، «كتاب الإيمان»، «كتاب الرد على الجهمية»، «كتاب الزهد»، «كتاب العلل في الحديث»، «كتاب الفرائض»، «كتاب الفضائل»، «كتاب المسائل»، «كتاب المسند» يحتوي على أربعين ألف حديث، «كتاب المناسك»، «كتاب مناقب الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه»، «كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن». (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٤٨، البداية والنهاية ١٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٦، الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٢٥٣، كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ١٨، حلية الأولياء ٩/ ١٦١١، كتاب الوفيات ص١٧٦، تهذيب الكمال ١/ ٢٢٦).

تهدمت قبورها، ولم يبق إلا قبر الإمام أحمد فإنه سلم من الغرق، واشتهر هذا الأمر بها واستفاض.

قال: وورد كتاب شمس الدين بن مُنْتاب يتضمن أن الماء حمل خَشَبًا عظيم الخلقة، وزنت خشبة منه فكانت بالبغدادي ستمائة رطل، وجاء على الخشب حَيّات كبار خلقتهن غريبة منها ما قتل، ومنها ما صعد في النخل والشجر، وكثير منها مات، ولما نضب الماء أنبت على الأرض نباتًا صورته صورة البطيخ، وشكله على قدر الخيار وفي طعمه محوحة، وأشياء غريبة الشكل من النبات. قال: ومحلة الصَّراصرة صعد الماء في دورها إلى الوسط وأكثر وأقل، وذكر أشياء من أمر الغرق اختصرتها، قال: وأما محلة الرقيقة فإنها بقيت أرضًا بغير حائط قائم، وغرقت مقبرة معروف، وتُربة بنت المُنْذر وغيرها.

هذا ملخص ما حكاه مما لخصه هو، والله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

واستهلت سنة ست وعشرين وسبعمائة بيوم الأحد الموافق لثاني عشر كيهك من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر بالوجه البحري من الديار المصرية يتصَيَّد، والديار المصرية المحروسة في غاية ما يكون من الرخاء والأسعار في غاية الرُّخْص، والخبز العلامة ثمانية عشر رطلًا بدرهم نقرة، والقمح الطيب الإردب بثمانية دراهم، والشعير الإردب بخمسة دراهم، والفول بستة دراهم، وسائر الحبوب رخيصة الأسعار إلى الغاية.

هذا، وقد قَصّر النيل في سنة خمس وعشرين وسبعمائة بحيث أن غالب بلاد الصعيد الأعلى صارت قليلة الري جدًا، ومع ذلك فإن الأسعار في سائر أعمال الديار المصرية رخيصة متساوية، أو متقاربة في الرخص.

وفي شهر المحرم من هذه السنة عاد السلطان من الوجه البحري وتوجه إلى «دَهْشور» من الأعمال الجيزية، وعاد إلى قلعة الجبل فصعد إليها في الساعة الثالثة من يوم الخميس ثاني عشر الشهر، وأقام بها إلى يوم السبت الحادي والعشرين من الشهر، وتوجه في بكرة هذا النهار إلى جهة سرياقوس، ودخل الخانكاه الناصرية، ورسم بزيادة عدد القراء بها، لتكملة مائة، ثم توجه منها وعَدَّى إلى بر الجيزية، ورسم بإنشاء جسر بها يحبس الماء ويصرف منه إلى جهة البحيرة، وأمر الأمراء ورجال الحلقة المنصورة بعمله، فعمل في صفر.

وتوجه السلطان إلى جهة الحمامات، وتصيد، ثم عاد إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من نهار الخميس ثاني شهر ربيع الأول، وتوجه إلى جهة سرياقوس، ثم توجه منها إلى الجيزية، ورتب من أحوال المباشرين ما نذكره، وتوجه من صَفَد إلى جهة الكحيليات لصيد الرخمة، فتصيد وعاد إلى قلعة الجبل في العاشرة من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

ذكر وصول رسل مُتَمَلِّك الحبشة

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل مُتَمَلِّك الحبشة(١)، ومثلوا بين يدي المقام الشريف السلطاني بقلعة الجبل المحروسة في يوم الاثنين سادس عشر المحرم.

وكان مضمون رسالتهم عن ملكهم أنه بلغه أن كنائس النصارى بالديار المصرية غُلِّقَت، وأن النصارى في ذِلَّةٍ وهوان، والتمس من السلطان الإحسان إلى النصارى، وفتح كنائسهم، وأنهم متى لم يعاملوا بالإحسان عامل من ببلاده من المسلمين وما بها من المساجد كما يفعل بأهل دين النصرانية وكنائسهم بالديار المصرية، وذكروا عنه أنه قال: نيل مصر الذي به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها مجراه من بلادي، وأنا أسده، ونحو هذا من الكلام، فضحك السلطان من كلامهم، واستقل عقل مرسلهم، وعوملوا بغاية الإطِّراح والإهانة، وعادوا إلى مرسلهم.

ذكر عزل وتولية من يذكر من أرباب المناصب الديوانية بالدولة الناصرية

وفي هذه السنة - في يوم الجمعة ثامن عشر صفر - رسم بإفصال القاضي شمس الدين عبد الله المعروف بغِبْريال من نظر النُّظّار والصحبة بالديار المصرية، وخلع عليه، ورسم له بعوده إلى دمشق على عادته الأولى، عوضًا عن كريم الدين عبد الكريم المعروف بكريم الدين الصغير، وتوجه على خيل البريد في يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، فوصل إلى دمشق في بكرة نهار الاثنين ثامن عشر من الشهر، ورسم بطلب كريم الدين إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى المخيم المنصور

---

(١) متملك الحبشة: هو جبرة مصقل، واسمه الأصلي (عمد سيون) ومعناه ركن صهيون، وكان حكمه من سنة ٧١٢هـ حتى ٧٤٣هـ، (انظر السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠، صبح الأعشى ٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩).

السلطاني بالجيزية في يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الأول، وكانت الشاعَةُ[1] قد قويت أن السلطان يُفَوِّض إليه نظر الدولة، ومن الناس من أشاع أنه يلي الوزارة، ومنهم من أشاع أنه يفَوِّض إليه نظر الوكالة السلطانية، وقلق الناس لذلك قلقًا عظيمًا، فلما وصل إلى المُخَيَّم السلطاني لم يجد قبولاً من السلطان، وأنكر عليه إنكارًا شديدًا، ثم رسم له بملازمة داره بظاهر القاهرة، وطلب القاضي شرف الدين عبد الرحمٰن الخَطِير ـ وهو ناظر ديوان نائب السلطنة الشريفة ـ في ليلة الثلاثاء سادس شهر ربيع الأول، وفوّض إليه نظر النُّظّار والصحبة، على عادة شمس الدين غِبْريال، وخلع عليه، وذلك بمنزلة سَفْط من الأعمال الجيزية، وباشر ذلك، واستمر كريم الدين بمنزله بخط بركة قرموط، ومنع من فتح بابه، واجتماع الناس إليه إلى أن عاد السلطان إلى قلعة الجبل، فكُتِبَ له توقيع بإشارة الوزير الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي بنظر منفلوط، ورُسِم له بتشريف على عادة نُظّار الجهة، فقلق لذلك قلقًا شديدًا، فاعْتَنَى به نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون، وخاطب السلطان في أمره، وأوضح له التحامل عليه، فقطع التوقيع، وبطل ما كان قد رسم به فيه.

وفي ليلة الاثنين رابع شهر ربيع الآخر توجه كريم الدين المذكور إلى الحَمّام فرصده جماعة إلى أن خرج منه، فوثبوا عليه، وضربه أحدهم بسيفه، فالتقى الضربة بدبوسه، ثم هرب بفرسه، فسلم، وقتل اثنان ممن كانوا معه، وجرح الثالث، فأما أحد المقتولَيْن فاحتمله الرجال الذين وثبوا على كريم الدين، فلم يعلم خبره، وأما الثاني فأثخنته الجراحة فمات في يوم الاثنين صبيحة تلك الليلة، وأمسك الذي جرح وكان من الجند من أصحاب كريم الدين ممن كان معه في الحمام، وقيل له: إنما كنت مع الذين قصدوا قَتْله، فاعتقل بسجن الولاية، وكان معه أيضًا نفران من خير الحَرَسة، فمسكوا وقُيِّدوا، واستعملوهم في جملة المقيدين بالعمارة السلطانية، وسأل كريم الدين عقيب هذه الحادثة أن يفسح له في سكن القاهرة، فرسم له بذلك فسكنها.

فلما كان في يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر رسم السلطان بطلب كريم الدين وأولاده، فطُلِبوا إلى قلعة الجبل أشد طلب، وأحْضِروا بين يدي الوزير، فطالبه بالمال، فقال: لا مال عندي، وأنا ما تعرضت لمال السلطان، وأشباه هذا من الكلام، فضُرِب ابنه سعد الدين فرج الله بالمَقارع، وسلم ولده الصغير لمتولي القاهرة، وعُرِض كريم الدين على الضرب فوجد في كُمِّه أوراقًا تشتمل على مرافعات، وقصد

(١) الشاعة: أي الشائعة.

الوزير أخذها منه، فامتنع، وقال: لا أسلمها إلا للسلطان، فطولع السلطان بذلك، فأرسل الأمير سيف الدين بَلَبان الساقي إليه، فتسلمها منه، وعرضت على السلطان، فطلب الأمير علاء الدين مُغْلطاي الجمالي الوزير، وأمره بالإفراج عن أولاد كريم الدين، وأن يكون هو عنده في مكان من داره، ففعل ذلك في اليوم المذكور، ثم رسم في بقية النهار بعقوبة كريم الدين، وتقريره على المال، فسَعَّطَه بالخل والجير، فناله من ذلك شدة عظيمة، حتى خرج الدم من حلقه، ورسم عليه وعلى ولده سعد الدين فرج الله في بقية يوم السبت والأحد، ثم رسم بإخراجهما وإرسالهما إلى ثغر أسوان، فسأل كريم الدين أن يكون اعتقاله بغَزّة، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وأخرج من باب القرافة من في أول يوم الاثنين الحادي عشر، شهر ربيع الآخر، هو وولده سعد الدين، فتسلمهما متوليا القاهرة ومصر وشادّ الصناعة، فتوجهوا بهما وحُجِّلا في سَلُّورَة[١]، وأرسلا إلى ثغر أسوان، وفُرِّق بينهما، فجعل كل منهما في خُنّ[٢] لم يجتمع أحدهما بالآخر على ما بلغني من المحقق للحال إلى أن وصلا إلى ثغر أسوان، فكان وصولهما في ليلة الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، فأنزل بدار تعرف بدار يحيى، وهي الدار التي أنزل بها من قبل كريم الدين الوكيل، فبات بها بعض ليلة الاثنين، ويوم الاثنين بكماله، وتوفي في ليلة الثلاثاء في الثلث الأول، ودفن في بقية الليلة، ولم يصل عليه، ودفن بين مقابر المسلمين وأهل الذمة، أخبرني بذلك القاضي شرف الدين شُعَيب بن القاضي جمال الدين يوسف السّيُوطي، وهو الحاكم بثغر أسوان يومئذ.

ذكر وصول رسل الملك المجاهد متملك اليمن بالتَّقادِم

وفي هذه السنة في سادس عشرين شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب الملكية السلطانية الناصرية رسل الملك المُجاهد سيف الإسلام علي[٣] ـ المتقدم ذكره ـ وهو صاحب زَبِيد وتَعِزّ وما مع ذلك من بلاد اليمن، وهما: جمال الدين محمد بن يونس، وابن الجَلال، وأحضرا على أيديهما كتاب مرسلهما، وتَقادِم وتحفًا سنية، فمثلا بين يدي السلطان بعد عوده من الصيد، وقدّما له ما أحضراه، فقبل ذلك، وأنعم عليهما بما جرت به عادة أمثالهما، وأعيدا إلى مرسلهما.

---

(١) السلّورة: نوع من السفن.

(٢) الخنّ: مقصورة صغيرة تكون في السفن، يأوي إليها الركاب من البرد وعند النوم.

(٣) هو الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، نور الدين، توفي سنة ٧٦٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٤٩).

ذكر إرسال الأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي إلى أبي سعيد

وفي يوم الخميس سابع جمادى الأولى من هذه السنة جهز السلطان الأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي الناصري ـ أحد الأمراء مقدمي الألوف ـ برسالة وهدية جليلة إلى الملك أبي سعيد صاحب العراقين وخُراسان وما مع ذلك، فتوجه في هذا التاريخ، وأقام بحلب مدة، ثم رسم بتوجهه، فتوجه وكان عوده إلى الأبواب السلطانية في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شعبان من السنة المذكورة.

ذكر إرسال السلطان ولده إلى الكَرَك المحروس

قد تقدم أن السلطان الملك الناصر فَوّض نيابة الكَرَك إلى الأمير سيف الدين بَهادُر البدري، فتوجه إليها، وتضمن تقليده أن يكون نائبًا عن أولاد مولانا السلطان بالكَرَك، وجهز أيضًا من ذكرنا من المماليك السلطانية، ولَهِج الناس أن السلطان قد عزم على إرسال ولده إلى الكرك.

فلما كان في يوم الخميس السادس من جمادى الأولى، توجه السلطان في أوائل النهار من قلعة الجبل إلى القصور بسَرياقوس بعد أن قرر خروج ولده الأكبر الأمير أحمد[1] ـ وسنه يومئذ نحو ثماني سنين ـ فتوجه من قلعة الجبل وقت المغرب من ليلة الجمعة السابع من الشهر، وتوجه في خدمته الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري ـ أمير سلاح ـ ليوصله إلى الكَرَك، وأصحبه السلطان خزانة المال فيما بلغني، وجهزها صحبة الأمير سيف الدين طَقْتَمُر الخزندار، وتوجهوا إلى الكرك، ووصلوا إليها، واستقر ولد السلطان بها، وعاد الأمير سيف الدين قِجْلِيس، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ذكر تجديد عمارة البيمارستان المنصوري والقُبّة والمدرسة

وفي مستهل هذه السنة حصل الشروع في إصلاح البِيمارستان المنصوري والقبة والمدرسة، وكان الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي ـ ناظر الأوقاف قبل ذلك ـ قد رسم ألا يترك أحدًا من المرضى بالبيمارستان، ومن هو في أوائل يُخَرَج منه، فخلت بذلك الأواوين من المرضى وأكثر القاعات، ولم يبق بالبيمارستان إلا المَمْرُورون

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٢٩٤.

وبعض المرضى، وحصل الشروع في العمارة، فأصلحت العمران وجُدّد البياض والأدهان، ونحت ظاهر القبة والمدرسة والمئذنة بالأزامِيل، واستمرت العمارة إلى أواخر جمادى الأولى، وخلت الأواوين الأربعة بالبيمارستان من مستهل هذه السنة إلى يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى، فرُسِم في هذا اليوم بتنزيل المرضى، وكان جملة ما صرف على هذه العمارة يقارب ستين ألف دينار.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى بُرْقة

وفي هذه السنة حضر الأمير فايد بن غَرّاز ومعه سليمان بن خالد، وأنهيا إلى السلطان أن العربان ببرقة منعوا الزكاة، وهي مقطعة لهما، ولمن معهما من رُفْقَتِهما، بمنشور سلطاني، فأمر السلطان بطائفة من العسكر المنصور، وهم: الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر العمري وهو المقدم على الجيش، والأمير سيف الدين بَلَكْتَمُر الإبراهيمي السلحدار، والأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا الطويل، والأمير عز الدين أَيْدَمُر العلائي الجُمَقْدار، وجماعة من أجناد الأمراء من كل أمير مائة جنديان، ومن كل أمير طبلخاناه جندي واحد، وتوجهوا في العشر الأَخَر من جمادى الأولى، وكان عودهم في يوم الاثنين السابع والعشرين من شعبان من السنة.

ذكر تفويض نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين طَيْنال[1] الحاجب

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وسبعمائة، فوّض السلطان نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين طَيْنال الحاجب ـ وهو حاجب الميسرة ـ عوضًا عن الأمير بهادر قَرَطاي الصالحي العلائي، وخلع عليه، ولم يجر في التشريف على عادة من تقدمه، فإنه خلع عليه طَرْدوَحْش، وعادة نائب هذه المملكة الأطلس المعدني بالطُّرْز الزَّرْكش، ونقل الأمير بَهادُر قَرَطاي[2] المذكور إلى دمشق من جملة الأمراء مقدمي الألوف، وأقطع إقطاع الأمير بدر الدين بَكْتُوت القرماني، وكان القرماني قد اعتقل في تاسع عشرين جمادى الأولى، وسبب اعتقاله أنه رسم له أن يتوجه إلى مُتَمَلّك سيس، لإحضار ما عليه من القطيعة في كل سنة، فاستعفى من ذلك، وامتنع من الإجابة إليه، فرسم باعتقاله بدمشق، فاعتقل بقلعتها.

(١) توفي سنة ٧٥٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٣٢).
(٢) توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٧٢).

واستمر بالاعتقال بها إلى ليلة الأحد حادي عشر شوال سنة سبع وعشرين، فأخرج من القلعة مقيدًا، وحمل على خيل البريد إلى الديار المصرية بعد أن وَكَّل وأوصى، ولما فوضت نيابة السلطنة بالمملكة الطرابُلُسِيّة إلى الأمير سيف الدين طَيْنال المذكور تألّم لذلك، ومرض وانقطع في بيته أيامًا، ثم عوفي، وتوجه إلى المملكة الطَّرابُلُسِية على خيل البريد في يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور، وتوجه طلبه بعد ذلك، فكان خروج طلبه من القاهرة يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب، من السنة، ورسم بقيمة الإقطاع الذي كان لطَيْنال بالديار المصرية ـ وهو الإقطاع الذي انتقل إليه عن الأمير ركن الدين بِيبَرْس الحاجب ـ فأعطى الأمير سيف الدين قَوْصُون منه «فاتوا وتقليفه» من الأعمال الفيومية زيادة على إقطاعه، وكمل له بذلك مائة فارس، وقُدِّم على ألف، وأعطى أُطْفِيح ودَلْجَة للأمير ناصر الدين محمد بن نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون الناصري عوضًا عن إقطاعه، وخرج إقطاعه الذي كان بيده لغيره.

ذكر الجلوس بخانقاة الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بالقرافة

وفي يوم الثلاثاء ثامن رجب الفرد من السنة حصل الجلوس بخانقاة أنشأها الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي الناصري بالقرافة، وحصل الاحتفال بذلك، وحضر مشايخ الصوفية وغيرهم، ومُدّ سماط عظيم، ورُتِّب في مشيختها وإمامتها الشيخ شمس الدين الرومي المعروف بالطُّويل، وكان قبل ذلك إمامًا بصُفَّة النفيس بالخانقاة الصلاحية بالقاهرة، ورتب له على وظيفة المشيخة في كل شهر مائة درهم، وعن الإمامة خمسون درهمًا، ورُتِّب بها عشرون صوفيًا، لكل منهم في الشهر ثمانون درهمًا من غير خبز ولا طعام ولا غيره.

ذكر وصول رسل التتار وأقارب السلطان إلى الأبواب السلطانية

وفي يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الأمير جوبان نائب الملك أبي سعيد، وصحبتهم ـ من أقارب السلطان ـ سيف الدين طايَرْبُغا وولده يحيى، فمثل الرسل بين يدي السلطان في هذا النهار، وشملهم الإنعام بالتشاريف، وكان طايَرْبُغا وولده قد وصلا في يوم الأحد ثالث عشر الشهر، ومثلا بين يدي السلطان، وذكر طايَرْبُغا ما دلَّ على صدق دعواه في انتسابه، فلما كان في يوم الخميس سابع عشر الشهر أمر السلطان الأمير سيف الدين طايَرْبُغا بطَبْلخاناه، وأمر

ولده يحيى بعشرة، وأمر أيضًا أخا الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بطَبْلخاناة، وأمر أحد المماليك بحلب وذهبوا بشعار الإمْرَة من المدرسة المنصورية بالقاهرة على العادة، وخُلِع على الرسل مرة ثانية، وأعيدوا إلى مرسلهم في يوم الخميس رابع عشرين الشهر.

ذكر وصول رسل جُوبان(١)

ثم وصل من جهة الأمير جُوبان المذكور في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر رمضان ثلاثة من أعيان الصوفية على خيل البريد برسالة مضمونها: السؤال في مُصاهرة السلطان لابن الأمير جُوبان على إحدى بناته، فمثلوا بين يدي السلطان، وكان من جملة سؤالهم عن مُرسلهم، أن يكون الذي يمشي بينهم في الخِطْبة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان قد اعتقل على ما نذكره، فأجيبوا عن ذلك أن المذكور في حبس الشرع لأمور صدرت عنه، ورسم السلطان للقاضي بدر الدين أن يسمع كلام الرسل، فسمع كلامهم، ثم أعيدوا إلى مرسلهم على خيل البريد.

وفيها في يوم الاثنين السابع والعشرين من شعبان أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين بَلَبان طُرْنا(٢) نائب المملكة الصَّفَدِية كان، وكان في الاعتقال منذ انفصل من نيابة السلطنة بالمملكة الصَّفَدِية، وأنعم عليه بإمرة طبلخاناة بدمشق، ثم نقل بعد ذلك إلى مقدمة ألف.

وفيها ـ في سلخ شعبان ـ احترقت مدينة بَيْسان من غَوْر الشام حريقًا فاحشًا، وأكثر عمارتها بالقصب، فلذلك أسرعت النار فيها. ثم طفئت، وأعيد ما احترق.

ذكر وصول صاحب حصن كَيْفا إلى الأبواب السلطانية، وعوده إلى بلاده، وخبر مقتله ومُلْك أخيه

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية في قلعة الجبل المحروسة الملك الصالح صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر شادي ابن الملك المُوَحِّد تقي الدين عبد الله بن الملك المعظم غياث الدين طُورانْشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل

---

(١) جوبان: هو الأمير الكبير نائب المملكة القانية، (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٤١).
(٢) توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٤، السلوك ٢/ ٢٧٤).

ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وهو صاحب حصن كَيْفا.

وكان سبب حضوره أنه أقام مدة سنين لا ينزل من الحصن إلى نواب الملك أبي سعيد إذا حضروا إلى البلاد على جاري عاداتهم، بل يرسل إليهم الهدايا والتقادِم الجارية بها العادة، وتحصن بالحصن، ثم شرع بنَهْب من ينفرد من التتار، ويتعرض إلى إقطاع الأمير الذي أُقْطِع له أعمال حصن كيفا، فشكاه الأمير المُقْطَع إلى الملك أبي سعيد، وقال: إنه يأخذ أكثر ما يتحصل من إقطاعه، وأنهى إلى الملك أنه عصي بالحصن، وأنه لا ينزل إلى نائب الملك إذا وصل، فكتب أبو سعيد إلى نائبه في تلك الجهة يستعلم منه: هل هو في الطاعة على عادته أو خرج عنها؟ فأجابه النائب أنه على عادته في الطاعة، وأنه ينزل إليه إذا حضر إلى جهة الحصن، وأرسل النائب إلى الملك الصالح المذكور يعرفه ما ورد عليه، وما أجاب به، وقدم إليه تقادم كثيرة بسبب ذلك، وواعده أنه إذا وصل إلى الحصن ينزل إليه، ثم خاف على نفسه أنه إن نزل إليه قبض عليه، فحضر إلى الأبواب السلطانية، وأشاع أنه إنما حضر بسبب الحج. أخبرني بذلك المحقق للحال، وهو الأمير علاء الدين علي بن الملك المُوَحِّد، وهو عم الملك الصالح.

ولما وصل الملك الصالح إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية شمله الإنعام السلطاني بتشريف طَرْدوَحش(١) بقصب وكَلُوته(٢) بزَرْكش، وحياصة(٣) ذهب، وثلاثين ألف درهم، ورسم له بعوده إلى مملكته بحصن كَيْفا، وكتب على يده كتابًا إلى الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد يتضمن الوصية به، والإحسان إليه، وأعاده في العشر الأوسط من الشهر على خيل البريد إلى دمشق المحروسة، وتوجه منها على خيله بمن حضر معه من إلزامه، وكتب السلطان إلى نائب السلطنة بحلب المحروسة أن يجرد

---

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٨٨).

(٢) كلوتة: هي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة وتسمّى: كلفة وكلفتاه وكلفته، استحدث لبسها في مصر سلاطين الأيوبيين فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٨٨).

(٣) حياصة: هي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان، وفي زمن الناصر محمد بن قلاوون وصلت قيمة الحياصة إلى ثلاثمائة دينار، وعملت من خالص الذهب، وكثيرًا ما كانت ترصع بالجواهر، وكان السلطان يفرق منها كل سنة عددًا كبيرًا (الخطط التوفيقية ص١٣٨).

معه من العسكر الحلبي خمسمائة فارس ومائتي فارس من العربان ـ من كلاب ـ إلى أن يصل إلى مأمنه، فتوجهوا معه إلى أن شارف بلاده وأعادهم وحال وصوله إلى الحصن وثب عليه أخوه شقيقه الملك العادل محيي الدين فقتله، وملك الحصن بعده، وكتب إلى الملك أبي سعيد، وأنهى إليه أنه إنما قتله لأنه كان باغيًا، وتوجه إلى الديار المصرية، وحضر إلى البلاد بعسكر، وقصد إفساد البلاد، فأقره الملك أبو سعيد على الحصن، وطالع الملك العادل محيي الدين هذا الأبواب السلطانية بذلك، واعتذر عن قتله، وجَهَّز مختصرًا يتضمن سوء سيرته، وطالع نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس أيضًا بمثل ذلك، وسأل الصفح عنه فيما فعل، وأنه إنما قُتِل لسوء سيرته، ومَنْ قتله من أهله، فسكن الحال في ذلك.

وفيها في يوم الخميس خامس شوال توجه الأمير سيف الدين أرْغُن الناصري[١] نائب السلطنة الشريفة إلى الحجاز الشريف هو وأولاده وابنة السلطان زوجة ولده، الأمير سيف الدين وأولاده، وكان استقلال ركابه من قلعة الجبل في الثالثة من هذا اليوم.

وفيها ـ في يوم الجمعة خامس ذي القعدة ـ قرىء بالجامع على المنابر بالقاهرة ومصر مثال[٢] شريف سلطاني، مضمونه الإعفاء من المظالم، وطرح الأصناف على التجار والمُبْعَثين، ومنع الولاة من الضرب بالمقارع، وإبطال المقدمين من أبواب الولاة.

ذكر خبر مولود وُلد في هذه السنة

أخبرني ركن الدين عمر بن الشيخ الصالح ناصر الدين محمد بن الشيخ الصالح العارف إبراهيم بن مِعْضاد بن شَدّاد بن مالك بن ماجد القشيري الجعبَري[٣] نفع الله به وببركات أسلافه الصالحين أنه ولد له في الساعة الرابعة من الليلة المسفرة عن رابع عشر ذي الحجة سنة ست وعشرين وسبعمائة ولد من موطُوءَته سماه موسى، وأنه أقام في بطن أمه منذ حملت به سنتين وشهرين، وحين وضعته لم ترَ معه دمًا كثيرًا ولا ماءً، بل أزمَت على عادة الحوامل لتسعة أشهر وأنه وضع قوى اليافُوخ غير ليّنة على عادة المولود حين يولد، قال: وطلعت أسنانه لشهرين وثلاثة أيام من مولده، وقال: ومشى في غُرّة الشهر الخامس من مولده، أنشأه الله تعالى نشأة صالحة.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٨٩، السلوك للمقريزي ٢/٢٧٧.
(٢) المثال: تقدم التعريف به.
(٣) ولد بقلعة جعبر سنة ٦٥٠هـ، وتوفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٩٧).

ذكر خبر إجراء الماء إلى مكة شرّفها الله تعالى

وفي هذه السنة أجريت عين إلى مكة شرّفها الله تعالى، وكان وصول الماء إليها في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وسبعمائة وذلك أن الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد صاحب العراقين وخراسان اهتم بهذا الأمر اهتمامًا عظيمًا، وأرسل بعض التجار بجملة كثيرة من المال، يقال: إنه نحو ثلاثمائة ألف درهم، فبذلها في إجراء الماء إلى مكة، ويسّر الله تعالى ذلك له، وحصل الظفر بآثار العيون القديمة التي كانت أجريت فيما سلف من السنين، وقطع التراب الذي كان يمنع جريان الماء، ونظف فجرت العين بماء كثير.

وهذه العين قد كانت قديمة، وقد ذكر الشيخ أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي[1] في (أخبار مكة) ما أجري في الحرم من العيون، فقال: ما ملخصه ـ وبعضه بمعناه ـ: أن رجلًا من بني سليم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بمكة: يا أمير المؤمنين، أقْطِعْني خَيْف الأرين حتى أملأه عجوة، فقال له عمر: نعم، فبلغ ذلك أبا سفيان بن حرب، فقال: دعوه فليملأه ثم لينظر أينا يأكل جناه، فبلغ ذلك السلمي فتركه، فكان أبو سفيان يدعيه، ثم كان معاوية هو الذي عمله وملأه عجوة، وذلك أنه أجرى في الحرم عيونًا عشرة، واتخذ لها أخْيافًا[2]، فكانت حوائط فيها النخل والزرع، ذكرها أبو الوليد في كتابه، قال أبو الوليد: واتخذت بعد ذلك ببَلْدَح عيون سواها، ومنها: عين سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ببَلْدَح، وحائط سفيان، والخَيْف الذي أسفل منه.

قال ثم انقطعت عيون معاوية تلك وذهبت، فأمر أمير المؤمنين هارون الرشيد بعيون منها فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها الرشاد؛ لتسكب في المَأجلين[3] اللّذين أحدثهما الرشيد بالمَعْلَى، ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام، ثم كان الناس بعد تقطع هذه العيون في شِدّة الماء، وكان أهل مكة والحاج يلقون من ذلك المشقة، حتى أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر وأقل.

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق المزيقي، أبو الوليد الأزرقي المكي، المتوفى سنة ٢٢٣هـ، صنف تاريخ مكة شرّفها الله تعالى وأخبارها وجبالها وأوديتها، كتاب كبير (كشف الظنون ٦/ ١١).

(٢) الخيف: هو ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء.

(٣) المأجل: مستنقع الماء.

فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن المنصور، فأمرت في سنة أربع وتسعين ومائة بعمل بركتها التي بمكة، فأجرت لها عينًا من الحرم، فجرت بماء قليل لم يكن فيه ري لأهل مكة، وغرمت في ذلك غرمًا عظيمًا، فبلغها ذلك، فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيونًا من الجبل، فأرسلت بأموال عظيمة، ثم أمرت من نَزَف عينها الأولى، فوجدوا فيها فسادًا، فأنشأت عينًا أخرى إلى جنبها، وأبطلت تلك العين، وعَمِلت هذه العين بأحسن ما يكون من العمل، حتى بلغت ثنية جبل، وإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل إلا بعمل شديد، وضرب في الجبل، فأمرت بالجبل فضُرِب فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لا يمكن أن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عزّ وجل لها، وأجرت فيها عيونًا من الحِلِّ منها: عين من المُشَاش واتخذت لها بِرَكًا تجتمع فيها السيول إذا جاءت، ثم أجرت لها عيونًا من حُنَين، واشترت حائط حُنَيْن، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدًا يجتمع فيه السيل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد قبلها.

قال: ثم إن أمير المؤمنين أمر صالح بن العباس في سنة عشرين ومائتين أن يتخذ لها بركًا من السوق خمسًا، لئلا يَتَعَنَّى أهل أسفل مكة والثَّنِيَّة وأجْيادين والوسط إلى بركة أم جعفر، فأجرى عينًا من بركة البَطْحاء عند شِعْب ابن يوسف من وجه دار ابن يوسف، ثم تمضي إلى بركة عند الصَّفا، ثم تمضي إلى بركة عند الحَنَّاطِين، ثم تمضي إلى بركة بفُوَّهَة سكة الثنية دون دار أُوَيْس، ثم تمضي إلى بركة عند سوق الحطب بأسفل مكة، ثم تمضي في سرب ذلك إلى مَأجِل أبي صَلاية، ثم إلى المَأجِلَين اللذين في حائط ابن طارق بأسفل مكة، فهذه العين التي أجريت الآن إنما هي من ذلك الأصل القديم.

وكان السلطان الملك الناصر قد عزم على إجراء هذه العين، فصرفه بعض أرباب الأمر من أتباعه عنها، وقال: «إن هذا متعذر الإمكان» فلما أجريت الآن تألَّم السلطان من كون هذه الحسنة العظيمة لم تَجْرِ على يديه.

ذكر عدة حوادث كانت بدمشق
في سنة ست وعشرين وسبعمائة خلاف ما ذكرنا

في هذه السنة وصل إلى دمشق في يوم الأحد منتصف المحرم الأمير محمد بن عبد القادر بن يوسف بن الأمير أبي القاسم عبد العزيز بن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، فرسم نائب السلطنة بالاحتياط عليه، وطُولِع في أمره الأبواب السلطانية، ورُسِم أن يعود إلى أهله، فرجع، ولم يدخل مدينة دمشق.

قال الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه عنه: وهو رجل حسن فيه أدب ومعرفة وديانة، اجتمعت به وسألته عن مولده، فذكر أنه قبل دولة اليهود بسنة، وكانت دولة اليهود سنة تسعين وستمائة، وسألته عن مولد أبيه، فذكر أنه قبل سنة براق في الدولة العباسية، قال: وسألته عن مولد جَدّه، فذكر أنه في واقعة بغداد كان عمره سبع سنين أو ثمان سنين، وذكر أن جد والده عبد العزيز توفي قبل أخذ بغداد بسنة أو نحوها.

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول ضربت عنق ناصر بن أبي الفضل بن إسماعيل الهيتي المقرىء الصالحي بسوق الخيل بدمشق، وسبب ذلك أنه ثبت عليه الزندقة، وكان المذكور حسن الصوت بالقراءة، وصحب ابن الباجُرْبَقّي، وابن المِعمار وغيرهما، فانحلت عقيدته، وشهد عليه في ذلك بما تقدم، فهرب إلى بلاد الروم، ثم عاد إلى حلب في أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وحضر عند قاضي القضاة بها كمال الدين ابن الزَّمْلَكانِيّ الشافعي، وتاب وقبل توبته، وحقن دمه، ثم عاد إلى ما كان عليه من الزندقة فحمل إلى دمشق، وثبت عليه ما تلفظ به، فحكم بإراقة دمه فنسأل الله العافية في ديننا وفي دنيانا.

وفيها في يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الأولى ضُرِبَت عنق «تُوما بن عبد الله النصراني» من قرية الحِمّان، كان قد أسلم على يدي الشيخ تقي الدين ابن تيمية قَديمًا، وجاور بالمئذنة الشرقية بجامع دمشق مدة، ثم ارتد، وتكلم في القرآن بكلام، وقامت البينة عليه بذلك عند قاضي القضاة شرف الدين المالكي بدمشق، فحكم بإراقة دمه، فقتل.

ذكر اعتقال الشيخ تقي الدين بن تيمية

وفي هذه السنة - في يوم الاثنين السادس من شعبان - اعْتُقِل الشيخ تقي الدين أحمد بن تَيْمِيَةَ[1] بقلعة دمشق المحروسة، حسب الأمر الشريف

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تيمية، الحافظ تقي الدين، أبو العباس الحراني، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه المحدّث، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ، له العشرات من المصنفات (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٥ - ١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠، فوات الوفيات ١/ ٣٥، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٧/ ١٥، دول الإسلام ٢/ ١٨٠).

السلطاني، واعْتُقِل معه أخوه زين الدين عبد الرحمٰن[١]، ومنع من الفُتْيا واجتماع الناس به.

وسبب ذلك أنه أفتى أنه لا يجوز زيارة قبر رسول الله ﷺ، ولا قبر إبراهيم الخليل، ولا غيرهما من قبور الأنبياء والصالحين، وتوجه بعض أصحابه وهو الشمس محمد بن أبي بكر[٢] إمام المدرسة الجَوْزية في هذه السنة لزيارة البيت المقدس، فرقي منبرًا في حرم القدس الشريف، ووعظ الناس وذكر هذه المسألة في أثناء وعظه، وقال: ها أنا من هنا أرجع ولا أزور الخليل، وجاء إلى نابُلُسَ، وعمل مجلس وعظ، وأعاد كلامه، وقال: ولا يزار قبر النبي ﷺ، ولا يزار إلا مسجده، فقصد أهل نابلس قتله، فحال بينهم وبينه مُتَوَلِّيها، وكتب أهل القدس وأهل نابلس ودمشق بما وقع منه، فطلبه قاضي القضاة شرف الدين المالكي، فتغيب عنه، وبادر بالاجتماع بقاضي القضاة شمس الدين محمد بن مسلم الحنبلي قاضي الحنابلة، وتاب عنده، وقبل توبته، وحَقَن دمَه، ولم يُعَزِّره.

فنهض الفقهاء بدمشق عند ذلك، وتكلموا على الشيخ تقي الدين، وكتبوا فُتْيا تتضمن ما صدر منه، وذكروا هذه المسألة وغيرها، فأفتى العلماء بكفره، وعرضت الفتيا على نائب السلطنة بالشام، الأمير سيف الدين تَنْكِز، فطالع السلطان بذلك، فجلس السلطان في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر رجب بالميدان الذي هو بذيل قلعة الجَبل، وأحضر القضاة والعلماء، وعرض عليهم ما ورد في أمره من دمشق، فأشار قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جَماعة الشافعي باعتقال تقي الدين المذكور، فرسم باعتقاله ومنعه من الفتيا، ومنع الناس من الاجتماع به، وأن يُؤَدَّب من هو على معتقده، وتوجه البريد بذلك، فوصل إلى دمشق في يوم الاثنين سادس شعبان، فاعتقل، وقرىء المثال السلطاني بعد صلاة الجمعة العاشر من الشهر على السدة بجامع دمشق.

---

(١) كان يشتغل بالتجارة مع ما كان له من علم وفضل، حبس نفسه مع أخيه تقي الدين بالإسكندرية وبدمشق محبة له وإيثارًا لخدمته، ولد سنة ٦٦٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٩).

(٢) ابن القيم: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي الإمام شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ، له العشرات من المصنفات (انظر: كشف الظنون ٦/ ١٥٨ ـ ١٥٩، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠، السلوك ٢/ ٢٧٣).

ثم طلب قاضي القُضاة القزويني جماعة من أصحاب تقي الدين في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر إلى المدرسة العادلِيَة، وكانوا قد اعتقلوا بسجن الحكم، فادعى على العماد إسماعيل صهرَ الشيخ جمال الدين المِزِّي أنه قال: إن التوراة والإنجيل لم يُبَدَّلا، وأنهما كما أنزلا، فأنكر، فشهد عليه بذلك، فضرب بالدِّرّة، وأشهر وأطلق.

وادعى على عبد الله الإسكندري، والصلاح الكتبي، وغيرهما بأمور صدرت منهم، فثبت ذلك عليهم، فضربوا بالدرة، وأشهروا في البلد.

وطلب الشمسي أمام المدرسة الجَوْزية وسئل عما صدر منه في مجلس وعظه بالقدس ونابلس، فأنكر ذلك، فشهد عليه من حضر مجلسيه بما تلفظ ممن كان قد توجه من عدول دمشق لزيارة البيت المقدس، فثبت ذلك عليه فضرب بالدِّرّة، وأشْهِر على حمار بدمشق والصالحية، وقُيِّد، واعتُقل بقلعة دمشق، فلم يزل في الاعتقال إلى يوم الثلاثاء العشرين من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين، فأُفرج عنه في هذا اليوم، وحضر إلى قاضي القضاة الشافعي، فشرط عليه شروطًا، فالتزمها، وأُطلق.

وفي هذه السنة في ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الشيخ عز الدين بن أبي زكريا يحيى بن الشيخ الخطيب شمس الدين إبراهيم بن شيخ الإسلام عز الدين أبي محمد بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، وكانت وفاته بالقاهرة بسكنه بحارة بهاء الدين، ودفن بالقرافة بتربة جده الشيخ عز الدين، وتوليت تجهيزه ودفنه بوصية منه إليّ، وكان قد أوصاني ألا أدفنه إلا خارج باب التربة، فدفنته هناك حيث أوصى، وكانت قد طالت مَرْضَتُه، مرض في أثناء شوال، ومولده بدمشق في يوم الأحد عاشر صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، وسمع من النجيب فراس بن العسقلاني، وابن الأوحد وغيرهما، وحدّث قبل وفاته، وكان رحمه الله تعالى يباشر الأشغال الديوانية، والأوقاف، وآخر مباشراته شهادة الحوائج خاناه السلطانية بقلعة الجبل المحروسة.

وفيها في ثامن شهر ربيع الأول توفي الشيخ الصالح شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف القدوة السيد الشريف أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف الشاذلي الحسني، وكانت وفاته بدمنهور الوَحْش، وهو من المشايخ الصلحاء المشهورين. ويقال: إنه كان في صحبة والده لما توجه إلى الحجاز الشريف. ومات في سَمُرَة عَيْذاب بمنزلة حَمْثِيرة في سنة ست وخمسين وستمائة، وكان إذ ذاك صغير السن رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة السبت سادس جمادى الآخرة توفي القاضي شرف الدين عبد الهادي بن زنبور، وهو إذ ذاك يباشر نظر خزائن السلاح بالقاهرة المحروسة. ولي ذلك بعد انفصاله من نظر الدواوين بالديار المصرية، ودفن من الغد بالقرافة. ومولده في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى رجلاً عاقلاً قليل الشر، وهو خال القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة.

وفيها في العشرين من شهر رجب توفيت الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الملك المعز فخر الدين يعقوب بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهي في درجة الملك الصالحي نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، ودفنت بقاسيون، ومولدها تقريبًا في سنة خمسين وستمائة، ولم يكن في البيت الأيوبي أقرب إلى السلطان الملك العادل منها، رحمهما الله تعالى.

وفيها في عشية نهار الثلاثاء تاسع عشر شهر رمضان توفي الأمير صلاح الدين أبو الحسن محمد بن الملك الأمجد مجد الدين حسن بن الملك الناصر داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وكانت وفاته بظاهر دمشق ببستان النعامات، ودفن في يوم الأربعاء بالتربة المعظمية بقاسيون، وهذه التربة هي دَيْرُ مُرّان المذكور في أشعار المتقدمين، ومولده في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وستمائة سمع حضورًا من والده وروى عنه، وسمع من ابن البخاري، ومن الشيخ عز الدين الفاروثي[(١)] وغيره، وأسمع، رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الخميس ثالث عشر شوال توفي ببعلبك الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى بن الشيخ الإمام القدوة الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن اليونيني البعلبكي الحنبلي[(٢)]، ودفن ضحى يوم الخميس بمقبرة باب سطحا، ومولده في بكرة الجمعة ثامن صفر سنة أربعين وستمائة بالديار الفاضلية بمدينة دمشق. سمع من والده ومن الشيخ شرف الدين الحسين الأربلي، وشيخ الشيوخ شرف الدين الحَمَوِي، وابن عبد الدايم، وحدّث عنه بصحيح مسلم، وسمع بالديار المصرية من الشيخ رشيد الدين العطار وغيره، وكان له

---

(١) عز الدين الفاروثي: هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور بن علي بن غنيمة، الفاروثي الواسطي، ولد بواسط سنة ٦١٤هـ، وتوفي بها سنة ٦٩٤هـ، (انظر ترجمته الوافية في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٥٥ وما بعدها).

(٢) له من المصنفات: «الذيل على مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي»، «الشرف الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر»، «مختصر مرآة الزمان» (كشف الظنون ٦/ ٤٧٩).

تعلق بالتاريخ، اختصر (مرآة الزمان) لابن قزاوغلي[١] وذَيَّل عليه، وقد نقلنا عنه مواضع يسيرة في كتابنا هذا، نقلت وفاته من تاريخ الشيخ علم الدين بن البِرْزالي رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة توفي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحي الحنبلي[٢]، قاضي الحنابلة بدمشق، وكانت وفاته بالمدينة النبوية، وكان قد توجه لقصد الحج في هذه السنة، فمرض عند رحيل الركب من منزلة العلا، واشتد به المرض، فيقال أنه سأل الله تعالى أن يصل إلى المدينة النبوية، ويزور رسول الله ﷺ قبل وفاته، فاستجاب الله له، ووصل إلى المدينة في يوم الاثنين قبل وصول الركب بيوم، فسلّم على رسول الله ﷺ، وصلّى بالحرم النبوي، وبات في تلك الليلة ببعض الرُبُط، ومات من ليلته، فدفن بالبقيع بجوار قبر عَقِيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ومولده بالصالحية بظاهر دمشق في سنة اثنتين وستين وستمائة، وولي القضاء بدمشق في ثامن صفر سنة ست عشرة وسبعمائة، بعد وفاة قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي، وسلك في ولايته سيرة السلف الصالح، ولم يغير هيئته ولا لباسه، ولا جدّد مركوبًا بسبب ولاية القضاء، وكان يمشي غالبًا من الصالحية إلى دمشق، ولا أضاف إلى نفسه ولاية مدرسة، ولا نَظَر وقف بمعلوم، وكان رحمه الله تعالى رجلاً صالحًا دَيِّنًا خَيِّرًا فاضلاً عالمًا محدثًا، سمع الحديث من ابن عبد الدايم، وابن البخاري، وغيرهما، فسمع من مائتي شيخ وعشرة شيوخ، وسمع بمكة والمدينة والقدس ونابلس وبعلبك، وحضر عدة غَزَوات وفتوحات منها طرابُلُس وعكّا وقلعة الروم، وخَرَّج له الشيخ جمال الدين المزّي[٣] أربعين حديثًا تُساعِيًا، وخَرَّج له غير ذلك.

---

(١) هو سبط ابن الجوزي: هو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله التركي البغدادي الحنفي، نزيل دمشق، ولد سنة ٥٨١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٤هـ، من تصانيفه: «الانتصار لإمام أئمة الأمصار»، «إيثار الإنصاف»، «الإيضاح لقوانين الإصلاح»، «تذكرة الخواص من الأمة في ذكر مناقب الأئمة»، «تفسير القرآن»، «تلخيص الجامع الكبير للشيباني» في الفروع، «جوهرة الزمان»، «شرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج»، «كنز الملوك في كيفية السلوك»، «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، «معادن الإبريز» في التاريخ، «منتهى السول في سيرة الرسول ﷺ» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٢٥٨.

(٣) جمال الدين المزي: هو يوسف بن عبد الرحمٰن المزي الشافعي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج، توفي سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، البداية والنهاية ١٤/ ١٩١).

وفيها في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة توفي الأمير مجد الدين يعقوب ابن الملك الأشرف شرف الدين عبد الحق بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب[١]، وكانت وفاته ببستانه بالمِزَّة ظاهر دمشق. وصُلِّيَ عليه بجامع المِزَّة في يوم عرفة، ودُفن بمقبرتها، رحمه الله تعالى، وكان رجلاً خَيِّرًا كثير التواضع، وله مكارم، كان يحفظ شعرًا كثيرًا.

وفيها في ذي الحجة توفي الأمير بدر الدين حسن بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر محمد بن الملك المنصور[٢] بحماة وهو أخو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وهو من جملة الأمراء بحماة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة بيوم الخميس الموافق لأول كيهك من شهور القبط.

ذكر عزل الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة، وانتقاله إلى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية

قد ذكرنا في سنة ست وعشرين وسبعمائة أن الأمير سيف الدين أرْغُون الناصري نائب السلطنة الشريفة توجه إلى الحجاز الشريف في يوم الخميس خامس شوال، وصحبته ابنة السلطان زوجة ولده الأمير سيف الدين أبي بكر، وزوجة السلطان دَلَنْبِيه وهي التي وصلت من جهة الملك أزْبَك.

فلما كان في هذه السنة عاد بهم من الحجاز الشريف بعد قضاء الحج والمناسك والزيارة، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في الساعة الأولى من نهار الأحد حادي عشر المحرم من هذه السنة، وحال وصوله رسم السلطان للأمير سيف الدين قجليس الناصري أمير سلاح بالقبض عليه وعلى ولده الأمير ناصر الدين محمد، فلما عبر إلى الخدمة السلطانية، وساز في الدِّهْليز، قبض عليه الأمير سيف الدين المشار إليه وعلى ولده، وأخذ سيفيهما، وعدل بهما إلى قاعة رُسم أن يكونا بها، وأعلم السلطان بذلك، فأرسل السلطان إليه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي وأرسل له مأكولاً، ولم يضيق عليه. وبات تلك الليلة بالقاعة، فلما كان في يوم الاثنين أحضره السلطان بين يديه، وخلا به، وحَدَّثه طويلاً، وبَكَيا، وأفرج عنه وعن ولده، وخلع على الأمير

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٤.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٧.

سيف الدين تشريفًا على عادته، ورسم له أن يتوجه إلى نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية عوضًا عن الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا، فخرج من بين يدي السلطان من ساعته، في عشية نهار الاثنين، وصحبته الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي أحد الأمراء مقدمي الألوف، وتوجها إلى دمشق فوصلاها في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم.

وكان السلطان ـ حال القبض على الأمير سيف الدين أرْغُون ـ أرسل الأمير سيف الدين أَلْجاي الدوادار على خيل البريد إلى حلب، لإخراج الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة الشريفة منها، وإحضاره إلى الأبواب السلطانية، وإخلاء مساكن النيابة للأمير سيف الدين أرْغُون، فتوجه ووصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم، وتوجه منها إلى حلب، وعاد هو والأمير علاء الدين الطُّنْبُغا فوصلا إلى دمشق على خيل البريد في عشية نهار الخميس ثاني عشرين الشهر، فوصلوا كلهم الجمعة، بدمشق، وتوجه الأمير سيف الدين أرغون إلى حلب، فوصل إليها في يوم الجمعة سلخ المحرم.

وتوجه الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا إلى الأبواب السلطانية فكان وصوله في يوم السبت مستهل صفر، وخلع عليه السلطان على عادته تشريفًا وحِياصة، وأنعم عليه بخيل، وأسكنه بقلعة الجبل، وأنعم عليه بإمرة مائة فارس من جملة الإقطاع المحلول عن الأمير سيف الدين أرغُون، وقدمه على ألف، وفرق السلطان إقطاع النيابة، فأعطى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي منه «مُنْيَة بني خصيب» وكمل الأمير سيف الدين طايَربُغا مائة فارس، وتقدمه ألف من جملة تقدمه نائب السلطنة، فزادت التقادم تقدمة، فكَمُلَت بهذه التقدمة خمسة وعشرين تقدمة، وأعطى السلطان بقية إقطاع النيابة زيادة على إقطاعات الأمراء مماليكه، وقطع أخباز جماعة من مماليك الأمير سيف الدين أرغون وألْزامه.

ثم توجه طلب الأمير سيف الدين أرغون وصحبته ولده الأمير ناصر الدين محمد في يوم الأربعاء خامس صفر، وتوجه معهم الأمير سيف الدين بُلَك[١] الجمدار، ورسم ألا ينشر علمًا، ولا يحرك طبلخاناه، ولا يَشُدّ مَن معه دركاشًا إلى حين وصولهم إلى حلب، فأوصلهم الأمير سيف الدين بُلَك، وعاد إلى الأبواب

---

(١) سيف الدين بلك: هو بلك الجمدار الناصري، توفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٥).

السلطانية في يوم الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأول، وتأخر بالأبواب السلطانية من أولاد الأمير سيف الدين أرغون الأمير سيف الدين أبو بكر، والأمير ركن الدين عمرو، والأمير شهاب الدين أحمد إلى أثناء جمادى الأولى، ثم رسم أن يتوجَّهوا إلى حلب، فتوجهوا هم وعائلة الأمير سيف الدين أرغون، وابنة السلطان زوجة الأمير سيف الدين أبي بكر في يوم الاثنين خامس جمادى الأولى، وصحبتهم الأمير سيف الدين آقْبُغا بن عبد الواحد(١) رأس نوبة الجمدارية، ليوصلهم ويعود، فوصلوا إلى دمشق في ليلة السبت رابع عشرين الشهر، فنزلوا بالقصر الأبلق، وتوجهوا إلى حلب في ليلة الأحد، واستقر أولاد الأمير سيف الدين أرغون الثلاثة في جملة الأمراء بحلب المحروسة، وخرجت إقطاعاتهم التي بالديار المصرية لغيرهم من الأمراء.

ثم رسم السلطان ببيع ما نقل من جهاز ابنته زوجة الأمير سيف الدين أبي بكر، فأبيع بالمدرسة الناصرية بالقاهرة، وكان في جملة ما أبيع قَصْر فضة، وتَخْت، ودِكَّة فضة، الجميع مُلَبَّس على خشب، وأبيع غير ذلك.

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء ثالث عشر من المحرم فوّض السلطان نظر النُظّار والصحبة إلى القاضي مجد الدين إبراهيم بن القاضي المرحوم مكين الدين عبد الله بن لُقَيْتَة(٢) وخلع عليه.

وأفصل القاضي شرف الدين عبد الرحمٰن الخَطِيري من الوظيفة المذكورة، وفُوِّض إليه نظر البيوت السلطانية عوضًا عن القاضي مجد الدين المذكور، واستقر أيضًا في أشغال الأمير سيف الدين أرغون في غيبته على عادته قبل مباشرة نظر النظّار.

وفيها في يوم الأحد الثامن عشر من المحرم وُلِد للسلطان الملك الناصر ولد ذكر من زوجته عتيقته طُغَاي، وكان السلطان قد توجه في هذا اليوم إلى الصيد بجهة القصور بناحية سرياقوس، فطولع في ذلك، فعاد في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر وعُمل مُهِمّ(٣) في يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر وأقام السلطان بقلعة الجبل إلى آخر يوم السبت مستهل صفر.

---

(١) توفي سنة ٧٤٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٩١).

(٢) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢، السلوك ٢/ ٢٨٠).

(٣) المهم: يطلق على الوليمة والسماط العام في المناسبات الهامة كولادة ابن للسلطان وغيره.

وتوجه في يوم الأحد ثاني الشهر إلى جهة القصور بسرياقوس، ثم توجه من هناك، وعَدَّى إلى جهة المنوفية، فتصيد هناك، وعاد إلى الجيزية، فأقام بها أيامًا، وحضر الرسل الذين وصلوا من جهة الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد بين يدي السلطان، فسمع كلامهم، وخلع عليهم، وأعادهم، وعاد السلطان إلى قلعة الجبل في يوم الخميس العشرين من صفر.

وفي يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الأول من السنة انتقل ركاب السلطان من قلعة الجبل المحروسة إلى جهة القصور بسرياقوس، فأقام إلى يوم السبت، وتوجه إلى جهة الأهرام، واستقر بتلك المنزلة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر، ثم توجه إلى جهة البحيرة للصيد المبارك، وناب عنه في الغيبة الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح، وأمر أن يركب في مماليكه الخاصة، وأن جميع من تأخر من الأمراء وأمراء العشرات، ومقدمي الحلقة، بالقاهرة وبقلعة الجبل لا يركبون في مدة غيبة السلطان لموكب ولا لغيره، وأن يلزم كل منهم بيته إلى حين عودة ركاب السلطان فلم يزل الأمراء على ذلك إلى أن عاد السلطان وكان عوده ووصوله إلى قلعة الجبل المحروسة في يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول.

وفيها في يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ربيع الأول أنعم السلطان على الأمير سيف الدين ألْماس الحاجب بسكن دار النيابة خلا القاعة الحُسامية، فإنه رسم بإفرادها، فأفردت، وسكن فيما عداها من المساكن.

ذكر وصول الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية والقبض على الأميرين سيف الدين طَشْتَمُر البدري[١] وسيف الدين قُطْلُوبُغا[٢] الفخري والإفراج عنهما

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين تَنْكِز[٣] نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس على خيل البريد، وكان ركوبه على خيل البريد من غزة، فإنه وصل إليها بطلبه

(١) يلقب بحمص أخضر (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢١٩، السلوك ٢/ ٢١٨).
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٩، والدرر الكامنة ٣/ ٢٥٠.
(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ١٣، ٣٤.

ومماليكه يتصيد، فرسم له بالحضور إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد فوصل، وتَلَقّاه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي إلى سرياقوس، وتصيد معه في تلك الجهة، ولما وصل توجه، فمثل بين يدي المقام الشريف، وشمله الإنعام السلطاني على عادته، ونزل عند الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بداره بقلعة الجبل.

ولما كان في يوم الأحد سادس الشهر جلس السلطان، ووقف الأمير سيف الدين تَنْكِز بين يديه والأمراء المماليك السلطانية، فنظر السلطان إلى الأميرين سيف الدين طَشْتَمُر البدري، وسيف الدين قُطْلُوبُغا الفخري، وقال لقُطْلُوبُغا: قد ضجرت مما أسمع عنك، وهذا كلام كثير، وما أعرف رضاكم في أي شيء حتى أفعله، وأشباه هذا من الكلام، وأظهر الغضب الشديد، والحرج والحِدَّة، وأمر الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح بالقبض عليهما، فتقدم إلى كل منهما وأخذ سيفه، وتوجه بهما إلى الاعتقال، فاعتقلهما، وكان ذلك ببرج السباع بالقلعة واشتد الأمر عليهما، وقيل: إنهما قُيِّدا.

فلما كان عشية النهار اضطرب المماليك السلطانية سكان الطباق لذلك اضطرابًا شديدًا، ويقال: إنهم امتنعوا من الدخول في الخدمة، وقالوا نُحْبَس جميعًا، فإن هؤلاء هم أكابرنا، وأخص الناس بالسلطان، فإذا قبض عليهما بغير ذنب فكلنا نُحْبَس، فطالع الأمير سيف الدين صواب ـ المقدم عليهم ـ السلطان بذلك، فطلب الأمير سيف الدين تنكز، وعرفه ذلك، فتلطف في أمرهما وقبّل الأرض مرارًا بين يدي السلطان، وشفع فيهما، فأفرج عنهما في بقية النهار. وأقرّ الأمير سيف الدين طَشْتَمُر على إقطاعه، وأسكنه في القاعة الحسامية التي أفردت من دار النيابة، وكان قبل ذلك يسكن داخل باب القلعة بقرب مساكن السلطان.

وأما الأمير قُطْلُوبُغا الفخري، فإن حرج السلطان عليه كان أشد، لما كان يتكلم به بين يديه من الرد عليه، وكثرة الإدلال، فأنزل إلى إسطبله، ورسم السلطان بإخراجه إلى الشام، فعيّن له إقطاع الأمير علاء الدين أَيْدُغْدِي التَّلِيلي[1] وهو من جملة أمراء الطبلخاناه، وكان قد أنهى إلى السلطان أنه عجز عن الخدمة، وقَلّ نظره، وتغير ذهنه، فوَفَّره من الخدمة، وأنعم عليه براتب، وأخرج إقطاعه للأمير المذكور، وزاد

(١) توفي سنة ٧٢٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥).

عليه قرية عَنْجَرا، وعَبْرَتها[١] في السنة عشرون ألف درهم، وتوجه صحبته الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى الشام، وذلك في يوم السبت ثاني عشر شهر ربيع الآخر، وقدم السلطان على ألفه الأمير سيف الدين طُغَيْتَمُر العمري الناصري[٢].

ولما توجه الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا الفخري إلى الشام أوصى ألا يُسكَّن اصطبله لأحد من الأمراء، فاتصل ذلك بالسلطان، فأمر بهدمه، وهو الأصطبل الذي كان قد أنشأه الأمير سيف الدين طُغاي، وهو تحت القلعة فيما بين القلعة وبين البرقية، وله باب آخر من جهة التبانة فيما بين المصلى وقلعة الجبل، وبه حوض سبيل لسقي الدواب، فهدم الأصطبل وحوض السبيل، وعُفِّي أثرهُ، وبُنِي بِنقْضِه، وصار طريقًا يسلكه من يمر إلى القلعة من خارج السور، كما كان أول مرة قبل عمارته.

وفي هذه السنة في يوم السبت الثاني عشر من شهر ربيع الآخر الموافق الحادي عشر من برمهات من شهور القبط ـ وذلك في أواخر فصل الشتاء ـ حصل بالقاهرة ومصر حر شديد، وزاد في يوم الأحد، واشتد في يوم الاثنين، وهبّت في هذه الأيام ريح شرقية حارة جدًا، وكان أشدها يوم الاثنين، وحصل من الحر ما لا يحصل في أيام الصيف أكثر منه، حتى لبس الناس في هذه الأيام في فصل الشتاء ما يلبسونه في فصل الصيف من القمصان الرفاع، وكانت الأيام قبل ذلك شديدة البرد، واستمر ذلك كذلك بقية يوم الاثنين، وهبّت ريح غربية قبيل العشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء خفّ الحر بسببها يسيرًا، ثم سكنت بسرعة، وعاد الحر في ليلة الثلاثاء، وتزايد إلى الثلث الأخير من الليل، ثم نقص الحر في يوم الثلاثاء، وحصل غيم مطبق قبيل المغرب من يوم الثلاثاء، ورعد وبرق شديد فيما بين المغرب والعشاء من ليلة الأربعاء، وانهلّ مطر يسير لكنه غليظ القطر حار جدًا، كأنه سخن بالنار، وعاد البرد إلى ما كان عليه في يوم الأربعاء السادس عشر من شهر ربيع الآخر، وهو الخامس عشر من برمهات، فسبحان من يُدَبِّر ملكه كيف شاء، لا إله إلا هو الكبير المتعال، وبسبب هذا الحر حصل في الزرع نقص، وهاف بعضُه في كثير من البلاد بالديار المصرية.

---

(١) العبرة: من التعابير الخاصة بنظام الإقطاع، ومعناها القيمة المالية التي يدفعها المقتطع للدولة بدل إقطاعه قطعة من الأرض أو منطقة معينة (صبح الأعشى ١١/٣١٦).
وفي النجوم الزاهرة ٩/٥٣ حاشية (١): العبرة في الاصطلاح المالي القديم تعني مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٨٩، الدرر الكامنة ٢/٢٢٣.

ذكر حادثة وقعت بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي يوم السبت العشرين من شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير طُفَيْل أخو الأمير بدر الدين كُبَيْش بن منصور بن جمّاز بن شِيحَة من المدينة النبوية، وأخبر أن أخاه الأمير بدر الدين كُبَيْش توجه من المدينة إلى البر لبعض أوطاره، وأن عمه الأمير وَدِيّ[١] لما علم خلو المدينة منه وصل إليها بجموع من العرب، وحاصرها في ثامن عشر صفر، واستولى عليها في الخامس والعشرين من الشهر بعد أن حرق بعض أبوابها، وقتل القاضي شهاب الدين هاشم بن علي بن سنان قاضي الشيعة بالمدينة، وجرح بعضهم، وقُتِلَ نفر يسير، واستولى وَدِيّ على حواصل الأمير كُبَيْش وذخائره وأمواله، ثم وصل الأمير بدر الدين كبيش إلى الأبواب السلطانية، وجرد معه طائفة من العسكر إلى المدينة، فوصل إليها في العشر الأخر من شوال، وخرج من كان بالمدينة من أصحاب وَدِيّ، وأقام العسكر بالمدينة ثلاثة أيام، وعاد إلى الديار المصرية.

ذكر القبض على من يُذْكَر من الأمراء، وإعادة الأمير شرف الدين حسين بن جند ربيك إلى الديار المصرية

وفي هذه السنة في يوم الخميس مستهل جمادى الأولى بعد العصر أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين القَفْجَاقِي أحد الأمراء مقدمي الألوف، وعلى أخيه سيف الدين قُرْمُشي واعتقالهما، وأمر أيضًا بالقبض على طائفة من المماليك السلطانية القَفْجاقية، وجهز - في ليلة الجمعة إلى ثغر الإسكندرية - ممن كان في الاعتقال بقلعة الجبل بالجب من الأمراء صلاح الدين طَرْخان بن الأمير بِيبَرْس الشمسي[٢]، وسيف الدين بُرُلْغِي وهو ابن عم السلطان، ورسم باعتقالهم بالثغر، أحسن الله تعالى خلاصهم.

---

(١) هو وُدَيّ بن جماز بن شيحة، أبو مزروع، ولاّه الناصر محمد بن قلاوون إمارة المدينة سنة ٧٣٦هـ، توفي سنة ٧٤٣هـ (الأعلام ٨/ ١١٢).

(٢) توفي سنة ٧٣٥هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢١٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٨٩، السلوك ٢/ ٢٨٢).

ولما قبض على أَصْلَم أمر السلطان بإعادة الأمير سيف الدين حسين بن جندر بيك إلى الخدمة الشريفة بالأبواب السلطانية ـ وقد قدمنا خبر إرساله إلى الشام ـ فوصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى، وشمله الأنعام بالتشريف الأطْلس بالطَّرْزالزَّرْكش، والكَلُّوتة الزَّرْكش والحياصة الذهب المُجَوْهَرة، وأنعم عليه بإقطاع الأمير سيف الدين أَصْلَم وتقدمته.

وفيها في يوم الاثنين خامس جمادى الأولى توجه الأمير حسام الدين حسين بن خَرْبَندا إلى بلاد التتار، وكان هذا الأمير قد حضر إلى الأبواب السلطانية من مدة سنين، وشمله الإنعام السلطاني بأمرةِ طبلخاناه بالديار المصرية، فتكرر طلب التتار له لما وقع الصلح، وسألوا السلطان إرساله إليهم، وذكروا أن له إخوة وعيالاً يبكون عليه، فعرض السلطان عليه العود إلى بلاده فيما تقدم، فأبى، فلما كان في هذا الوقت عاد سيف الدين كِرماس أحد مماليك الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي من جهة الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد ـ وكان قد توجه إليه برسالة ـ فأكد عليه في سؤال السلطان في إعادته، فرسم بعوده إلى بلاده، وخلع السلطان عليه وزَوَّدَه، فتوجه في هذا التاريخ، ثم عاد الأمير المذكور في هذه السنة رسولاً من جهة الملك أبي سعيد، فسمع السلطان رسالته، وخلع عليه وأعاده.

ذكر اتصال الأمير سيف الدين قَوْصُون بابنة السلطان الملك الناصر

وفي يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من هذه السنة عُقِدَ نكاح الأمير سيف الدين قَوْصُون الناصري على إحدى بنات السلطان الملك الناصر بحضور قضاة القضاة وأمراء الدولة الشريفة، وذلك بقلعة الجبل، وتولى عقد النكاح بالإذن السلطاني قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي، وبنى بها في ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، وكان ابتداء الفرح من يوم الاثنين تاسع الشهر.

وهذا الأمير ـ سيف الدين قَوْصُون المذكور ـ لم يكن قديم الهجرة في الخدمة السلطانية، وإنما ابتاعه السلطان من سُنَيّات من رسل أَزْبَك، فأحسن إليه، وأمَّره، وزاد في الإحسان إليه حتى انتهى إلى هذه الغاية، ثم قدّمه على ألف، وعظم شأنه، وارتفع محله، وتميز إقطاعه، وكثرت عصائره، واتسع ملكه، وتقدم في الدولة تقدمًا عظيمًا، ووصل إخوته من بلاد الملك أَزْبَك، وتزوج السلطان بعد ذلك بأخته، وكان من تمكنه وبسطته ما نذكره إن شاء الله تعالى في موضعه.

وفي هذه السنة في العشر الأول من جمادى الأولى وصل إلى الأبواب السلطانية رسل صاحب إسطنبول، فلما مثلوا بين يدي السلطان، وأدُّوا الرسالة أسلم أحدهم وهو آقْسُنْقُر الرومي، وتلفظ بالشهادتين المعظمتين، فسُرّ السلطان بإسلامه، وأحسن إليه، وأنعم عليه، ثم أمّره بعشرة طواشية، ولبس بالإمرة في يوم السبت رابع عشرين شوال من السنة وأسلم أيضًا أخٌ لهذا الرسول اسمه بَهادُر ونزل في جملة المماليك السلطانية، والله أعلم.

ذكر استعفاء قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة(١) الشافعي من القضاء بالديار المصرية، وإجابته إلى ذلك، وتفويض القضاء بعده لقاضي القضاة جلال الدين القَزْويني(٢)

وكان سبب ذلك أن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة الشافعي ضَعُف بصره، ونزل الماء في إحدى عينيه، وكمل، وتحدر إلى العين الثانية، فقلّ نظره جدًا، وتبين ذلك وظهر في أواخر جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان في يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة حضر إلى دار العدل، وأنهى ذلك إلى السلطان، وسأله أن يعفيه من الحكم، وانفصل المجلس ثم أتته الرسالة السلطانية بالإجابة إلى الإعفاء.

واستدعى السلطان ولده القاضي عز الدين عبد العزيز إلى بين يديه في يوم الجمعة السابع من الشهر، وتحدّث معه في مَغْنِيِّ والده، وسبب ضعف بصره، وسأله عن الجهات التي بيده، ثم حضر قاضي القضاة بدر الدين في يوم الاثنين عاشر الشهر أو حادي عشره إلى مجلس السلطان بدار العدل الشريف، وأعاد السؤال في الإعفاء، فأجابه السلطان إلى ذلك من غير أن يصرح له بعزله، ثم سأله السلطان عمن يصلح للقضاء، وأن يعين له من يوليه، فاستعفى من ذلك، ولم يعين، ورسم له في ذلك

---

(١) بدر الدين محمد بن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٢) جلال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر، جلال الدين القزويني، ولد بالموصل، قدم دمشق ومصر، وصار قاضيًا بالشام، وتوفي سنة ٧٣٩هـ، من تصانيفه: «الإيضاح على صاحب المفتاح» في المعاني والبيان، «تلخيص المفتاح للسكاكي»، «المشذر المرجاني من شعر الأرجاني». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٥٠، السلوك ٢/ ٢٨٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٩٦، الدرر الكامنة ٣/ ٤، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٢).

المجلس أن يحكم في قضية كانت بين الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحاجب وبين خصومه، فنزل إلى المدرسة الصالحية بالقاهرة، وجلس في قاعته، وحكم في عشية نهار الاثنين المذكور بين الأمير سيف الدين وغرمائه، وبلغني أنه قال لمن حضر مجلسه: «هذا آخر الحكم» وتوجه إلى داره التي بساحل مصر بقرب الجامع الناصري، واستقر بها وأخلى قاعة التدريس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة.

ورسم له السلطان أن يُرَتَّبَ له من مال مُنَجَّزِ الخاصّ الشريف في كل شهر ألف درهم نُقْرَة بحكم استعفائه من الحكم، فكتب له توقيع سلطاني بذلك، ولم يكتب له فيه ما جرت العادة به من النعوت، واستقر بيده من جهاته تدريس زاوية الإمام الشافعي[1] بجامع عمرو بن العاص بمصر، فاستمر يلقي فيها الدرس، واستمر نوابه في القاهرة ومصر والأعمال على ولايتهم منه، وأحكامهم نافذة.

وذكر بين يدي السلطان من يصلح للقضاء بالديار المصرية، فعيّن جماعة لم يقع اختياره على أحد منهم، فاجتمع رأي السلطان على إحضار قاضي القضاة جلال الدين محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة إمام الدين عمر القزويني قاضي القضاة بدمشق، وخطيب الجامع الأموي بها، فرُسِم بطلبه وأن يحضر على خيل البريد.

وتقرر أن ينقل القاضي كمال الدين بن الزَّمْلَكاني قاضي حلب منها إلى دمشق، ويتوجه القاضي جمال الدين الزرعي ـ الذي كان قاضي الشام وعزل بالقاضي جلال الدين ـ إلى حلب، ولم ينعقد في ذلك ولاية.

---

(١) الشافعي: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبت الشافعية كافة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ، له من التصانيف: «إثبات النبوة والرد على البراهمة»، «أحكام القرآن»، «اختلاف الحديث»، «أمالي الكبير في الفقه»، «الإملاء الصغير»، «تعظيم قدر الصلاة»، «التنقيح في علم القيافة»، «الحجة العراقي»، «رسالة في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة»، «سنن في الحديث»، «الفقه الأكبر»، «كتاب الأسماء والقبائل في اختلاف العراقيين»، «كتاب الأم في الفقه»، «الكتاب الجديد»، «الكتاب القديم»، «الكتاب المبسوط» في مذهبه، «مختصر البويطي»، «مختصر الربيع»، «مختصر المزني»، «معاني القرآن»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ٩، وانظر ترجمته أيضًا في: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩، طبقات الشافعية ١/ ١٨٥، طبقات الفقهاء الشافعية ٦/ ١١٤، كتاب الوفيات ١٥٥، شذرات الذهب ٢/ ٩، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩).

وتوجه البريد لإحضار قاضي القضاة جلال الدين المذكور إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى دمشق في يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة، وتوجه القاضي جلال الدين من دمشق إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء التاسع عشر من الشهر، فوصل إلى الخانقاة الناصرية بسماسم في يوم الجمعة الثامن والعشرين من الشهر، ونزل عند شيخها، مجد الدين الأقْصُرائي[1]، وسأله الشيخ والفقراء أن يخطب لهم بالجامع، فاستأذن الخطيب شهاب الدين أحمد بن السَّبتِي في الخطبة، فأذن له، فخطب وصلّى بالناس بالجامع الناصري بالخانقاه الناصرية، وركب من الخانقاة، ووصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل المحروسة بكرة نهار السبت التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، وهو سلخه، وحضر بين يدي السلطان، فأكرمه وشافهه بالولاية، وأنعم عليه، وخلع عليه خِلْعة القضاء، وأنعم عليه ببغلة بسرج وزُنّار من جوخ، وقام من المجلس السلطاني، وجلس بمَصاطب باب القلعة وكتب على الفتيا على عادة القضاة في ذلك، ونزل من القلعة إلى المدرسة الصالحية، وحكم بين الناس، وأقرّ النوابَ على ما كانوا عليه من جهة قاضي القضاة بدر الدين، ثم أنعم السلطان عليه بزيادة على معلوم القضاء، واستقر بيده ـ مما كان بيد القاضي بدر الدين ـ تدريس المدرسة الصالحية، والمدرسة الناصرية، ودار الحديث، بالكاملية، وخطب بجامع قلعة الجبل من غير معلوم مع استمرار خطيبه ابن القَسْطلاني، فصار يخطب جمعة وقاضي القضاة جمعة، هذا إذا كان السلطان بقلعة الجبل، وإذا كان السلطان بالصيد أو غيره خطب الخطيب المُسْتَقِرُّ بمفرده، والجامكية للخطيب خاصة.

وكان قد حضر مع قاضي القضاة جلال الدين ولده القاضي بدر الدين محمد، ففوّض السلطان إليه خطابة الجامع الأموي بدمشق، وتدريس المدرسة الشامية الجُوّانية، وعاد إلى دمشق على خيل البريد، وكان وصوله إليها في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، وجلس للتدريس بالمدرسة الشامية في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان من السنة.

* * *

---

(١) مجد الدين الأقصرائي: هو أبو حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائي، الحنفي، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٤).

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ملك العراقين وخُراسان إلى الأبواب السلطانية

وفي يوم الأربعاء الرابع من شهر رجب من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ملك العراقين وخُراسان وبلاد الروم وغير ذلك، وكان المشار إليه منهم سيف الدين أَسَنْدَمُر، وهو من أكابر الأمراء مقدمي التَّوامين[١]، ووصل صحبتهم محمد بيه بن جمق أحد أقارب السلطان، وهو ابن أخت الأمير سيف الدين طايربُغا، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس، فسمع رسالتهم، وقَبِل هدية مرسلهم، وأحسن إليهم، وأنزلهم عند الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي بقلعة الجبل، وشملهم السلطان بالتشاريف والإنعام.

وكان مضمون رسالتهم من الملك أبي سعيد ـ فيما بلغني من المحقق لها ـ خطبة ابنة السلطان للأمير خواجًا دمْشَق بن الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد، فأجاب السلطان إلى ذلك، واشترط حضور بن جُوبان إلى أبوابه، وتوجه الرسل في خدمة السلطان إلى الميدان في يوم السبت سابع الشهر، وشاهدوا من مواكبه العظيمة ما لم يروا مثله، وتوجهوا إلى القبة المنصورية لزيارة ضريح السلطان الملك المنصور والد السلطان، وذلك في يوم الجمعة ثالث عشر الشهر، ودخلوا المدرسة، ومُدّ لهم سِماط بالإيوان القبلي، وحضر الفقهاء بجملتهم في الإيوان البحري.

ثم توجه الرسل أيضًا في خدمة السلطان في يوم السبت إلى الميدان، وعادوا إلى مرسلهم بعد أن شملهم الإنعام الوافر من الخِلَع والأموال، وكان توجههم في يوم الاثنين السادس عشر من شهر رجب، وجَهّز السلطان معهم الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا المغربي الحاجب.

وأما محمد بيه بن جمق الواصل صحبتهم فإن السلطان أنعم عليه بإمرة طَبْلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير عز الدين أَيْبَك البكتوتي أمير عَلَم، ونقل البكتوتي إلى صَفَد على إقطاع نجم الدين فيروز، وكان قد قبض عليه واعتقل بها.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب أمر السلطان بالقبض على أولاد الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري[٢] الثلاثة وهم: علاء الدين أمير علي،

---

(١) مقدمو التومان: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

(٢) توفي سنة ٧٢٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢).

وسيف الدين أَسَنْبُغا[١]، وشهاب الدين أحمد، فقبض عليهم وعُوِّقوا بدار الأمير سيف الدين ألْماس الحاجب أيامًا إلى أن سكنت الفتنة التي وقعت بثغر الإسكندرية، ونقل الأمراء منها على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ثم أفرج عنهم، ورسم لهم بالدخول إلى الخدمة السلطانية، فدخلوا، ووقفوا مع الجند، فأمر السلطان الحجّاب أن يرفعوا منزلتهم، وأن يقفوا مع الأمراء، وأن يَلْبَسوا أَقْبِيَة فَوقانية على عادة الأمراء في ذلك.

ذكر الفتنة الواقعة بثغر الإسكندرية

وفي يوم الخميس خامس شهر رجب سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وقع بثغر الإسكندرية المحروس فتنة عظيمة بين أهل الثغر ومُتَولِّيه ركن الدين بِيبَرْس الكركي.

وسبب هذه الفتنة أن جماعة من عوام الثغر اجتمعوا في هذا اليوم ليتفرجوا على عادتهم، فوقفوا على حَلْقَة قاصٍّ ظاهر الثغر بين بابي الأخضر والبحر، وكان في الحلقة فِرِنْجِي من أتباع رسل صاحب إسطنبول، فشرع القاصُّ إذا ذكر في قصصه النبي ﷺ رفع المسلمون أصواتهم بالصلاة على عادة المسلمين في ذلك، فقال بعضهم: أخرجوا هذا الفرنجي من بيننا، فإننا نحن نصلي على النبي ﷺ وهو لا يصلي عليه، فأرادوا إخراجه من الحلقة، فامتنع من الخروج، فدُفِع منها، فأعانه بعض رَجّالَة الولاية بالثغر، وقال: هذا من أتباع الرسل الذين وصلوا إلى السلطان، فضرب بعض العوام ذلك الراجل، فاستنفر بجماعة من رفقته رجالة الولاية، فكاثرهم العوام وضربوهم، وثارت الفتنة، فركب المتولي ليرد الناس، فرجمه أهل الثغر، فغَلّق أبواب البلد بين العوام وبين مساكنهم، وتحصن منهم، وأحضر إليه رَيِّس الخلافة[٢] قاربًا فيه نُشّاب، فرمى العوام بالنُّشاب، فقتل منهم جماعة.

وحضر القاضي بالثغر عماد الدين الكندي، وأشار على المتولي بالكَفِّ، فلم يوافقه، واستمر هو وأصحابه على رَشْق العوام بالنشاب، فقيل: إن القاضي قال

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٣٨٦.

(٢) رئيس الخلافة: هو رئيس الحرّاقة، وهو الذي يحكم على رجال الحراقة السلطانية ويتولى أمرها، وكان في الزمن المتقدم يقال له رئيس الخلافة جريًا على ما كان الأمر عليه في الخلافة الفاطمية بالديار المصرية (صبح الأعشى ٥/٤٣٩).

والحرّاقة: جمعها حراريق وحرارق: وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية (انظر: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٠٤).

للعوام: قد حلّ لكم قِتالُهم، فعند ذلك عظمت الفتنة، وحوصر المتولي، وتوجه جماعة من العوام إلى دار رَيِّس الخلافة، فانتهبوا جميع ما فيها، وقتلوا جماعة من العوام، وتوجه بعضهم وكسروا السجن، فأخرجوا ما فيه من المعتقلين، وكان عبيد أهل الثغر قبل ذلك قد خرجوا للعب في عيد اللَّنجات على عادتهم، فضرب المتولي منهم جماعة واعتقلهم، فخرجوا الآن، وقصد العوام إخراج الأمراء المعتقلين بالثغر، فامتنعوا من ذلك.

فعند ذلك بادر المتولي بمطالعة السلطان بهذه الحادثة، فوصلت مطالعته في بكرة يوم الأحد ثامن شهر رجب، فندب السلطان الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مدبر الدولة وأستاذ الدار العالية، وصحبته من الأمراء: الأمير سيف الدين أَلْدَمُر(١) أمير جاندار، والأمير سيف الدين طُوغان شادّ الدواوين، وغيرهما، فتوَجَّهوا إلى الثغر في بقية نهار الأحد لكشف هذه الحادثة، ومقاتلة من تَعَدّى، ورسم بإهانة القاضي عماد الدين الكندي الحاكم بالثغر، والإخراق به، وعزله عن القضاء، وفُوِّض قضاؤه إلى القاضي علم الدين بن الأخنائي الشافعي في العشر الأوسط من شهر رجب، وهو أول شافعي ولي قضاء الثغر.

ولما وصل الأمير علاء الدين مُغْلَطاي والأمراء إلى الثغر أحضر القاضي عماد الدين الحاكم، وأهانه، وصادره هو وشمس الدين المؤذن البُلْبَيْسي نائبه وجماعة من أهل الثغر والتجار، فأخذ من جهتهم نحو خمسين ألف دينار. منها من التجار الكارِمِيّة(٢) نحو عشرين ألف دينار وبقية ذلك من أهل الثغر، ووَسَّط جماعة من العوام، ومسك جماعة من العبيد بالثغر وغير العبيد، وأحضر منهم نحو تسعين رجلاً، فقيِّدوا واستُعملوا في العمارة، وحصل لأهل الثغر ضرر عظيم.

وكان ممن وُسِّطَ رجل صاحب قاعة قَزارة يعرف بابن رَوَاحة كان قد حضر إلى الأمير علاء الدين، والتزم بحفظ ميناء الثغر، وأنه مقيم من رجاله من يحفظها بغير جامكية، ويوفر جامكية الرماة بالبحر، وكان هذا الرجل عنده أربعمائة عُدَّة يلبسها الرجال المقاتلة إذا دُهِم الثغر عدو، فأخرجوا من البلد فتوجهوا إلى منية مُرْشِد إلى الشيخ محمد المرشدي، وطولع في أمره، وأنهى المتولي إلى السلطان أن هذا الرجل رأس فتنة، فطلب وأحضر إلى الثغر ووُسِّط، وأخليت قاعات الرماة بالثغر.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٠٧.

(٢) التجار الكارمية: تقدم التعريف بهم.

وعاد الأمير علاء الدين والأمراء إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء خامس عشرين الشهر، والثغر وأهله على أسوأ الأحوال.

ورسم السلطان بنقل جماعة من الأمراء المعتقلين، أحضر منهم في يوم الأحد الثاني والعشرين من الشهر عشرة نفر جُهِّز منهم إلى الكَرَك الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري، وسيف الدين تَمُر الساقي واعتقل ببرج السباع بقلعة الجبل الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، والأمير سيف الدين بَهادُر المغربي، واعتقل بالجُبِّ ستة وهم: سيف الدين طُغْلُق، وأمير غانم بن أطلس خان وسيف الدين قُطْلُوبك المعلائي المعروف بالأوشاقي، وعز الدين أيْدَمُر اليونسي، وسيف الدين كجكن، وفخر الدين أياز ـ نائب قلعة الروم كان ـ ثم أفرج عن فخر الدين أياز المذكور في يوم الخميس السادس والعشرين من الشهر لكبر سنه وعجزه، وخُلِع عليه على عادة مقدمي الحلقة المنصورة، وسكن بالقاهرة عند أولاده.

وتأخر بثغر الإسكندرية من الأمراء المعتقلين به صلاح الدين طَرْخان بن بَيْسَرِي، وسيف الدين بَلاط الجُوكَنْدار[١]، وسيف الدين بُرُلْغِي، وحسام الدين لاجين العمري، وسيف الدين ايتزا، وركن الدين بِيبَرْس العلمي، وسيف الدين طَشْتَمُر أخو بَتْخاص أحسن الله خلاصهم.

وفيها في يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر رجب ـ وهو سَلْخه ـ جلس الأمير علاء الدين مُغْلَطاي بقاعة الوزارة التي استجدت له بقلعة الجبل المقابلة لديوان الإنشاء، وجلس نظّار الدولة والمُسْتَوفون وكُتّاب الدَّرْج بين يديه خارج الشُّبّاك على مصطبة بنيت برسم جلوسهم، ووقف شادّ الدواوين سيف الدين طُوغان وحجّاب الوزارة من أسفل المصطبة التي جلس عليها من ذكرنا أمام الشباك، ولم يَعْبُر إليه أحد بداخل القاعة التي هو بها ـ وبها الشباك ـ سوى مماليكه وحاشيته.

---

(١) الجوكان دار: فارسية مركبة من كلمتين: جوكان: وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان. ودار: ومعناها ممسك وصاحب. والجوكان دار: ممسك الصولجان أو صاحب الصولجان. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

ذكر تفويض قضاء القضاة بالشام لشيخ المشايخ علاء الدين القُونَوي[١]

وكان السلطان لما نَقَل قاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني من دمشق إلى الديار المصرية المحروسة رسم بطلب القاضي كمال الدين بن الزَّمْلَكانِي قاضي حلب منها ليفوض إليه قضاء الشام، فتوجه البريد إليه في أوائل شعبان، ووصل البريد إلى دمشق في ثامن شعبان، وتوجه إلى حلب، وعاد صحبة القاضي كمال الدين المذكور، فكان وصوله إلى دمشق في يوم السبت العشرين من شعبان، وتوجه إلى الأبواب السلطانية في يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان على خيل البريد.

فلما وصل إلى مدينة بُلْبَيس درج بالوفاة إلى رحمة الله تعالى على ما نذكره إن شاء الله في الوفيات، ولما اتصلت وفاته بنائب السلطنة بالشام طلب القاضي بدر الدين أبا اليُسْر محمد بن قاضي القضاة عز الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن خليل الأنصاري المعروف بابن الصايغ[٢]، وكان معتكفًا بالجامع الأموي، فخرج من اعتكافه، وتوجه إليه، فتحدث معه نائب السلطنة في ولاية القضاء، وتلطف به، فامتنع كل الامتناع، وصمم على ألاّ يلي القضاء أبدًا، فلم يزل يتلطف به إلى أن قال: أستخير الله تعالى في ذلك، فكتب نائب السلطنة إلى الأبواب السلطانية في ولايته القضاء، فكتب تقليده بالقضاء، وسُيِّر إلى دمشق، فوصل في يوم الخميس خامس عشر شوال، فحمل إليه التقليد والتشريف، فامتنع من قبول الولاية، وأصرّ على الامتناع، ومرض بسبب ذلك، ورَدَّ التقليد والتشريف.

فطالع نائب السلطنة بذلك، فاتفق رأي السلطان على تفويض القضاء لشيخ الشيوخ علاء الدين أبي الحسن علي بن الشيخ نور الدين إسماعيل بن جمال الدين

---

(١) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل ين يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي، الأصولي الشافعي، قدم القاهرة ودرس بها ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨هـ، وتوفي سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصريف في شرح التعريف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

(٢) ولد سنة ٦٧٦هـ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٢٢٦، الوافي بالوفيات ١/ ٣٣٢).

يوسف القُونَوِيّ الشافعي، فأحضره السلطان إلى مجلسه في يوم الاثنين السادس والعشرين من شوال سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وفوّض إليه قضاء القضاة بالشام، وخلع عليه في هذا اليوم، وأذن له في الحكم بالقاهرة، فأثبت كتبًا تتعلق بالشام، وأنعم السلطان عليه بمبلغ ألف درهم وخمسمائة درهم، ورسم أن يجهز له من ديوان الخاص ما يَنْقُل عليه عياله إلى دمشق، فجهز له أربعة مَحايِر وعِدَّة جمال، وصرفت أجرتها من ديوان الخاص السلطاني، ورسم لعائلته في كل يوم - من حين سفرهم إلى أن يصلوا دمشق - بثلاثين درهمًا نقرة، عن عشرين يومًا ستمائة درهم.

وتوجه هو إلى دمشق على خيل البريد بعد صلاة الظهر من يوم السبت التاسع من ذي القعدة، ووصل إلى دمشق في بُكرة نهار الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، واجتمع بنائب السلطنة بدار السعادة، ولبس التشريف وتوجه إلى المدرسة العادِليَّة، وقُرِىء تقليده، وجلس للحكم، وسلك في ولايته سبيل السلف الصالح، ولم يحتجب عن أحد من الناس، ثم فوض إليه مشيخة الشيوخ بدمشق عوضًا عن قاضي القضاة شرف الدين المالكي، وذلك في ذي الحجة من السنة، وجلس بالخانقاة السُّمَيْساطِيّة في يوم الجمعة رابع المحرم سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ذكر تفويض ما كان بيد الشيخ علاء الدين من الجهات لمن يُذْكَر، وما وقع في أمر الصوفية بالخانقاة الصلاحية

لما توجه شيخ الشيوخ إلى دمشق المحروسة فوّض ما كان بيده من تدريس المدرسة الشريفية بالقاهرة لقاضي القضاة جلال الدين، وفُوِّضَت مشيخة الشيوخ بالخانقاة الصلاحية للشيخ مجد الدين الأقْصُرائي شيخ الخانقاة الناصرية بسماسم، ورسم له أن يَسْتَنِيب عنه بالخانقاة الصلاحية الشيخ جمال الدين الحُوَيزائي، وتولى مشيخة الخانقاة الركنية الشيخ افتخار الدين الخَوارِزْمي، ونقل شيخها الشيخ مجد الدين الزَّنْكَلوني[١] إلى تدريس الحديث بالقبة الركنية، ورتب معه معيد وقارىء وطلبة بمقتضى شرط الواقف، وهو أول من دَرّس بهذه القبة، وكانت قبل ذلك مُعَطَّلة منذ وقفت.

---

(١) مجد الدين الزنكلوني: هو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٤١).

ولما ولي الشيخ مجد الدين الخانقاة الصلاحية تحدّث مع السلطان في أمر الفقراء بالخانقاتين المذكورتين، فنَدَب السلطان لذلك الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري أمير سلاح، وقاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني، فحضرا إلى الخانقاة في يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة، وعرض الفقراء بها وبالخانقاة الركنية، فأخبرني الأمير سيف الدين قِجْلِيس المشار إليه أنه أنهى إلى السلطان أمر العرض، وأنه رسم أنه من حضر إلى الخانقاة في وقت الوظيفة وأدّاها يستمر ولا يُقْطَع، ومن كانت له وظيفة تعارضه في الوقت يُخيَّر في إحداهما، ثم حضر الشيخ مجد الدين واجتمع بالسلطان، وقَرَّر معه قطع جماعة العُدُول الجالسين بسوق الورّاقين من الخانقاة، وأرباب الوظائف، فقُطِع من الخانقاة الصلاحية من له عدالة بارزة، وجلوس بسوق الوراقين، وقطع أيضًا جماعة من أرباب الوظائف، فصارت العدالة البارزة وَصْمَة عليهم، وسببًا لحرمانهم، وقَوِيت الشناعةُ في ذلك، فأعيد بعض من قُطِع، وكره الناس من الشيخ مجد الدين هذه الواقعة، أشد الكراهة، وتكلموا عليه وعلى ابن أخيه أوحد الدين أحمد بهذا السبب، ثم انفصل الشيخ افتخار الدين من مشيخة الخانقاة الركنية، ولم يطل مقامه بها، ثم سكنت الأحوال في ذلك.

وفيها في ليلة الجمعة ثالث عشر ذي الحجة بنى الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي الركني الناصري[1] بابنة الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة بالشام، وكان قد تقدم عقد النكاح عليها عند حضور والدها في هذه السنة إلى الأبواب السلطانية، ووصلت من دمشق في ليلة الجمعة مستهل ذي القعدة، وحصل الاهتمام بأمر الفرح، ووصل بسببه الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة، وقَدّم التَّقادِم الوافرة، وكان بسبب هذا المُهِمّ من الاحتفال والتقادم وحمل الشموع شيء كثير.

ذكر وصول رسل الباب[2] فرنسيس إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الباب، وهو القائم ببلاد الفِرِنْج مقام الخليفة، ورسل الملك فرنسيس، واسمه ديكردين فِلِب، ومثلوا بين يدي السلطان، وأحضروا ما معهم من التقادم، وكان مضمون رسالتهم سؤال السلطان أن يُبْرِز أمرَه بالوصاة بالنصارى، وذكروا أن ببلاد الفِرِنج جماعة كثيرة من المسلمين، وأن

---

(١) ولد سنة ٧١٣هـ، وتوفي سنة ٧٣٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ١١٤).

(٢) الباب: أي بابا روما.

السلطان إن أحسن إلى من في مملكته من أهل الذمة النصارى أحسنوا إلى مَنْ ببلادهم من المسلمين، فسمع السلطان رسالتهم، وقبل تَقْدِمَتَهم، وأكرم وفادتهم، وأعادهم إلى مرسلهم، ولم يصل إلى الديار المصرية من جهة هذا الملك رسول من الأيام الصالحية النجمية إلى حين وصول هؤلاء الرسل الآن.

ذكر متجدّدات كانت بالشام في هذه السنة خلاف ما ذكرناه

في هذه السنة في شهر ربيع الأول فوض قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» لقاضي القضاة عزّ الدين محمد بن قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي[١] عوضًا عن قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بحكم وفاته، كما تقدم، ووصل تقليده إلى دمشق في يوم الخميس الثامن عشر من الشهر، وخلع عليه، وقرىء تقليده في يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وجلس للحكم بالمدرسة الجَوْزِية على عادة والده رحمه الله تعالى.

وفيها في مستهل شعبان فوضت مشيخة المشايخ بدمشق لقاضي القضاة شرف الدين محمد بن القاضي مُعِين الدين أبي بكر المالكي[٢] مضافة إلى الحكم، وجلس بالخانقاة السُّمَيْساطية لذلك في يوم الجمعة السادس والعشرين من الشهر.

وفيها في سابع شهر رمضان فوض قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام أبي حنيفة للقاضي عماد الدين أبي الحسن علي بن محيي الدين أحمد بن عبد الواحد الطَّرَسُوسي الحنفي[٣] عوضًا عن القاضي صدر الدين البُصْرَوِي[٤] بحكم وفاته على ما نذكره، ووصل تقليده إلى دمشق في يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان، وخلع عليه في يوم الخميس سابع عشر الشهر، وجلس للحكم بالمدرسة النُّورِيَّة.

---

(١) هو محمد بن سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن أبي عمر بن قدامة، عز الدين الحنبلي، ولد سنة ٦٦٥هـ، وتوفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٤٨).

(٢) توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٢١).

(٣) ولد سنة ٦٦٩هـ، وتوفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٢١).

(٤) سيذكره المؤلف في وفيات هذه السنة.

وفيها فوض قضاء القضاة بحلب المحروسة للقاضي فخر الدين عثمان بن محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم البارِزِي الحموي الشافعي[١]، وكان يلي الخطابة بحماة، وينوب عن عمه قاضي القضاة شرف الدين في الحكم بحماة.

وفيها في نصف رمضان وصل إلى دمشق المحروسة جماعة من الأسرى المسلمين من بلاد الفِرِنج نحو مائة وأربعين أسيرًا، ومعهم جماعة من تجار الفِرِنْج تولوا استيفادهم، فجُعِلُوا في المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق، ورسم بإعطاء التجار الفرنج ما ذكروا أنهم صرفوه وأنفقوه عليهم، بعد تحليفهم وتحليف الأسرى وكان ذلك نحو ستين ألف درهم، فلما قبض التجار ذلك من رَيْع الأوقاف على فِكاك الأسرى أُطْلِقَ الأسرى وكان سبب سعي التجار في فِكاك هؤلاء الأسرى أن قاضي القضاة جلال الدين القزويني أشهد على نفسه أنه جعل لكل من يحضر أسيرًا من المكان الفلاني مبلغًا عَيَّنه، وكتب بذلك مكتوبًا، وعرف التجار ذلك، فسعوا فيه، وجعلوه من جملة متاجرهم، و«نقلت هذه الواقعة من تاريخ الشيخ علم الدين بن البرزالي».

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة فوضت نيابة السلطنة بقلعة دمشق المحروسة إلى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الخازن أحد الأمراء بدمشق عوضًا عن الأمير علم الدين سَنْجَر الدميثري[٢] واستقر الدميثري من جملة الأمراء بدمشق المحروسة.

وفيها في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة أيضًا خلع على الأمير سيف الدين بلبسطي، وفوض إليه نيابة بحمص عوضًا عن بَلَبان البَدْري، رحمه الله تعالى، وكانت وفاة البدري في ليلة عيد الفطر من السنة بحِمْص، وحمل إلى دمشق، وصلي عليه بسوق الخيل، ودفن يوم السبت بسفح قاسيون.

وفيها في التاريخ أيضًا فُوِّض نظر أوقاف القدس الشريف، وحرم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الأمير سيف الدين إبراهيم بن الأمير علم الدين الجاكي، وخُلِع عليه، وتوجه.

---

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٤٤٨.

(٢) هو علم الدين سنجر بن عبد الله الأيدمري، توفي سنة ٧٢٩هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠).

وفيها في العشر الأول من ذي الحجة كمل تَرْخيم الحائط الشمالي بالجامع الأموي بدمشق، وكان في الدولة الظاهرية الركنية قد رُخِّمَ من جهة الشرق إلى باب الكَلاّسة، ولم يكمل، واستمر كذلك إلى الآن، فرسم بتَرْخِيمه، فكان ذَرْعُ الذي استجد الآن من باب الكَلاّسة إلى زاوية الغزالي ستون ذراعًا طولاً وفي الارتفاع ستة، وعمل بأعلاه طِراز مُذَهّب.

وفي هذه السنة توفي أحد أولاد السلطان الملك الناصر وهو طفل، ولعله الذي ذكرنا أنه ولد في ثامن عشر المحرم من هذه السنة ودفن بتربة الخَوَنْد أرْدكِين ابنة نوكاي زوج السلطان.

وتوفي في ليلة الاثنين المسفرة عن السادس والعشرين من جمادى الأولى قبيل العشاء الآخرة الشيخ الصالح ضياء الدين محمد المعروف بالمَعْبَدِي وهي نسبة إلى مَعْبَد الشيخ محيي الدين الفارسي بالقرافة، وكانت وفاته بمنزله بجوار الزاوية المعروفة به بخُطّ مَوْرِدَة الخلفاء بمصر، بشاطىء نيلها، وصُلّي عليه بالجامع الناصري، وأمّ الناس في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين الشافعي، ثم صُلّي عليه ثانيًا في جامع عمرو بن العاص بمصر، ودفن بالقرافة بتربته في قبر كان قد حفره لنفسه، وأعده لدفنه في حال حياته، وكان رحمه الله تعالى كثير الخدمة للفقراء، والتكرُّم عليهم والإنفاق، وله مروءة وافرة، كثير التعصب والقيام مع من يقصده، يَطّرِح الكلفة جدًا، كان ينفق على الفقراء الواردين وغيرهم ممن يقصده النفقات الكثيرة، ويطعمهم الأطعمة اللذيذة الفاخرة، ويُفَرِّجُهم في المُسْتَنْزهات، وهو في غالب أوقاته يلبس الدِّلْق المُرَقَّع بغير قميص، وكان حسن المحاضرة، كثير النوادر، مشهورًا بالخلاعة والانبساط رحمه الله تعالى.

وتوفي في يوم الأحد الثامن من شهر رجب القاضي الإمام الفاضل العالم نجم الدين أبو العباس أحمد بن صدر الدين محمد بن رشيد الدين حرمي الشافعي القَمُولي[1] نائب الحكم العزيز بمصر، وناظر الحسبة بها، وكانت وفاته بداره بمصر،

---

(١) القمولي: أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي المخزومي، نجم الدين أبو العباس القمولي الشافعي المحتسب بالقاهرة، توفي سنة ٧٢٧هـ، له من المصنفات: «البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي»، «تحفة الطالب في شرح كافية ابن الحاجب»، «تكملة مفاتيح العلوم للفخر الرازي»، «جواهر البحر في تلخيص البحر المحيط»، «شرح أسماء الله الحسنى»، «غاية أماني الطالب شرح كافية ابن الحاجب». (انظر: كشف الظنون ٥/ ١٠٥، شذرات الذهب ٦/ ٧٥، الدرر الكامنة ١/ ٣٠٤، السلوك ٢/ ٢٩٠).

وصُلِّي عليه بجامع عمرو بن العاص عَقِيب صلاة الظهر من اليوم المذكور، وكانت جنازته مشهودة، حضرها القضاة والحكام والأكابر وغيرهم من العوام، ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة تقريبًا بقَمُولة من غربية مدينة قُوص، وكان رحمه الله تعالى رجلاً ديِّنًا فاضلاً فقيهًا عالمًا، صنف: «كتاب البحر المحيط في شرح الوسيط» في نحو ثمانية عشر مجلدًا كبارًا، واختصره في ثماني مجلدات وسمي المختصر: «جواهر البحر» وشرح مقدمة الشيخ أبي عمر بن الحاجب في النحو في مجلدين وشرح الأسماء الحسنى، وغير ذلك من التآليف رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الأحد خامس عشر شهر رجب الشيخ الصالح أبو القاسم عبد الرحمٰن بن موسى بن خلف الحدافي وكانت وفاته بالبرج بقلعة الجزيرة مقابل مصر، وبه كان يسكن، وصُلِّي عليه بجامع عمرو بن العاص بعد صلاة الظهر، ودفن بسفح المُقَطَّم بتربة الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، بجوار تربة الشيخ أبي محمد بن أبي حمزة، وكان الشيخ عبد الرحمٰن رجلاً صالحًا زاهدًا عابدًا منقطعًا متخلِّيًا عن الدنيا، رحمه الله تعالى.

وتوفي بحلب الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين أرغُون الناصري[١] نائب السلطنة الشريفة والده، وكانت وفاته في يوم السبت ثالث عشر شعبان، ونقل الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه أنه توفي في يوم الجمعة ثاني عشره، ودفن يوم السبت، وكان قد استقر عند انتقال والده إلى نيابة السلطنة بحلب في جملة الأمراء مقدمي الألوف بحلب، فمرض ومات، فوصل الخبر إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء رابع عشرين الشهر، وكان قبل ذلك قد توفي أخوه الصغير أحمد، وهو من أمراء العشرات بحلب، ووصل الخبر أيضًا بمرض والده وأخوته، فرسم السلطان أن يتوجه صلاح الدين بن البُرْهان أحد الأطباء بالباب الشريف، فتوجه إليهم على خيل البريد في يوم الجمعة تاسع عشر الشهر.

وتوفي في يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان القاضي عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن عمر بن عثمان بن الخضر الهَكّارِي قاضي الأعمال الغربية، ويعرف بابن خطيب الأشْمُونين[٢]، وكانت وفاته بالقاهرة، وكان قد حضر من المحلة للسلام على قاضي القضاة جلال الدين فمرض ودامت به العلة إلى أن مات، وكان فقيهًا فاضلاً نزهًا كريم الأخلاق، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٣٧٩، النجوم الزاهرة ٩/٢٦٩، السلوك للمقريزي ٢/٢٩١.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٧٧، الدرر الكامنة ٢/٣٦٨.

وتوفي في يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان أيضًا الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله المغربي الناصري الحاجب(١)، وكان قد توجه صحبة الرسل إلى حلب كما ذكرنا، فمرض في سفره، وعاد فعجز عن الركوب، فحمل في مِحَفّة، ورحل إلى القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان، فبات بداره ليلة واحدة، ومات رحمه الله تعالى، وكان السلطان قد أعده لمُهمّاته، ووعده بتقدمة ألف، فعاجلته المنية عن بلوغ الأمنية.

وفيها في آخر ليلة الأربعاء سادس شهر رمضان توفي القاضي كمال الدين أبو المعالي محمد بن الشيخ علاء الدين علي بن الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن خطيب زَمْلَكا زين الدين عبد الكريم بن خَلَف بن نَبْهان الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الزَّمْلَكاني(٢)، وكانت وفاته بمدينة بُلْبَيْس مدينة الأعمال الشرقية من الديار المصرية، وكان قد اسْتُدْعِيَ من حلب بالأمر السلطاني، ليُنْقَل إلى قضاء الشام، فجاء على خيل البريد، فلما انتهى إلى منزلة الصالحية مرض، فوصل إلى بلبيس، وقد اشتد به المرض فمات، وحمل إلى القرافة في ليلة الخميس، فدفن بالقرب من قبر قاضي القضاة إمام الدين القَزْوِيني جوار قبة الإمام الشافعي، ومولده في ليلة الاثنين ثامن شوال سنة سبع وستين وستمائة، وكان من أعيان العلماء بمذهب الإمام الشافعي ومن الفضلاء، ولي كتابة الدَّرْج بدمشق مدة طويلة، وتنقل في الولايات ودرس في أَجَلِّ مدارس دمشق، ثم نقل إلى قضاء حلب، كما تقدم، وله شعر حسن، وتَرَسُّل جيد، رحمه الله تعالى.

وتوفي في يوم الأحد تاسع عشرين ذي الحجة الأمير سيف الدين كُوجَري بن عبد الله أمير شكار(٣)، وهو من أمراء المائة مقدمي الألوف، رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق في مستهل شهر ربيع الأول الأمير ناصر الدين إبراهيم بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك الزاهد داود بن الملك المجاهد أسد الدين شِيركُوه بن الملك القاهر ناصر الدين محمد بن الملك المنصور أسد الدين شِيركُوه بن شادِي، ودفن بقاسِيُون، وكان من جملة مقدمي الحَلْقة بدمشق المحروسة، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٩.

(٢) كمال الدين ابن الزملكاني: تقدمت ترجمته، وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٧٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٠، السلوك ٢/ ٢٩٠، الوافي بالوفيات ٤/ ٢١٤، شذرات الذهب ٦/ ٧٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٩٤.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨.

وتوفي بدمشق أيضًا في عشية نهار الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة الملك الكامل، وهو الأمير ناصر الدين محمد بن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب[١]، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، وحمل إلى تربة الملك الكامل بن الملك العادل وهو عم أبيه، وجده لأمه ربيعة خاتُون ابنة الملك الكامل، فأغلق باب التربة دون تابوته عامل التربة موسى بن أخت صاين الدين خطيب مُصَلَّى العيدين، وامتنع من الموافقة على دفنه بها، فتألم الناس لذلك، وضربوا موسى المذكور، ولم يفتح الباب، فتوجَّهوا بجنازته إلى تربة أم جده الملك الصالح، وكشفوا الأزَج[٢] فوجدوه مملوءًا بالأموات فجاؤوا به إلى قبر أبيه فوجدوه ضيقًا، فأحضروا الحجّارين فشقُّوا له قبرًا ودفن عند مغيب الشمس وكان نائب السلطنة يومئذ بالمرج، فطولع بذلك، فرسم أن يدفن عند والدته، فامتنع أهله من نقله، ومولده في ليلة الاثنين بطريق الحجاز الشريف، بمنزلة تسمى العقاب، بثَنِيَّة راطية خامس ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة سمع صحيح مسلم من ابن عبد الدايم وسمع من غيره، وحدث وكان من أمراء الطبلخاناة بالشام، كثير التواضع والمجون حسن المذاكرة والمداعبة، كثير النوادر، ولما مات أنعم السلطان على ولده صلاح الدين بإمرة طبلخاناه، وعلى ولده الأصغر بإمرة عشرة، وركبا بالخلع في رابع عشرين رجب بدمشق.

وتوفي بدمشق أيضًا في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى الشيخ العالم شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحَرّاني الحَنْبَلي[٣]، وهو أخو الشيخ تقي الدين، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر بجامع دمشق، ثم صلّي عليه بباب قلعة دمشق، وكانت جنازته مشهودة، ثم حمل إلى ظاهر باب النصر فصلي عليه مرة ثالثة، ثم صلي عليه مرة رابعة، ودفن بمقبرة الصوفية عند والده وأهله رحمهم الله، ومولده بحران في الحادي والعشرين من المحرم سنة ست وستين وستمائة.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٩، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٩١.

(٢) الأزج: بناء مستطيل مقوس السقف، والمراد به هنا القبور القديمة المطمورة.

(٣) ولد سنة ٦٦٦هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٧٦، الدرر الكامنة ٢/ ٢٦٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٩٠).

وتوفي في يوم الأربعاء بعد العصر الثالث من شعبان قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي بن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد البُصْرَوِي الحنفي(١) ببستانه بأرض سطرا ظاهر دمشق، وصُلِّيَ عليه بكرة الخميس بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون، وأوصى بثلث ماله في بكرة نهار وفاته صدقة على الفقراء والمساكين، ومولده في ثالث شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة بقلعة بُصْرَى، وسمع من ابن عبد الدايم وابن عطاء وغيرهما، وحدث رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق الصدر شمس الدين محمد بن الشيخ الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي(٢) صاحب ديوان المكاتبات بدمشق في ليلة السبت عاشر شوال، وصلّي عليه بالجامع الأموي، ودفن من الغد بتربة والده بسفح جبل قاسيون، ومولده في يوم الأحد ثامن شوال سنة تسع وستين وستمائة رحمه الله تعالى، ولما توفي استقر في كتابة الدَّرْج(٣) بعده بدمشق القاضي محيي الدين بن فضل الله، ولبس التشريف، وباشر الوظيفة في يوم السبت الثالث والعشرين من ذي القعدة، واستقر شرف الدين ولد شمس الدين في التوقيع بين يدي نائب السلطنة على ما كان عليه القاضي محيي الدين بن فضل الله، وخُلِعَ عليه أيضًا في اليوم المذكور، والله أعلم.

* * *

واستهلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بيوم الثلاثاء الموافق للعشرين من هاتور من شهور القبط، ورئي في كثير من البقاع يوم الاثنين، والسلطان الملك الناصر ـ خلّد الله ملكه ـ بمقر ملكه بقلعة الجبل المحروسة، ولا نائب للسلطنة بالأبواب العالية، فإنه منذ عَزْل الأمير سيف الدين أرغون الناصري عن النيابة، وتَوَجُّهه إلى حلب، لم يُفَوِّض السلطان النيابة إلى غيره، وإنما الأمير سيف الدين أَلْماس أمير حاجب يتحدث في أمر الجند، والأمير علم الدين مُغْلَطاي الجمالي الناصري في وظيفتي الوزارة وأستاذ الدّارية العالية على عادته، والديار المصرية والشام والبلاد الحلبية والساحلية والجبلية وغيرها، من الممالك الإسلامية الداخلة في مملكة السلطان الملك الناصر، على غاية الرخاء والخير، وانحطاط الأسعار.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، الدرر الكامنة ٣/ ٩٦، شذرات الذهب ٦/ ٧٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٢٠.

(٢) تقدمت ترجمته، وانظر ترجمته أيضًا في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، السلوك ٢/ ٢٩٠، شذرات الذهب ٦/ ٨٠، الدرر الكامنة ٤/ ٢٥١.

(٣) كاتب الدرج: تقدم التعريف به.

وفي يوم الخميس ثالث المحرم من هذه السنة أمر السلطان أن يتقدم الأمير سيف الدين بَشْتاك[١] على ألف فارس، وهي التقدمة التي انحلت عن الأمير سيف الدين كُوجَري[٢] أمير شكار، وأعطاه السلطان من خبز كوجري مَلُّوِي، وكمل له على ما بيده من الإقطاع مائة فارس، وأمر الأمير سيف الدين نوروز بطبلخاناة، وأمر ناصر الدين بن كوجري بعشرة طواشِيَّة، وأمر سيف الدين چِهازكَس[٣] بعشرة طواشية، وجُعِل أحد أمراء شكارية، وركب الأمراء في يوم الخميس ثالث شهر المحرم بالتشاريف والشَّرابِيش[٤] على عادة أمثالهم.

وفيها في يوم الاثنين السابع من المحرم توجه السلطان إلى جهة القصور بسرياقوس، فتصيد بتلك الجهة إلى يوم الاثنين رابع عشر الشهر ورجع، ومرّ تحت قلعة الجبل ولم يصعد إليها، ومرّ على طريق سوق الخيل إلى الصَّلِيبة إلى قناطر السباع، حتى انتهى إلى بولاق، فركب إلى جهة الجيزية، واستقر في نيابة السلطنة - في مدة غيبة السلطان - الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري أمير سلاح.

ووصل إلى الأبواب السلطانية رسل المَلك

أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ملك العراقين وخراسان، فكان وصولهم إلى باب الدِّهْليز المنصوري بمنزلة الأهرام في يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم، فمثلوا بين يدي السلطان، وسمع رسالتهم، وأحسن إليهم، ورسم بإعادتهم إلى مرسلهم، فتوجهوا بعد دخولهم إلى القاهرة في يوم السبت رابع صفر، واستمر السلطان بمنزلة الأهرام أيامًا، ثم توجه منها إلى جهة المنوفية، وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في منتصف نهار الأحد ثاني عشر صفر، فأقام بقلعة الجبل إلى يوم الخميس سلخ صفر، وتَوَجَّه في بكرة النهار إلى جهة القصور بسرياقوس، ثم عدى البحر إلى الجانب الغربي، وتَوَجَّه إلى جهة المنوفية، وتصيد هناك وعاد، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول من السنة، والله أعلم.

---

(١) سيف الدين بشتاك الناصري: قتل سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٧٧).

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٧٨.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٤.

(٤) الشرابيش: جمع شربوش، وهو غطاء للرأس كان على هيئة خاصة، وكان من شارات الإمارة (انظر: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٤٣).

ذكر وفود الأمير تَمُرتاش بن الأمير جوبان بن تُلْك ابن بِداون[١] نائب الملك أبي سعيد بمملكة الروم إلى الأبواب السلطانية

وسبب وفوده. وما كان من خبره إلى أن قُبِض عليه وقُتِل، ولنبدأ بذكر السبب الذي أوجب مفارقته المملكة الرومية، وحضوره إلى الديار المصرية، وهو ما وصل إلينا من أخبار والده وإخوته ومقتلهم، ثم نذكر أخبار تَمرتاش فنقول:

كان الأمير جُوبان بن تُلَكَ بن بداون نائب الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا صاحب العراقين وخراسان والروم وأولاده قد استولوا على مملكة التتار ما قرب منها وما بعد، وتحكموا فيها تحكم الملوك من غير منازع لهم ولا مناوىء، وزاد تحكمهم حتى لم يبق للملك أبي سعيد معهم إلا اسم السلطنة، وانفرد جوبان بالأمر كله بعد وفاة الوزير علي شاه، وقد تقدم من أخبار جُوبان وتمكنه وقَتْلِه من قَتَل من أكابر الأمراء وأقارب الملك ما ذكرناه في حوادث سنة تسع عشرة وسبعمائة ما لا يحتاج إلى إعادته، فلما كان في سنة سبع وعشرين وسبعمائة توجه الأمير جُوبان وولده الأمير حسن إلى بلاد خراسان، واستصحب معه معظم الجيوش، وتوجه لقصد محاربة أولاد الملك كِبِك على عادة التتار، وتأخر بالأردو[٢] من أولاد جُوبان دَمْشَق خواجا، فأنهى إلى الملك أبي سعيد عنه أنه قد عزم على الوثوب عليه وقتله، حتى صحّ ذلك عنده، واتهم أيضًا ببعض نساء الملك خرْبَنْدا والد أبي سعيد، فعند ذلك أمر الملك أبو سعيد بقتله، واتصل الخبر به فركب في طائفة يسيرة من مماليكه، وقصد الهرب إلى أبيه فأُدْرِك لوقته، وقُتِل بظاهر مدينة سُلْطانية، وترك مُلْقىً بعد قتله، وذلك في شوال سنة سبع وعشرين.

ولما اتصل خبر مقتله بوالده الأمير جُوبان أظهر الخلاف، وعزم على حرب الملك أبي سعيد، ورجع بالعساكر التي كانت معه من خراسان، وتوجه الملك أبو سعيد لقتاله بمن بقي عنده من العساكر، وتقدم كل منهما بعساكره إلى الآخر، حتى

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك ٢/٢٩٢، النجوم الزاهرة ٩/٢٧٢، الدرر الكامنة ١/٥١٨.

(٢) الأردو: لفظ مغولي معناه العسكر، وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٦).

بقي بينهما منزلة أو نحوها، ففارقه أكثر من كان معه من الأمراء أولاً فأولاً، والتحقوا بالملك أبي سعيد، فعند ذلك رجع جُوبان بمن بقي معه إلى خراسان، ففارقه من بقي معه من الأمراء إلى خدمة الملك، وبقي في نحو ستمائة فارس من ألزامه ومماليكه، فتوجه بهم، ولم يتبعه الملك أبو سعيد، ولا جَرّد خلفه عسكرًا، بل رضي كل منهما من الغنيمة بالإياب، ولعله إنما ترك ذلك خشية أن يكون لحاق من كان مع جوبان من العساكر به مكيدة، وعزم جوبان على اللحاق بأولاد الملك كِبِك، والاستنصار بهم على حرب الملك أبي سعيد.

فلما وصل إلى هَراة - من أعمال خراسان - خرج إليه نائبها، وهو أمير جريء مقدام، له فتكات معروفة، وهو ممن أنشأه جوبان وقدمه فتلقاه وخدمه وعرض عليه الدخول إلى هَراة والإقامة بها إلى انقضاء فصل الشتاء، ويتوجه بعد ذلك إلى حيث أحب، فركن إلى قوله، ووثق به، ويقال: إن ابنه حسن كره ذلك ونهى والده عنه، وذكره بغَدَراته، وكان قد حصل لجُوبان مرض منعه من إدامة الحركة والسير، فترجح عنده الدخول إلى هراة، فدخل إليها، وفارقه ابنه حسن، والتحق بالملك أزْبَك صاحب صراي والبلاد الشمالية، فأكرمه أزْبَك، وأحسن إليه، ولما صار جوبان بهراة بادر نائبها بالقبض عليه وقتله، وكتب إلى الملك أبي سعيد بذلك.

وقُتِل أيضًا ولد لجُوبان بكردستان، ثم حُمِل جوبان في تابوت، وجيء به إلى بغداد في سابع عشرين شوال سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وصلي عليه بالمدرسة المستنصرية، ثم حمل إلى مكة - شرّفها الله تعالى - في جملة الركب العراقي وطِيفَ به، وحمل إلى عرفة، ثم إلى منى، وأعيد إلى مكة، وحمل منها إلى المدينة النبوية ليدفن في تربته التي أنشأها بالمدينة، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الناصر كتب إلى أمير المدينة النبوية ألا يدفن في التربة، فدفن في البقيع، وكان السبب في الاحتفال به، وحمله إلى مكة والمدينة أن الملك تزوج ببَغْداد خاتُون ابنة جُوبان بعد مقتل والدها وأخويها، وحظيت عنده، وشغف بها، وكان يحبها قبل ذلك، وقصد زواجها، فزوجها والدها من الأمير الشيخ حسن بن الجتيه، فلما قتل جوبان أمره الملك أبي سعيد بطلاقها، وتزوجها وشُغِف بها، وتمَكّنت من دولته أكثر من تَمَكُّن أبيها على ما نذكر مما يصل إلينا إن شاء الله تعالى من أخبارها، فأمرت بحمل أبيها إلى الحجاز الشريف، هذا ما بلغنا من أخبار جوبان.

وأما الأمير دمرداش بن جوبان[(١)]

وهو نائب الملك أبي سعيد بالمملكة الرومية، وكان قد استقل بأمرها، واستولى على أموالها وعساكرها من غير منازع له فيها ولا معارض، فإنه لما اتصل إليه خبر مقتل أخيه دَمْشق خواجا، وما كان من خلاف أبيه علم أنه لا يمكنه الإقامة بالمملكة الرومية، وأنه متى يفرغ وجه الملك أبي سعيد من أمر جوبان يقصده بالعساكر، فكتب إلى السلطان الملك الناصر يسأله الإذن له في اللحاق به، والانضمام إليه والالتجاء إلى حرمه، فأذن له في ذلك، وكتب السلطان إلى نوابه بالشام بتلقيه وإكرامه.

ولما ورد عليه جواب السلطان حصّن أهله وولده وأمواله بقلعة حصينة، وجعل فيها ذخائره وحَصَّنها بالعُدَد والأقوات الكثيرة، ثم ركب في عسكر الروم. وأظهر أنه يتوجه في مُهم بأمر الملك أبي سعيد، فلما كان بأثناء الطريق نزل بمنزلة، ولبس لأمَةَ حرْبه هو ومن يعتمد عليه من ألزامه ومماليكه، وقال لمن معه من العسكر: أنا متوجه إلى الديار المصرية، فمن أحب أن يصحبني فليعتزل العسكر، ومن أحب الرجوع إلى بلاد الروم فليرجع، ومن أحب القتال فَلْيَبْرُز للحرب، فما جَسَر أحد منهم على قتاله، ولا أقدم على حربه، بل تَرَجَّلُوا وخدموه، ورجعوا إلى بلادهم، وتقدم هو إلى الشام في نحو ستمائة فارس، فكان وصوله إلى دمشق في يوم الأحد خامس عشرين صفر سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فتلقّاه نائب السلطنة بها الأمير سيف الدين تُنْكُز وأكرمه وجهّزه إلى الديار المصرية، فوصل إلى خدمة السلطان، والسلطان بمنزلة أوسِيم من الأعمال الجيزية في ليلة الخميس المسفرة عن سابع عشر شهر ربيع الأول، ومُثِل بين يدي السلطان في بُكْرة نهار الخميس المذكور، فأكرمه السلطان، وأحسن إليه، وأنعم عليه بتشريف أطلس معدلي بَطرززَركش وكَلُوُته زَرْكش، وشاش رقيم وحياصه ذهب مجوهرة على عادة نواب السلطنة الشريفة، وحضر في خدمة السلطان في بقية نهار الخميس إلى قلعة الجبل المحروسة، وأسكنه السلطان بالقلعة بدار كان يسكنها خاصّ تُرْك الناصري[(٢)]، ثم رسم بتجديد عمارة دارين بقلعة الجبل وإصلاحهما، فأُصلحا، وأسكنه بهما هو ومن معه من الأمراء أصحابه، ووكّل السلطان بخدمته وملازمته وقضاء حاجته الأمير سيف الدين طُرْغاي الجاشْنَكِير[(٣)]، وأنعم السلطان عليه بالأموال

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٥١٨، السلوك ٢/٢٩٢.

(٢) هو الأمير سيف الدين خاص ترك بن عبد الله الناصري (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٤).

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٧٧، السلوك ٢/ ٢٩٤.

والأقمشة والخيول، ورتب له ولمن معه الرواتب المتوفرة، فرتب له في كل يوم من اللحم ثلاثمائة وأربعين رطلًا، وغير ذلك مما يحتاج إليه.

وركب في يوم الاثنين حادي عشر الشهر في الموكب بالأقْبِيَة الإسلامية والكَلُّوتَة والشاش على عادة العساكر المصرية، وحضر إلى الخدمة السلطانية، وأجلس في مجلس السلطان بدار العدل الشريف بالإيوان إلى جانب سيف الدين آل مَلك[١] الجُوكان دار[٢] دونه بلواء تلو الأمراء مقدمي الألوف.

ووصل في يوم السبت تاسع عشر شهر ربيع الأول الأمير شاهَنْشاه وهو ابن عم الأمير جُوبان، وكان وصوله من جهة الرحبة، وذكر أن ابن عمه جوبان أرسله إلى خدمة السلطان يعرفه ما وقع، وذكر أنه فارقه من بلاد خراسان عند عزمه على دخول غَزْنَة إلى أولاد الملك كِبك، ولعله فارقه قبل وصوله إلى هَراة، فخلع السلطان على شاهَنْشاه تشريفًا كنجيًا أحمر، وكَلُّوتَة زركش، وأنزله عند تَمُرتَاش، ثم وصل طلب تَمُرْتاش وأنْقاله إلى القاهرة المحروسة في يوم الخميس ثامن عشرين شهر ربيع الأول، فأُنزلوا بدار الضّيافة، وهم نحو ستمائة فارس، فرسم السلطان بعرضهم في يوم الأحد مستهل شهر ربيع الآخر، فعرضوا وفُرّق أكثرهم على الأمراء، ورسم للأمراء أن يقوموا بكُلَفِهم من خواصّهم من غير إقطاع، وسأل جماعة منهم العود إلى بلادهم، فأذن لهم السلطان، وزَوَّدَهم وكتب إلى نواب الشام بتمكينهم من العود، فتوجه منهم نحو تسعين فارسًا.

ووصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الأحد مستهل شهر ربيع الآخر رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا، وهما اثنان، فمَثُلا بين يدي السلطان لوقتهما، وأديا رسالتهما، وخُلع عليهما، وذكرا أنهما توجها من جهة الملك قبل وصول الخبر إليه بمفارقة تَمرْتاش البلاد الرومية، ولحاقه بالديار المصرية، ثم مَثُلا بين يدي السلطان في يوم الاثنين، وأقام بالأبواب السلطانية إلى يوم الاثنين تاسع الشهر، فأعيدا إلى مرسلهما وجهز السلطان من جهته الأمير سيف الدين أُرُج مِملوك قَبْجَق وكتب معه إلى الملك أبي سعيد يشفع في تَمُرْتاش ويستوهبه منه ويسأله إطلاق عياله وألزامه من بلاد الروم، واستمر تَمُرْتاش في الخدمة السلطانية، والسلطان يضاعف له الإكرام، ويصله بالإنعام الواصل والخيول، وتوجه في خدمة السلطان إلى الصيد بجهة البحيرة وعاد ثم

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤١١، والنجوم الزاهرة ٩/ ١٠٢، والسلوك ٢/ ٢٩٤.

(٢) الجوكاندار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

رسم السلطان له أن يرسل في إحضار ولده وأهله وأمواله من بلاد الروم، وكتب في ذلك إلى الأمير ابن قَرَمان صاحب الجبال ورئيس التركمان، فتوجه رسوله صحبة رسول السلطان إلى القلعة التي بها ولده، فلم يوافق على الحضور، وقال: إن بينه وبين أبيه أمارة لم تصل إليه، وظهر للسلطان من تمرتاش خبث طوية، وسوء نية، فأمر عند ذلك بالقبض عليه وعلى الأعيان الذين معه، فقبض عليه وعلى الأميرين شاهَنْشاه ومحمود في يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة، واعتقل تمرتاش ببرج السباع، ومحمود وأخوه عثمان وشاهَنْشاه بالبرج الصغير.

ووصل رسل الملك أبي سعيد إلى الأبواب السلطانية

في يوم الأربعاء حادي عشر شهر رمضان، وهم ثلاثة نفر، المشار إليه منهم أياجِي أمير جاندار الملك أبي سعيد، ومَثُلوا بين يدي السلطان، وشملهم الإنعام بالتشاريف على عادة أمثالهم، وأرسلهم السلطان إلى تَمُرتاش في معتقله صحبة الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح، فاجتمعوا به، وتحدثوا معه، وقيل كان مضمون رسالتهم طلب تمرتاش من السلطان، وأنه إذا أُسلم إليهم أرسل الملك أبو سعيد إلى السلطان في مقابل ذلك الأمير شمس الدين قَرا سُنْقُر المنصوري، فمال السلطان إلى ذلك، ورسم للأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي أن يتوجه إلى الملك أبي سعيد برسالة السلطان لتقرير الحال في ذلك، وتوجه طلبه في يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان، ثم عَدَل السلطان عن هذا الأمر، وترجح عنده أنه لا يرسله إلى الملك أبي سعيد.

فلما كان في ليلة الخميس رابع شوال من هذه السنة أُخْرِج تَمُرتاش من معتقله بالبرج، وفتح باب السِّرِّ من جهة القرافة، وأُخْرِج منه وهو مقيد مغلول وقد جُمعت يداه إلى عنقه وطُلب رسل الملك أبي سعيد، وشاهدوه على هذه الحال، ثم خُنِق وشاهدوه بعد موته، وقُطع رأسه وسُلخ وصُبِّر وحُشي وأرسل السلطان الرأس إلى أبي سعيد، ودفن الجسد بمكان قتله، وحضر الرسل إلى الخدمة السلطانية في يوم الخميس رابع شوال، وركبوا في خدمة السلطان في يوم السبت إلى الميدان، ثم حضروا إلى الخدمة في يوم الاثنين ثامن شوال، وشملهم بالخِلَع والإنعام، وأعيدوا إلى مرسلهم في هذا اليوم، وتوجه أيضًا الأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي برسالة السلطان إلى الملك أبي سعيد.

هذا ما كان من أخبار تَمُرتاش على سبيل الاختصار، والله تعالى أعلم بالصواب.

فلنرجع إلى سياقة الحوادث في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وفي هذه السنة توجه السلطان أيضًا إلى الصيد بالوجه البحري في يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الآخر، وتصيد بجهة البحيرة وغيرها، وعاد إلى قلعة الجبل في الثانية من نهار الخميس سادس عشرين الشهر، وهي السفرة التي كان تَمُرتاش معه فيها.

ذكر وصول الأمير سيف الدين تُنْكِز نائب السلطنة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية وعوده

وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة وصل الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية وشمله التشريف والإنعام والزيادة في إقطاعه ثم رُسم بعوده إلى الشام، فعاد وتوجه في عوده لزيارة الخليل صلوات الله عليه، والبيت المقدس، وشاهد العين التي أجريت إلى القدس الشريف، وكان قد جَرَّد إليها من دمشق في شوال سنة سبع وعشرين وسبعمائة الأمير سيف الدين قُطْلُوبك بن الجاشْنكير فتوجه ولازم العمل، واجتهد فيه، ووجد آثار قُنِيّ قديمة قد سدت، وقُلْفِطَت، فيسّر الله تعالى فتحها، ووصل الماء إلى القدس في شهر ربيع الأول من هذه السنة، ولما شاهد نائب السلطنة المذكور العين رسم بعمارة حمام على فائض الماء.

ذكر وفاة قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري الحنفي وتفويض القضاء بعده إلى القاضي برهان الدين إبراهيم بن عبد الحق

وفي يوم السبت خامس جمادى الآخرة بعد أذان العصر توفي القاضي شمس الدين محمد بن صفي الدين عثمان بن زكي الدين أبي الحسن بن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي المعروف بابن الحريري[١] قاضي الحنفية بالديار المصرية، وكانت وفاته بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة، وكان قد مرض وطالت مرضته،

---

(١) انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٧، شذرات الذهب ٦/ ٨٨، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨، الدرر الكامنة ٤/ ١٥٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٩٠، السلوك ٤/ ٩٣.

فركب في أثناء مرضه مرارًا إلى المدارس لإلقاء الدروس، وحضر دار العدل الشريف، ثم عاوده المرض غير مرة، وتمادت العلة به حتى مات، رحمه الله تعالى ودفن في يوم الأحد بالقرافة الصغرى بتربته التي أنشأها، ومولده في عاشر صفر سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وخلّف تركةً طائلة، وكان رحمه الله تعالى قاضيًا عالمًا بمذهبه، شديدًا في أحكامه، غير متحاش من أرباب الدولة من الأمراء وغيرهم.

ولما توفي رحمه الله تعالى تُحُدِّث مع السلطان في ولاية القضاء، واعْتُنِيَ عنده بقوم، ثم وقع الاختيار على القاضي بُرهان الدين إبراهيم المذكور بن القاضي كمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي بهاء الدين أحمد بن الشيخ زين الدين علي بن عبد الحق[١]، فرسم بطلبه من دمشق، وكتب لنائب السلطنة بها، وتوجه البريد بذلك في يوم الثلاثاء ثالث الشهر، وكان وصوله إلى القاهرة المحروسة في يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ومثل بين يدي السلطان، وفوض إليه القضاء، وما كان بيد القاضي شمس الدين الحَرِيري من المدارس والأوقاف، وخلع عليه وأنعم عليه ببغلة، وأنزل إلى المدرسة الصالحية بالقاهرة، وحكم في بقية يومه، وجلس بدار العدل في يوم الاثنين الثامن والعشرين من الشهر، وأجلِسَ دون قاضي القضاة تقي الدين بن الأخْنائي[٢] المالكي على العادة القديمة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الملك أزْبَك ووصول رسله، وعودهم إلى مرسلهم

وفي يوم السبت العاشر من شهر رجب عاد الأمير سيف الدين أطُوجي ورفيقه من جهة الملك أزْبَك صاحب صراي والبلاد الشمالية، وصحبته رسل الملك أزبك، فمثلوا بين يدي السلطان، وأحْضروا ما معهم من الهدايا والتقادم، وأدُّوا الرسالة، فشملهم الأنعام والخِلَع على عادة أمثالهم، وأنزلوا بالميدان، وتكرر حضورهم بين يدي السلطان، ثم أحضروا في يوم الخميس حادي عشر شوال من السنة إلى مجلس السلطان، وعاد وخلع عليهم تشاريف طَرْدوَحْش مُذهّب، ورسم بعودهم إلى مرسلم، فتوجهوا إلى ثغر الإسكندرية في يوم السبت العشرين من الشهر، وتوجه من جهة السلطان الأمير سيف الدين أطارس أنان أحد أمراء العشرات، وصحبته عمه تيلق.

---

(١) توفي سنة ٧٤٤هـ (انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٦٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٤٦ - ٤٧).

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي المالكي (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٧، شذرات الذهب ٦/ ١٠٣، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٢).

وفيها في يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر رجب الفرد عُقِد نكاح الأمير سيف الدين طُغَيْتَمُر العمري الناصري أحد الأمراء المماليك السلطانية مقدمي الألوف على إحدى بنات السلطان، ورسم السلطان بإعفاء الأمراء من التقادم، وحمل الشمع، وأنعم على الأمير المشار إليه من مال السلطان بأربعة آلاف دينار عوضًا عما كان يصل إليه من تقادم الأمراء.

ذكر مقتل الأمير بدر الدين كُبَيش أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وتولية أخيه طُفَيل

وفي يوم السبت مستهل شعبان من هذه السنة وثب أولاد الأمير وَدِيّ بن منصور بن جمّاز بن شِيحَه على الأمير بدر الدين كُبَيْش أمير المدينة النبوية فقَتلوه خارج المدينة، ووصل الخبر بذلك إلى الأبواب السلطانية في أواخر الشهر، ففَوَّض السلطان الإمرة لأخيه الأمير سيف الدين طُفَيل، وكان قد حضر إلى الأبواب السلطانية، فخُلِع عليه، وتوجه إلى المدينة النبوية.

وفيها في شهر رمضان فَوَّض السلطان قضاء المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - والخطابة بها لصاحبنا وأخينا في الله تعالى القاضي شرف الدين محمد بن القاضي عز الدين محمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين إبراهيم بن يحيى بن أبي المَجْد اللَّخْمي المعروف جد أبيه جمال الدين بالأسيوطي، ولي القضاء عوضًا عن شرف الدين يعقوب المدني، والخطابة عوضًا عن القاضي بهاء الدين موسى بن سلامة، وخُلِع عليه، ورُسِم له بمال، يوفي منه ما عليه من الدَين، ويتجهز ببقيته، وكانت ديونه تزيد على سبعة آلاف درهم، وتجهز أحسن جهاز، وتوجه صحبة الركب في شوال، كتب الله سلامته، وأعانه على ما ولاه.

ذكر ما قرر من استيمار الدولة الناصرية ومن رتب من المباشرين

وفي هذه السنة في شوال منها حسن جماعة للسلطان أن يُوفَّر من جامكية[1] مباشري الدولة الشريفة، ومباشري المعاملات بالقاهرة ومصر والأعمال البرانية وأرباب الوظائف جملة، ومنهم من وُفِّر.

---

(١) الجامكية: من الفارسية: جامة، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٩).

فلما كان في يوم الأحد رابع عشر شوال قُرىء الاستيمار على السلطان وتعين من توفر، ثم أحضر مباشري الدولة في يوم الاثنين، وتجدد الحديث في ذلك، فلما انفصلوا من بين يديه رُسم بطلب الصاحب أمين الدين عبد الله، فطلب من داره فحضر ومثل بين يدي السلطان بعد العصر، وخُلع عليه وعلى القاضي مجد الدين بن لُفَيْتة[١] بغير طرحات، ورَتَّبهما السلطان في نظر النظار والصحبة، ونقل القاضي شمس الدين بن قَزْوِينة ناظر الدواوين إلى نظر البيوت السلطانية، وخلع عليه أيضًا معهما، وباشر الصاحب أمين الدين النظر وكشف الرواتب، وأوقف أربابها إلا بعد العرض على من ندب لذلك، ومن عُرِض شُطِب اسمه، وكتب إلى سائر الممالك الشامية الساحلية بأوقاف أرباب الرواتب المقيمين بالديار المصرية المُرَتَّبين على الشام، ولا يصرف لأحد منهم شيء إلا بتوقيع جديد لاستقبال شوال من السنة، وشدّد في ذلك، فاجتمعت به، وسألته عن هذا الحال ومقصده فيه، فحلف لي بالله أنه لا غرض له في قطع مُستحق، وأن غرضه في الكشف، والعرض أن جماعة من أرباب الرواتب دَرَجوا بالوفاة، وتسمى غيرُهم بأسمائهم، وقبض مرتبهم ممن للكُتّاب بهم عناية، وأن ذلك لا يتميز له إلا بالعرض والكشف، ثم كتب قِصصة بعد ذلك إلى السلطان يطلب فيها الإعفاء من المباشرة، فلم يُجَب إلى ذلك، فكتب قِصَّة ثانية، فأجِيب إلى سُؤْله، وأعفي من المباشرة بعد العصر من يوم الأربعاء تاسع عشرين ذي القعدة، وهو سَلْخة، فكانت مدة مباشرته أربعة وأربعين يومًا تحريرًا.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شوال عُقِد نكاح الأمير سيف الدين منكلي بُغا السلاح دار الناصري على الخوند دُلَنْبيه زوج السلطان ـ كانت ـ وهي التي وصلت من بلاد أزْبَك وهي من البيت الجَنْكِزخانِي، وكان السلطان قد أبانها بالطلاق، وبنى الأمير سيف الدين بها في ليلة الخميس ثاني ذي القعدة.

ذكر الإفراج عمن يذكر من الأمراء والمعتقلين

وفي هذه السنة في يوم الخميس ثامن ذي الحجة أمر السلطان بالإفراج عن الأمير حسام الدين لاجين الجاشنكير المنصوري المعروف بزِيرباج وقد ذكرنا اعتقاله في يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الآخر لسنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام، وأفرج أيضًا في هذا اليوم عن الأمير

(١) مجد الدين بن لفيتة: هو إبراهيم بن لفيتة، مجد الدين ناظر الدولة، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٣).

جمال الدين فرج بن الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري وأفرج في يوم الجمعة - يوم عرفة - عن الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، وقد ذكرنا أنه كان قبض عليه في يوم الجمعة ثامن عشرين شعبان سنة عشرين وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ثماني سنين وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا.

وفيها في يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة توجه السلطان إلى الصيد بجهة سرياقوس، وتصيد بتلك الجهة، وعاد إلى قلعة الجبل عشية نهار الجمعة سادس عشر الشهر، فأقام بقلعة الجبل إلى آخر يوم الأربعاء الثامن والعشرين من الشهر، وتوجه في بكرة نهار الخميس تاسع عشرين الشهر إلى الصيد بجهة سرياقوس.

وفيها في آخر نهار الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وصل إلى الأبواب السلطانية من الحجاز الشريف - ممن وقف بعرفة في هذه السنة - سيف الدين ألناق السيفي أحد مماليك الأمير سيف الدين الحاج آل ملك الجُوكَنْدار ورفيقه أحد مماليك الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر العمادي ومَثُلا بين يدي السلطان في بكرة نهار الأربعاء، وشملهما الإنعام والتشاريف على عادة أمثالهما، وأخبرني سيف الدين ألناق المذكور أن الوقفة بعرفة كانت يوم الجمعة من غير شك في ذلك، وأن الحاج في خير ورخاء، وأن المياه كانت كثيرة متيسرة ولله الحمد على ذلك، وسألته عن يوم مفارقته الحاج، فذكر أنه ركب من مكة شرّفها الله تعالى بعد المغرب من نهار الاثنين ثاني عشر الشهر، فمدة سفره خمسة عشر يومًا وتسع ساعات، وقد ذكرنا في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وصول أوجي مملوك قِجْلِيس وطُرُنْطاي الكريمي في اثني عشر يومًا وتسع ساعات.

ذكر متجددات كانت بدمشق في هذه السنة

من ذلك كانت عمارة الحائط القبلي بالجامع الأموي، وذلك أنه في أول شهر ربيع الأول فُكَّ الرخام الذي بالجدار القبلي من الجهة الغربية ليُصْلَح ويُعاد، فظهر في الحائط عند كشفه ميل ظاهر، فأخر إصلاحه إلى أن عاد نائب السلطنة من الديار المصرية، فطُولع بذلك، فحضر في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر إلى الجامع، وصحبته قاضي القضاة علاء الدين وغيره، وأحضر المهندسين، وعُمِل تقدير ما يحتاج إليه لنَقْضِه وإعادته، فكان مائة ألف درهم، فطولع السلطان بذلك، فورد المثال السلطاني بهدمه وإعادته في يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى، فهدم الحائط بعد صلاة الجمعة، فنقض منه ثمانية مَعازِب وعشرة أوتار جسورة، وانتهوا إلى نقض

الحجارة في يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة، وحضر نائب السلطنة، وشاهدها قبل نقضها، فنقضت، وهي حجارة كبار تشبه عمارة القلاع، وانتهوا إلى الأساس في يوم الجمعة سابع عشر الشهر، وحصل الشروع في البنيان في يوم الأحد تاسع عشر الشهر، وانتهت عمارة الحائط في خمسة وعشرين يومًا.

وجُدِّد في الحائط محراب يشبه المحراب المعروف بمحراب الصحابة الذي في الجهة الشرقية بين باب الزيارة وباب الخطابة، واستقر أن يُصَلِّيَ فيه أمام الحنفية، وكملت العمارة وإعادةُ السقف وغيره في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب، وخلع على ناظر الجامع والمشد والمغاربة في هذا اليوم، وفرش الجامع على عادته في يوم الجمعة ثالث عشرين شهر رجب، وصُرِف على عمارته - فيما قيل - نحو خمسين ألف درهم، ووُجِد سُلَّمٌ عظيم لصومعة مبني بالحجارة المنحوتة، فنقض السلم، وحملت حجارته على العتّالين إلى هذا الحائط، فعُمِّر به، وأعان ذلك إعانة كبيرة، ولولا ذلك لاحتاج إلى كُلْفة عظيمة، ورُخِّمَ الحائط، فكان الفراغ من ترخيمه في يوم الخميس سادس عشرين صفر سنة تسع وعشرين، وصُلِّيَ تحت الحائط بعد ترخيمه في يوم الجمعة سابع عشرين الشهر، وفتح باب الزيارة - وكان قد أغلق بسبب العمارة - واستقر في أمر الأئمة وترتيبهم في الصلاة في صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث عشرين شهر رجب من هذه السنة ما نذكره، فصلّى إمام الكَلاّسة أولاً على عادته، وصلّى بعده إمام مشهد علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه، وصلى الخطيب بعدهما، وهو إمام الشافعية، وصلّى بعده إمام الحنفية في المحراب المستجد، ثم إمام المالكية نقل إلى محراب الصحابة، وبعده إمام الحنابلة صلّى بالمحراب الذي كان المالكي يصلي فيه غربي الجامع بمقصورة الخطابة، ووسع المحراب المذكور، ورفع عنه العمارة، وصلّى بعده إمام مشهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبعده إمام مشهد ابن عُرْوَة، ونقل الإمام الذي كان يصلي بمحراب الصحابة إلى محراب الكلاّسة القديم بالمعلوم الذي كان له بمحراب الصحابة، واستقرت الحال على ذلك.

وفيها في أول ليلة السبت خامس جمادى الأولى وقع حريق عظيم بسوق الفَرّانين بدمشق، كان مبدأه من دكان قَطّان في طريق قَيْسارية الفرش، وامتد إلى سوق الفَرّانِين وإلى القَيْسارية المستجدة وقَيْسارية البِيمارِسْتان وبعض حوانيت سوق علي، وعجز الناس عن طَفْيِه، واستمرت النار إلى يوم الأحد، ثم طُفِي.

وفيها أمر نائب السلطنة بدمشق بعمارة المدارس بها، ومنع من التصرف في شيء من رَيْع الأوقاف إلى أن تكمل عمارتها، ففعل ذلك، ورسم بتقرير مال يُجْبَى لعمارة قُنًى بدمشق، فقُرر لذلك نحو ثلاثمائة ألف درهم، وندب لعمارة القنى ناصر الدين النَّجِيبي، فعمر منها في هذه السنة إلى آخر سنة تسع وعشرين إحدى وعشرين قناة، وبقي نحو أربع قنى تُعْمَر إن شاء الله في سنة ثلاثين وسبعمائة.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة ورد مرسوم شريف سلطاني إلى دمشق بمنع الشيخ تقي الدين أحمد بن تَيْمِيَة من الكتابة مطلقًا في التصنيف والفُتْيا، فأخذ ما عنده من الكتب والأوراق والدواة والأقلام وأودع ذلك عند متولي قلعة دمشق، فكان عنده إلى مستهل شهر رجب، ثم أرسل المتولي ذلك إلى قاضي القضاة علاء الدين، فجعل الكتب في خزانة المدرسة العادلية، لأنها كانت عارِيَة، وأما الأوراق التي كانت بخطه من تصانيفه فكانت نحو أربع عشرة ربطة، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وفُرِّقت بينهم.

وكان سبب ذلك أنه وُجِد له جوابٌ عما رَدَّه عليه قاضي القضاة تقي الدين المالكي، فأعلم السلطان بذلك، فاستشار قاضي القضاة، فأشار بذلك، فرسم به، فحينئذ عدل الشيخ عن ذلك إلى تلاوة القرآن.

وفيها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة رسم القاضي الصدر علاء الدين علي بن الصدر المرحوم شرف الدين محمد بن محمد التميمي القَلانِسِيّ(١) - أحد كتاب الإنشاء بدمشق المحروسة - أن يجلس بين يدي نائب السلطنة يوقع على القِصَص المَرْفوعة، عِوَضًا عن أخيه جمال الدين القاضي، بما كان له من المعلوم على وظيفة الكتابة، وأن يستقر ما كان باسم القاضي جمال الدين من المعلوم عن الوظيفة المذكورة له على قضاء العسكر الشامي، وخُلِعَ عليهما بسبب ذلك، والله أعلم.

ذكر حادثة السيل بعَجْلُون

وفي هذه السنة في يوم الأربعاء ثامن عشرين ذي القعدة كانت حادثة السيل بمدينة عَجْلُون، وورد محضر بذلك إلى دمشق نسخته:

---

(١) ولد سنة ٦٧٣هـ، وتوفي سنة ٧٣٦هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١١٨).

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله الذي يُرْسِل آياته تخويفًا للعباد، ويريهم باهرات قدرته ليسلكوا سبل الرشاد، ويظهر لهم جَبَرُوتَه في ملكوته، ليحسنوا لأنفسهم الارتياد، ويعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله لا يخلف الميعاد، ثم يدركهم برأفته ورحمته، ويكشف ما نزل بهم من المعضلات الشداد، ولما كان في يوم الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أرسل الله تعالى بقدرته ومشيئته بمدينة عَجْلُون ريحًا عاصفًا، فأثارت سحابًا ثقالاً هطلت بماء منهمر يُدَوِّي وريح زَعْزع، فلم تزل الأمطار متواترة الهَطْل والبروق تلمع، وأصداء الجبال والأودية بأصوات الرُّعود للقلوب تَصْدَع، حتى ظن أهلها أنها قد أزفت الآزفة، فارتفعت الأصوات بأن ليس لها من دون الله كاشفة، ولفت الرؤوس، ووجلت القلوب، وذرَفت العيون، وطاشت الألباب، وخضعت الرقاب، ومُدت الأيدي بالدعاء لمن بيده أمر الأرض والسماء، وعاينوا في ذلك اليوم هولاً عظيمًا، وأشفقوا أن يكون أرسل الله عليهم عذابًا أليمًا، فبينما الناس على ذلك الحال ذاهلين، يقولون ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] إذ دهمهم سيل عظيم ماؤه، طام عبابه هام سحابه، له دوي شديد، قد اجتمع من عيون الجبال وبطون الأودية وقرار الوهاد، فالتقى الماء على أودية بأمر قد قدر، إن في ذلك لآية فهل من مُدَّكِر، فارتفع العويل، وسُكِبَت العَبَرات، واشتد الخوف، وتضاعفت الحسرات، وفر كل واحد من الناس يطلب النجاة لنفسه، واحتسب عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه، فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في مَمَرِّه من الدور والقياسير والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانبًا من حارة المشارقة المجاورة للوادي، وأخذ العرصة وسوق الأدمِيِّين، وسوق القطانين، وبعض دار الطعن وسوق الأقباعين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بَكْتَمُر، والقيسارية القديمة، وأخذ من قيسارية ملك الأمراء الموقوفة على البِيمارستان بصَفَد عشرين حانوتًا، وضعضع بقية الجُدُر، وهدم الأبواب وهدم سوق الصاغة، وهدم سوق النامية، الذي بقرب العين، وهدم وقف الجامع، وسوق السقطيين، وأما السوق المعروف بإنشاء الأمير علاء الدين بن معبد وسوق اللحامين وحوانيت الخَبّازين فإنه أخذه، وأخذ السوق المعروف بإنشاء الأمير سيف الدين النائب كان بقلعة عجلون، والحوانيت المعروفة بوقف القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية الموقوفة على مدرسته بنابلس وأخذ المدرسة النفيسِيَّة وهدم رُواق الجامع القبلي وباب الجامع الشرقي، وهدم جانبًا من الحمام الصالحي المعروف بأمير موسى، وبعض الحمام السلطاني، وأخذ ظهارة الجامع والمربعة والمسلخ المعروف بابن معبد، وأخذ

ما كان في مجراه من الجسور والقناطر والأقباء التي كان يجوز الناس عليها عندما تَمُدّ الأودية وعدم من عجلون تقدير عشرة أبقار، وهذه قدرة الملك الجبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وكان مدة تواتر الأمطار والسيل من أول ساعة من النهار المذكور إلى وقت العصر، وفي ذيل المشروح خط جماعة من الشهود.

هذا ما أورده الشيخ شمس الدين الجَزَري في تاريخه.

ونقل الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه نسخة الكتاب الوارد من عجلون فقال:

الحمد لله المحمود في السراء والضراء، المشكور على الشدة والرخاء الذي يُخَوِّف عباده بما شاء من معضلات اللأواء، ويريهم باهرات قدرته في ملكوت الأرض والسماء، ثم يعود عليهم برحمته، ويجللهم بسوابغ النعماء، أحمده حمدًا يزيد على الإحصاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العظمة والكبرياء، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خاتم الأنبياء، ومبلغ الأنباء صلى الله عليه وعلى آله الأمناء، وأصحابه الأتقياء، صلاة دائمة بلا نفاد ولا انقضاء، وبعد: فإنه لما كان بتاريخ نهار بكرة الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أرسل الله تعالى بقدرته ريحًا عاصفة، فأثارت سُحُبًا واكفة في خلالها بروق خاطفة، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة فطبقت الوهاد، وجللت الآكام، وأطبقت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام، ثم أرخت عَزَالِيها كأفواه القِرَب، حتى خُيِّل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب، فلم يكن إلا كحلب شاة من الضأن، أو ما قارب ذلك من الزمان، حتى صارت مدينة عَجْلُون كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ - ١٢] فوَجِلت القلوب لهول ذلك وتصدعت، وكادت الحوامل أن تضع حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، واندهش أهل البلد عند معاينة هذا الهول الكبير، واختلفت همومهم، فكل إلى ما اشتمل عليه قلبه يشير، فمن باك على ما في يده من متاع الدنيا الحقير، ومن مشفق خائف على ولده الصغير، ومن غريق عدم نفسه النفيسة، ما له من ملجأ يومئذ وما له من نَكِير، ومن ناج يقول: أشهد أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، ومن ضارع إلى من ليس كمِثْلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ، ومن قائل: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] ولسان الحال يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] ولم تزل الأمطار متواترة، والسيول من

كل فج متواترة، حتى تحير من حضر ذلك من الإنس والجان، وشغلوا بما عاينوه عن الأموال والأولاد والإخوان، وظنوا أنهم أحيط بهم، وجاءهم الموج من كل مكان، فتلاقى على البلد واديان: أحدهما من شمالها يسمى الجود والآخر من شرقها يسمى جنان، فأخرب وادي الجود بهذه الآية الخارقة جانبًا من حارة المشارقة، ودَمَّر وادي جنان ما كان على جانبه من البنيان، ثم اختلطا فرأى الناس منهما ما لا يطاق، وأخربا ما مرا عليه من رباع وقياسير وأسواق، فأخربا العَرصة والمصبغة والفرانين والعلافين، وحوانيت الدق وسوق الأدميين وسوق البُر العتيق والأقباعية والقطانين، وحوانيت الصاغة وما يليها من البساتين، وردم أمام دار الطعم - بعد إخراب بعضها - أحجارًا وصخورًا، وكل ذلك ليَتَّعِظ أهل المكر وما يزيدهم إلا نُفُورًا، وذهب هذا السيل العظيم الطامي بجميع سوق الخليع لبَكْتَمُر الحسامي، وأخرب من قيسارية ملك الأمراء للتجار نحو عشرين حانوتًا، وذهب بكل ما فيها من ثمين، ثم ردم باقيها على ما فيه بالأخشاب والأحجار والطين، حتى رجعت قيمةُ ما سلم من المائة إلى العشرين، وأخرب ما جاوز بحر المدينة من سوق أم معبد واللّحّامين، ومن وقف السقطيين والحضريين وحوانيت العجز وسوق الأمير ركن الدين ثم دمر في وقف الجامع على ما فيه من الأمتعة والبضائع، ثم ردم العين بالأحجار والخشب والصخور، حتى خشي عليها أهل البلد أن تفور، ثم أخرب حوانيت الطبّاخين وجانبًا من حمام الأمير موسى، وكان ذلك على من لم يرض بقضاء الله يومًا منحوسًا ثم أخرب الدباغة وجانبًا من حمام السلطان وما يلي ذلك من المِطْهَرة ومسلخ المعز والضأن، وأعظم من ذلك إخرابه المدرسة النفيسية والرواق القبلي من المسجد الجامع، وفي ذلك ما يحرق قلب كل منيب وخاشع، ورُدِمَ داخل الجامع بُغثاء السيل والطين والأخشاب، فاعتبرا يا أولي الألباب. وبلغ الماء في داخل الجامع إلى القناديل المعلقة، وذلك بتقدير من يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة، ولم يَقْرَب شيئًا من غالب ما ذكر إلا أتَى على ما فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، حتى أتيح لكثير من أرباب ذلك أن يمد يده للسؤال، وكان مدة استدامته من بكرة النهار إلى وقت العصر ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]، وكان عرض السيل قدر رمية بحجر، وارتفاعه على بسيط الأرض قدر قامتين أو أكثر، وقُدِّر ما ذهب فيه من الأمتعة والبضائع والأموال وقيمة الأملاك بهذا القضاء المبرم، فكان ذلك يزيد على خمسمائة ألف درهم، وذلك خارج عن الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ومن جملة لطف الله تعالى مجيئه بالنهار، فحذر الناس منه، فلم يُعلم في البلد

غريق إلا سبعة أنفار ولو كان - والعياذ بالله - ليلاً لزادوا على الإحصاء في المقدار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وليس الخبر في جميع ما ذكرنا كالعِيان، ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان.

وفي هذه السنة في يوم الخميس سادس عشر صفر توفي الشيخ الصالح المعروف بقوام الدين عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازي شيخ الخانقاة بالجامع الناصري بساحل مصر المحروس، ومولده - كما أخبرني - رحمه الله تعالى - في تاسع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين وستمائة بشيراز، وكان عمره تسعين سنة إلا ثلاثة أيام. سمع من الشيخ عز الدين الفارُوثي، وله إجازة بخطه شاهَدْتُها، وقد جعل فيها لكل من جعل خطه تحت خطه فيها أن يروي عن الشيخ عز الدين المذكور ما يجوز له روايته، وكتبتُ خَطِّي تحت تلك الإجازة، فصار لي بهذا الاعتبار أن أروي عن الشيخ عز الدين الفاروثي بالإجازة.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جُوبان المنصوري[(١)] أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء العشرين من صفر بداره بظاهر دمشق، ودفن بتربته بالمِزَّة، وأنعم بإقطاعه على الأمير شهاب الدين قَرَطاي الصالحي العلائي، عوضًا عما كان بيده من الإقطاع.

وتوفي في النصف من يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من صفر القاضي موفق الدين عبد الرحيم بن الأسعد بن المعتمد، وهو من مَسالِمَة القِبْط، وكان في ابتداء أمره يتولى عِمالَة قَلْيُوب، ثم تنقل في المباشرات إلى أن ولي استيفاء ديوان الأمير سيف الدين سَلاّر نائب السلطنة كان، وحصل أموالاً جليلة، ثم ولي استيفاء النظر بالباب السلطاني، وانتقل منه إلى نظر الدواوين، إلى أن عزل في سنة أربع وعشرين وسبعمائة - كما ذكرنا - ولزم داره، ورتب له من الصدقات السلطانية في كل شهر ثلاثمائة درهم، إلى أن مات في التاريخ المذكور، وكانت وفاته بداره بشاطىء النيل بمصر بقرب صناعة الإنشاء، ومولده في سنة أربع وخمسين وستمائة.

وفيها في ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الإمام العالم الصالح الورع السيد الشريف تقي الدين أبو الفتوح محمد بن الشيخ ضياء الدين جعفر بن الشيخ محمد بن الشيخ القطب عبد الرحيم بن أحمد بن أحمد بن حَجُون الحَسَني الشافعي[(٢)] شيخ خانقاة الأمير بهاء الدين أرسلان الدّوادار بمنشأة المِهْراني، وصُلِّي

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٠٤، الدرر الكامنة ١/ ٥٤٢.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤١٥، الوافي بالوفيات ٢/ ٣٠٧.

عليه بكرة النهار، ودفن بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى حسن الصحبة والعشرة والمودة، وله نثر جيد، ومولده في سنة خمس وأربعين وستمائة تقريبًا.

وتوفي في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة الشيخ كمال الدين. . .[1] الغماري المغربي، وكان رجلاً مُنقطعًا، لا يتردد إلى أحد، حسن اللباس والمأكل، يأكل غالبًا خبز الشعير، ويطعم أهله ما يختارونه من الأطعمة وكان من فقهاء المالكية، وكنت أعهد له كشفًا، اجتمعت به في سنة سبعمائة وهو يوم ذاك بالمدرسة الشريفية بالقاهرة، وكاشفني في قضية تتعلق بي، فوقعت كما قال، ثم ذكر لي بعد ذلك قضية أخرى تتفق بي، فاتفق بعضها كما قال، وتأخر بعضها، فاجتمعت به بعد ذلك في سنة ست وسبعمائة، وسألته عن حاله وما كنت أعهده فيه من الكشف، فأجاب: قد زال ما كنت تعهدُه منذ استقليت بهذه النُّمَيْلة - يشير إلى ابنته فاطمة - وكان قد رُزِقَها، وكانت من الذكاء على أمر عظيم لم يشاهَد مثلُه من سرعة الحفظ، وجودة الإتقان مع صغر السن. أُحْضِرت إلى مجلس شيخنا شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي[2] رحمه الله تعالى لتسمع عليه جزءًا من مَسْمُوعاته، فامتنع أن يكتبَ اسمها إلا حُضورًا، وقال: هذه صغيرة السن عن السماع، فلقَّنها معلمها سري الدين أبو القاسم الزيدي الحديث الذي كانت تريد أن تسمعه، فحفظته بسنده، وأحضرها إلى الشيخ فجلست بين يديه، وعمرها يوم ذاك أربع سنين أو نحوها، فقالت مُخاطبةً الشيخ: حدثك - رضي الله عنك الشيخ فلان - وسردت السند إلى رسول الله ﷺ، والحديث إلى آخره من حفظها فبُهت الشيخ من ذلك، واستعظمه منها، وكساها فُوطة حرير، وكتب اسمها سماعًا، أخبرني بذلك معلمها سري الدين المذكور، وكان صدوقًا رحمه الله، ثم اشتغلت بعد ذلك وقرأت الكتاب العزيز بالسبع، وأتقنت قراءته واشتغلت بالفقه والعربية والأصول وغير ذلك من العلوم، وكتبت الخط الجيد المنسوب عدة أقلام، فكانت تكتب الدُّرُوجَ المشتملة على عدة أقلام كتابة جيدة، وتكتب في آخرها: «كتبته فاطمة الغِمَارية» واشتغل والدها بأشغالها اشتغالاً كثيرًا، فلذلك قال لي ما قال، وأصيب بها، وكان رحمه الله تعالى صعب الخُلُق شديد الحَرَج كبير الحِدَّة ما اجتمع به أحد من الأمراء والأعيان والأكابر وفارقه عن رضى، وكان يَسُب من يجتمع به ويتركه أقبح سب عن غير تحاشٍ، ولعل ما حصل له من سوء الخُلُق نتج عن خشونة مأكله، رحمه الله تعالى وسامحه.

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) ولد سنة ٦١٣هـ، وتوفي سنة ٧٠٥هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧).

وتوفي في ليلة الأربعاء سابع شهر رجب القاضي كمال الدين أبو القاسم عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن محمود الحلبي البِسْطامي الحنفي(١) ناب في الحكم ودَرّس بالمدرسة الفارقانية بالقاهرة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان قد مرض من مدة، وطالت مرضته وعجز عن الحركة وانقطع ولزم بيته، ونزل عن جهاته لولده الفقيه سراج الدين عمر(٢)، سمع كمال الدين بن النجيب عبد اللطيف وحدَّث، ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وتوفي في يوم السبت خامس عشر شعبان الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري(٣) في معتقله ببرج السباع بقلعة الجبل، وكان السلطان قد رسم بإحضاره من الكَرَك هو والأمير سيف الدين تَمُر الساقي(٤)، فأحضرا في شهر رجب من السنة، وقويت الشناعة أنه يفرج عنهما فاعتقلا ببرج السباع، واعتل المذكور ومات رحمه الله تعالى، وقد تقدم ذكر اعتقاله، وأنه كان في ليلة الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ست سنين إلا ثمانية عشر يومًا.

وتوفي في ليلة السابع عشر من شعبان صاحبنا ووالد صاحبنا الشيخ الصالح العدل شرف الدين أبو حفص عمر بن الشيخ مُعين الدين عبد الرحيم بن أبي القاسم بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن منصور بن حيدر الجَزَرِي الشافعي المعروف بالخياط، ويعرف أيضًا بإمام قَفْجاق، وهو صاحب الشيخ أبي إسحاق اللّوزي، وكانت وفاته بالقدس الشريف، وصلي عليه من الغد بالمسجد الأقصى، ودفن بمقبرة ماملا، ومولده في المحرم سنة سبع وأربعين وستمائة بالموصل، سمع من النجيب عبد اللطيف وغيره، وأسمع، وكان يؤم نواب السلطنة بدمشق الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في نيابته بدمشق قبل سلطنته، ثم كان إمامًا عند الأمير سيف الدين قَبْجاق بدمشق وحماة، وهو من بيت مشهور معروف بالجزيرة العمرية بالتجارة والحشمة والاتصال بالملوك، وكان هو من أعيان الصوفية حيث حلّ بدمشق والقاهرة والقدس. صحبته رحمه الله تعالى، وصحبت ولده الشيخ أمين الدين محمد من سنة تسع وسبعمائة، وتأكدت الصحبة بيننا، فكانا من خيار من صحبت،

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٦.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٧، ٣/ ١٦٩.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٤، السلوك ٢/ ٣٠٤.

(٤) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٥١٩).

وكان لي بهما اجتماع قبل ذلك، وكان رحمه الله كريمًا حسن الصحبة والمودة، وجلس مع العدول بدمشق والقاهرة وشهد على القضاة، وما زال يعظمه الأكابر والأمراء والوزراء ويُجِلُّونه رحمه الله تعالى.

وتوفي في آخر ليلة السبت المسفرة عن رابع عشر شهر رمضان الأمير جمال الدين خضر بن نُوكِية[1] أحد أمراء الطبلخاناة بداره، بخط الهلالية بظاهر القاهرة، ودفن في ليلة السبت، وكان قد مرض نحو ثلاثة أشهر وعوفي، وطلع إلى الخدمة السلطانية قبل وفاته بيومين، في يوم الخميس ثاني عشر الشهر فبلغني أن السلطان سأله عن حاله، فلما خرج من الخدمة، قال السلطان لبعض خواصه من الأمراء لمن يُعْطَى خبزُ هذا؟ فقيل له: وكيف يقطع السلطان خبزه؟ فقال السلطان: «هذا ما يعيش أكثر من يومين» فكان كذلك، ولعمري لو قال هذا القول من يتصدى للناس ممن يُنسب إلى الصلاح والكشف لعُدت من كراماته، ولهُرِع الناس إليه، وبلغني أنه صلى الجمعة ببركة الحَبَش، وأفطر في ليلة السبت، وتسحّر، ومات قبيل أذان الصبح.

وفيها في ليلة السبت المسفرة عن سابع عشرين شوال كانت وفاة الأمير شمس الدين قَرا سُنقُر المنصوري[2] بمدينة مَراغة من عمل أذْرِبيجان، ودفن في مستهل ذي القعدة، وكان سبب تأخير دفنه أنه كُتِب إلى الملك أبي سعيد بخبر وفاته، واستُؤْذِن في دفنه، فتأخر إلى أن ورد جوابُه، ورد الخبر إلى الأبواب السلطانية بوفاته في يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي القعدة، وقد ذكرنا ما كان من تَسَحُّبه إلى بلاد التتار في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، ولما اتصل خبر وفاته بالسلطان رسم بالإفراج عن جماعة من مماليكه كانوا قد اعتقلوا بعد تَسَحُّبه، ووعدهم الإحسان، ثم رسم بإخراج ولديه الأميرين: علاء الدين علي، وعز الدين فرج إلى دمشق، وأقطع الأول إمرة طبلخاناة، وفرج إمرة عشرة بدمشق، وتَوَجَّها في سنة تسع وعشرين، ووصلا إلى دمشق في ثالث شهر ربيع الآخر، واستقرا بها.

وفيها في الثلث الأخير من ليلة الاثنين المسفر صباحها عن العشرين من ذي القعدة كانت وفاة الشيخ العالم الورع تقي الدين أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٨٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٥، السلوك ٢/ ٣٠٥.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٣، السلوك ٢/ ٣٠٥.

أبي القاسم بن محمد بن تَيْمِيَةَ الحَرّاني ثم الدمشقي[١] في معتَقَلِه بدمشق، ومرض سبعة عشر يومًا، ولما مُنِع من الكتابة والتصنيف عكف على تلاوة كتاب الله تعالى، فيقال إنه قرأ ثمانين ختمة، وقرأ من الحادية والثمانين إلى سورة الرحمٰن، وأكملها أصحابه الذين دخلوا عليه حال غسله وتكفينه، وتولى غُسْلَه مع المُغَسِّل الشيخ تاج الدين الفارِقِيُّ، والشيخ شمس الدين بن إدريس، وصُلِّيَ عليه في عدة مواضع فصُلي عليه أولاً بقلعة دمشق وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام الصالحي الحنبلي، ثم حمل إلى الجامع الأموي، ووضعت جِنازته في أول الساعة الخامسة، وامتلأ الجامع بالناس، وغُلِّقت أسواق المدينة، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر، ثم حمل وأخرج من باب الفرج، وازدحم الناس حتى تفرقوا في أبواب المدينة وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر، ثم حمل فخرجوا من باب النصر وباب الفراديس وباب الجابية، وامتلأ سوق الخيل بالناس، وصلي عليه مرة ثالثة وأمّ الناس في الصلاة عليه أخوه الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن[٢]، وحمل إلى مقبرة الصوفية، فدُفن قريبًا من وقت العصر لازدحام الناس عليه، ومولده بحَرّان في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده في حال صغره، واشتغل عليه وسمع من جماعة من المشايخ، وكان شيخًا حافظًا مُفْرِط الذكاء، حسن البديهة، وله تصانيف كثيرة منها ما ظهر، ومنها ما لم يظهر، وشهرته بالعلم تغني عن بسط القلم فيه، وكان علمه أرجح من عقله، وقد قدمنا من أخباره ووقائعه ما يغني عن إعادته، وكانت مدة اعتقاله من يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة إلى حين وفاته سنتين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، رحمه الله تعالى، ولما مات أُفرِج عن أخيه الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن في يوم الأحد سادس عشرين ذي القعدة، وكان قد اعتقل معه، فلما مات كان يخرج في كل يوم إلى تربة أخيه، ويعود عشية النهار يبيت بقلعة دمشق، إلى أن حضر نائب السلطنة من الصيد، فأفرج عنه.

* * *

واستهلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة بيوم الجمعة الموافق لثامن هاتور من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر يتصيد بجهة سرياقوس، فأقام بتلك الجهة إلى يوم الاثنين، وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في بكرة نهار الاثنين رابع المحرم، وفي

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) ولد سنة ٦٦٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٩، شذرات الذهب ١٥٢/٦).

يوم السبت ثاني المحرم وصل القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة من الحجاز الشريف إلى خدمة السلطان بالقصر بسماسم، وخلع عليه ووصل إلى داره بمصر في يوم الأحد ثالث الشهر.

وفيها في يوم الأحد سابع عشر المحرم فَوّض السلطان صحابة ديوان الإنشاء السعيد بالأبواب العالية للقاضي محيي الدين يحيى بن جمال الدين فضل الله بن المُجلِّي القُرَشي العَدَوِي(١) وسبب ذلك أن القاضي علاء الدين علي بن الأثير(٢) كان قد حصل له مرض فالج في شهور سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، واستمر مدة شهور، وهو يتكلف الدخول مع البريد وحضور دار العدل بين يدي السلطان، فلما دخل فصل الخريف اشتد به المرض، وتمكن من جسده، وتزايد الحال به، فعجز عن المشي، واعتُقِل لسانه، وبطلت يده، فرُسم بعد ذلك بتوفيره، ونزل من القلعة في يوم الخميس رابع عشر الشهر، واستقر بداره، وكان ولده في الحجاز الشريف، فوصل في يوم السبت الثاني من المحرم وخلع عليه، وجلس في مرتبة أبيه، وظن الناس أنه يستقر في الوظيفة، وكان السلطان قبل ذلك قد رسم بطلب القاضي محيي الدين المشار إليه من دمشق فطلب، وكان رأس كتاب الدَّرْج بها، فتوجه منها في يوم الجمعة ثامن الشهر، ووصل إلى الأبواب السلطانية في هذا اليوم هو وولده القاضي شهاب الدين أحمد(٣)، وشرف الدين بن شمس الدين بن شهاب الدين محمود، ومثلوا بين يدي السلطان وهو بالإسطبل، وخلع عليهم، واستقر القاضي محيي الدين صاحب ديوان الإنشاء وولده شهاب الدين أحمد كاتب السر الشريف، وشمس الدين بن شرف الدين رأس كُتّاب الدرج بدمشق في وظيفة القاضي محيي الدين، وتوجه إلى دمشق المحروسة.

وفي هذه السنة في يوم الأحد رابع عشرين المحرم أنعم السلطان على الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي بإمرة طبلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير علاء الدين علي بن الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر، ونقل علاء الدين إلى دمشق كما تقدم، وأنعم على

---

(١) هو يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عمر العدوي، محيي الدين أبو المعالي، ولد بالكرك سنة ٦٤٥هـ، وتوفي بمصر سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٦، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٠٩).

(٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير الحلبي الأصل، ولد سنة ٦٨٠هـ، وتوفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٤).

(٣) ولد سنة ٧٠٠هـ، وتوفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٣١).

الأمير حسام الدين لاجين الجاشْنكير المعروف بزيرباج بإمرة طبلخاناة بالديار المصرية، وأقطع إقطاع الأمير ناصر الدين محمد بن جمق الذي كان قد وصل من بلاد التتار، وذكر أنه من أقرباء السلطان، فعاد الآن إلى بلاد التتار بطلب من الملك أبي سعيد، فرسم بعوده.

وفيها في يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي، عاد من جهة الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا على خيل البريد، ووصل الرسل بعده، وفيها في بكرة نهار الثلاثاء ثالث صفر استقل ركاب السلطان من قلعة الجبل لقصد الصيد، فتوجه إلى الجيزية، وعدى من ساحل بولاق، وأقام إلى يوم الخميس، وتوجه في بكرة نهار الجمعة إلى جهة المنوفية، وفَرّق الأمراء مماليكه بالجهات ولم يستصحب من مماليكه إلا أرباب الوظائف.

وفي يوم السبت سابع صفر وصل إلى الأبواب السلطانية الملك أبي سعيد، وجُهِّزُوا إلى السلطان إلى جهة المنوفية، فمثلوا بين يديه، وأدُّوا رسالتهم وأمر أن يتوجهوا إلى قلعة الجبل، وأقاموا بها إلى حين عود السلطان، وكان عوده من الصيد المبارك في الساعة الثانية من يوم الخميس تاسع عشر صفر.

وفيها في يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأول أعيد القاضي شمس الدين بن قَزْوِينَةَ إلى نظر الدواوين على ما كان عليه، نُقِل إلى هذه الوظيفة من نظر البيوت السلطانية، وأضيف نظر البيوت إلى القاضي مجد الدين إبراهيم بن لُفَيْتَةَ ناظر النظار والصحبة، وخلع عليهما.

وفيها في يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول توجه السلطان إلى الصيد بجهة سرياقوس، ثم توجه منها إلى الجيزية، وأقام بها إلى بكرة نهار الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، وعاد إلى قلعة الجبل، وكان صعوده إليها في الساعة الأولى من النهار المذكور، واستقر بها بكرة نهار الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر، وتوجه إلى جهة القليوبية، وعاد ظهر يوم الأربعاء رابع عشر الشهر، وأقام بقلعة الجبل إلى يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى، فتوجه في الأول من النهار وعَدّى من جهة بولاق لقصد الصيد بجهة البحيرة، وعاد إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى.

وفيها في يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى رسم السلطان بهدم الجُبِّ الذي يعتقل به الأمراء بقلعة الجبل وردمه، وألا يعتقل به أحد من الناس فهدم ورُدِم بما نُقِض من الإيوان الكبير الذي بالرحبة عند جامع القلعة، وكان قد رسم بهدمه وإنشاء غيره أصغر منه، ففعل ذلك.

وفيها في هذا اليوم المذكور وصل إلى الأبواب السلطانية رسل نائب الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا الذي استقر في النيابة بعد جوبان وهو الشيخ حسن بن الجتية، وهو ابن عمة الملك أبي سعيد، أمُّه أخت غازان وخَربَنْدا، وحسن هذا هو الذي كان زَوْجَ بَغداد خاتُون ابنةِ جُوبان، وأحضر رسله قماشًا وفهدين تقدمة من جهته إلى السلطان، فقبلت تقدمته، وعومل رسله بما جرت به عادة أمثالهم.

وفيها في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة بحلب، وأكرمه السلطان إكرامًا كثيرًا، وخلع عليه على عادته في نيابة السلطنة بالأبواب السلطانية، وأنزله بمناظر الكَبْش، وأنعم عليه بخيل وقماش، وأقام إلى يوم الخميس سادس عشرين الشهر، فخلع عليه في هذا اليوم قَباء مُقَصَّبًا بطَرْززَركَش، وعاد إلى حلب، بعد انقضاء الخدمة السلطانية في هذا اليوم المذكور من التاريخ من السنة المذكورة.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ورغبته في الاتصال بمصاهرة السلطان

وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خربندا، والمشار إليه منهم اسمه تَمُرُبغا المَرْغِيناني أحد مقدمي التَّوامِين، ومثُلوا بين يدي السلطان بقلعة الجبل في يوم الاثنين سلخ الشهر، وقدموا ما معهم من الهدية، فكان منها اثنا عشر أكديشًا عشرة منها مُجَلَّلة بالجُوخ الأحمر المبطن بالصندات، واثنان بغير جِلالٍ، ذُكْرانٌ لها قيمة كثيرة، وأحضروا غير ذلك من التحف مما خفي أمره، وكان مضمون الرسالة رغبة الملك إلى السلطان الاتصال بابنته، فأجاب السلطان الملك الناصر سؤاله إلى ذلك، فاعْتَذَر بصغر سنها الآن، ووعدهم إلى انقضاء ثلاث سنين، فعند ذلك أحضر الرسول ثُمانًا دراهم، وهو ستون ألف درهم، وسأل عن مرسله، أن يُعمل بذلك مُهِمٌّ، ويُمَدُّ سِماط يأكله الأمراء، فرسم السلطان بقبول ذلك، وعمل المُهِم في يوم الخميس عاشر شهر رجب، وسلك السلطان في ذلك نائب التتار، وشرط السلطان عليهم شروطًا منها: أن طلب في مَهْرِها أعمال «ديار بكر» وخلع على الرسل في يوم الخميس ثالث شهر رجب، ثم خلع عليهم مرة ثانية في يوم الاثنين سابع الشهر، ثم رسم بإعادتهم إلى مرسلهم، وتوجهوا في يوم الاثنين رابع عشر الشهر، ووصلوا دمشق في مستهل شعبان، وتوجهوا منها في يوم السبت رابع الشهر.

وفيها في يوم الخميس عاشر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين طَيْنال الساقي[١]، نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية، وخلع عليه تشريف أطلس أحمر بطَرْززَرْكش على أطلس أصفر وشاش رقم، وكَلُوتَة زَرْكش، وحِياصة ذهب مُجَوْهرة، وأنعم عليه بثلاثة رؤوس خيل، وأقام في الخدمة السلطانية إلى يوم الخميس رابع عشرين الشهر، وتوجه إلى طرابلس على عادته في يوم الجمعة خامس عشرين الشهر، وأثَّر حضوره أثرًا سيئًا، فإنه شكا إلى السلطان ما على المملكة الطرابلسية من الكُلَف، وأن خالصها لا يقوم بالمرتب عليها، وحَسَّن للسلطان قطعَ ما على المملكة المذكورة من الرواتب لأرباب الصلات المقيمين بالديار المصرية ومرتبهم بطرابلس، فقطع جميع ذلك بطرابلس، وشمل هذا القطع ما هو مرتب لهم على سائر الممالك الشامية والحلبية والصَّفَدية، فحصل للناس الضرر التام بذلك، ثم سأل الزيادة لنفسه على ما بيده من الإقطاع، فأنعم عليه بزيادة ثلاثين ألف درهم في كل سنة أو نحوها من الذي يُوَفَّر بطرابلس.

ذكر الاستبدال بمن يذكر من مباشري الدولة، ومصادرتهم وإفصال الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي من الوزارة

وفي يوم الأحد العشرين أو الحادي والعشرين من شهر رجب من هذه السنة رسم السلطان بعزل القاضي مجد الدين إبراهيم بن لُفَيْتَةَ عن نظر النظار بالديار المصرية والصحبة، وشمس الدين بن قَرْوِينَةَ عن نظر الدواوين، وفوّض نظر النظار والصحبة للقاضيين: علم الدين إبراهيم بن القاضي تاج الدين إسحاق[٢] وكيل الخواص الشريفة وناظرها، وتقي الدين عمر بن الصاحب شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان الشوخي المعروف بابن السَّلعوس[٣] الدمشقي وزير الدولة الأشرفية الصلاحية والده كلف وكان قبل ذلك يتولى صحابة الديوان بدمشق، ذكره بعض الأمراء الأكابر بين يدي السلطان وأثنى عليه، فرسم بطلبه فتوجه من دمشق في يوم

---

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٣٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١١).

(٢) هو المعلم إبراهيم بن عبد الوهاب بن عبد الكريم الوزير، شمس الدين بن تاج الدين إسحاق القبطي، تسمى والده إسحاق لما أسلم بعبد الوهاب (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ١٣٦).

(٣) هو عمر بن عثمان بن أبي رجاء بن أبي الزهر بن شمس الدين بن السلعوس، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٨).

الخميس العاشر من رجب ووصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، فرُسِم له بالمباشرة، وخلع عليهما في اليوم المذكور، وفوض نظر خزانة الخاص الذي كان يباشره علم الدين المذكور لأخيه شمس الدين موسى[١] وباشر الناظران ـ علم الدين وتقي الدين ـ مدة والأمير علاء الدين الجمالي الوزير على حالته في الوزارة، إلا أنه مشغول بما حصل له من المرض، يترددان إلى خدمته، ويستأذنانه، فلما كان في يوم الأحد ثاني شوال رسم بتوفير الوزارة، واستقر الأمير علاء الدين في الأستاذ دارية خاصة مع ملازمة المرض به، وهو مع ذلك يتجلّد في بعض أيام المواكب، ويَعْبُر إلى الخدمة، ويقف على عادة الأستاذ دارية يسيرًا، ثم يعود إلى داره بقلعة الجبل، فلما كان في يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة جلس السلطان في الميدان تحت قلعة الجبل، وعرض كتاب الأمراء ليستصلح منهم من يستخدمه، ثم طلب القاضيين مجد الدين بن لُفَيْتَةَ وشمس الدين بن قَزْوِينَةَ الناظرين المنفصلين، ومكين الدين بن قَزْوِينَةَ مستوفي الصحبة وأمين الدين مستوفي الخزانة المعروف بقُرْمُوط، وأمر بالترسيم عليهم، وسلمهم للأمير سيف الدين الدَمُر أمير جندار، ورسم أن يُسْتَخْرج منهم ستمائة ألف درهم.

وسبب ذلك أنه كان قد رسم بكشف الجيزية، فكُشِفَت فوجد فيها بواقيًا كثيرة، فرسم بمصادرة واليها سيف الدين قَشْتَمُر، وهو من ألزام الأمير علاء الدين الجمالي الوزير ـ كان ـ ومستوفيها ابن سَقْرون، فحمل من جهة قَشْتَمُر مائتي ألف درهم، ومن جهة ابن سَقْرون المستوفي ما يزيد على سبعين ألف درهم، فاضطر المستوفي المذكور إلى أن أنهى إلى السلطان ما أخذ من الجيزية، فرسم عند ذلك بمصادرة من ذكرنا، وإفصال المستوفين.

وكان السلطان قبل ذلك قد عرض مُشِدِّي الجهات بالقاهرة ومصر، ورسم بقطع أخبازهم من الحلقة، واستبدل بهم، وانتصب السلطان بنفسه أيامًا لمصالح دولته، وأحضر مشايخ بلاد الجيزية، وسجلوا بلادها في مجلس السلطان، وهذا ما لم يسمع بمثله في دولة من الدول، وشرع بالاستبدال بالمباشرين، وصار يستخدم بنفسه، ويتحدث مع كل مباشر، ويسأله عن مباشراته، وغير ذلك، ثم أفرج السلطان عن الناظرين المنفصلين والمستوفين، بعد أن استخرج منهم ـ بعدما قرر عليهم ـ جملة من المال.

---

(١) هو شمس الدين موسى بن إسحاق بن عبد الكريم المصري القبطي، توفي سنة ٧٧١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٤).

وفيها في خامس شهر رمضان رسم السلطان للأمير علاء الدين قلبرس ابن الأمير علاء الدين طَيْبرس الوزيري[١] أحد أمراء الطبلخاناة أن يتوجه إلى دمشق المحروسة من جملة الأمراء مقدمي الألوف، وأنعم عليه بإقطاع الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخوارزمي[٢] الحاجب بدمشق، وزاده عليه إمرة عشرة طواشية، وتوجه من القاهرة المحروسة في خامس عشر شوال من السنة، ووصل إلى دمشق في الاثنين سادس عشر ذي القعدة، وكانت وفاة الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخوارزمي ـ الحاجب المذكور ـ في ليلة الأحد ثاني عشر شعبان من السنة.

ذكر رؤيا رأيتها في المنام أحببت إثباتَها لدلالتها على صحة نسبي

وفي ليلة الجمعة ثالث عشر ذي القعدة رأيت رسول الله ﷺ في المَنام، وهو جالس بالإيوان البحري بالمدرسة الناصرية، التي هي بين القصرين، من الجهة اليمنى لمن يقصد صدر الإيوان في ذيل الإيوان بينه وبين الحائط نحو ذراعين، أو أقل من ذلك، وأنا جالس بين يديه الكريمتين، وهو يذكر عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها بخير، فقلت له: يا رسول الله هي عمتي، ثم قلت ثانيًا: يا رسول الله عائشة أم المُؤمنين عمتي؛ لأنني أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم بن منجا بن علي بن طَرّاد بن خَطّاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم. فلما انتهيت في سرد نسبي إلى إبراهيم قال النبي ﷺ ابن جعفر، قلت: نعم يا رسول الله، ابن جعفر بن هلال ابن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فعائشة أم المؤمنين يا رسول الله عمتي، فقال رسول الله ﷺ: نعم، واستيقظت من النوم، وسُرِرت بهذه الرؤيا، وأثبتها ولله الحمد.

ذكر متجدّدات كانت بدمشق في سنة تسع وعشرين وسبعمائة

في هذه السنة في أوائل شهر ربيع الأول تَجَرَّأ رجل يقال له محيي الدين بن الحَكَم الكاتب جُرْأةً عظيمة لم يسبق إلى مثلها فيما بلغنا، وذلك أنه اتفق مع أربعة

---

(١) توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥.

من الرسل المُتصَرِّفين بباب الحُكْم العزيز، وجلس في قاعة تعرف بدرب البلساني بخُطِّ عَتَبَة الكتاب بدمشق، وسمى نفسه عماد الدين، وأحضر نصرانيًا له مال، وأوهمه هو والرسل أنه نائب قاضي القضاة المالكي بدمشق، وقال للنصراني: قد ثبت عندي أنك قلت لرجل مسلم أنك أخي وأنا أخوك ولا فرق بيني وبينك، وبمقتضى هذا القول تكون مسلمًا، وتَهَدَّده بالقتل، وتحدّث الرسل مع النصراني، وأشاروا عليه أن يعطيه مالاً، فتقررت الحال على ألف درهم ومائتي درهم عَجَّل النصراني منها ستمائة درهم، وأحضر شهودًا إلى باب الدار، وكتب عليه حجة بستمائة درهم، ورَفَع عنه الترسيم، فلما أطلق النصراني توجه إلى القاضي شمس الدين ناظر النظار، وأنهى له الصورة، وأحضر نائب قاضي القضاة المالكي، فلما رآه النصراني قال: ما هو هذا، ثم أحضر عماد الدين نائب قاضي القضاة الحنفي، فقال كذلك، فسيّر جماعة إلى الدار وهُجِمَت فمُسِك، وأحضر إليه والدراهم والحجة معه، فاسْتُنْقِذَ ذلك منه وأطلقه شمس الدين الناظر، فلما اتصل الخبر بمتولي دمشق اعتقله، وطالع نائب السلطنة بأمره، فرَسَم بضربه وضرب الرسل الذين اتفقوا معه على ذلك، وشَقِّ مناخيرهم، وإشهارهم على الحمر، ففعل بهم ذلك في يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول، واعتقلوا.

وفيها في يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى أنعم على الأمير علاء الدين ولد قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن صَصْرَى[1] بإمرة عشرة طواشية بدمشق، ولبس التشريف في اليوم المذكور.

وفيها في شهر ربيع الأول دخل نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى المدرسة القَلِيجِيّة، وهي بجوار داره التي جدد عمارتها المعروفة بدار الفُلُوس فنظر إلى بيوت المدرسة، فرأى على بعضها أقفال حديد مغلقة على الأبواب، فسأل عن البيوت وهل هي للفقهاء؟ فقال قيم المدرسة: هذا البيت لفخر الدين بن شهاب الدين الحنفي، وهذه البيوت لجماعة آخرين ـ سماهم ـ لهم فيها قُماش وغيرُه، فطلب فخر الدين المذكور، وأنكر عليه كونه ضيّق على الفقهاء في مساكنهم مع استغنائه عنها، فقال: ما انفردت بهذا، وشمس الدين بن حُمَيد ـ رفيقي في ديوان الإنشاء ـ له

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن الحسن الربعي، ابن صصري، نجم الدين الدمشقي، توفي سنة ٧٢٣هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٨، شذرات الذهب ٦/ ٥٨، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٢٠، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٠، فوات الوفيات ١/ ١٢٥، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٣٢).

بيت بالمدرسة العَزِيزية وجماعة غيره، فرسم نائب السلطنة لشادّ الأوقاف بطلب كل من أشغل بيتًا من بيوت المدارس وليس هو من الفقهاء، وتقويم أجرة البيت، وإلزامه بالقيام بالأجرة منذ أشغله وإلى ذلك اليوم، فأحضر شهود القيمة وقوّموا أجرة البيوت فأخذ من شمس الدين بن حميد ستمائة درهم، ومن شهاب الدين أحمد بن المُهَذّب ستمائة درهم وثلاثة عشر درهمًا، ومن أولاد عفيف الدين الحنفي أربعمائة درهم، وهؤلاء من الذين كان لهم بيوت بالمدرسة العزيزية، وأخذ من غيرهم.

وفيها في شهر رجب خُلِع ما كان بجامع دمشق عند قبر يحيى بن زكريا عليه السلام من الخشب بين العامودين وبين الحجارة، ورُخّم البناء المُجَدَّد من جهة القبلة، والتأم، وكتب بالرخام الأبيض بالرخام الأسود قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

وفيها في أول شهر رمضان رسم نائب السلطنة بدمشق أن يُوَسَّعَ طَريقًا سُوَيقة مسجد القَصَب خارج باب سلامة، وأن يُوَسَّع من كل ناحية قدر ذراعين، فهدم في ثالث شهر رمضان ثم عُمر في مدة شهر، إلى أن انتهى العمل إلى خان دار الطُعم والمدرسة الزَّنجيلية، ثم رسم في أول شوال بهدم مَساطِب حوانِيت القَوّاسِين لتوسيع الطريق، فهُدِمت من الجانبين، واستقرت الحوانيت بغير مساطب، وجلس أهلها داخل الدكاكين، فاتسع ذلك نحو أربعة أذرع، ثم رسم بعِمارة رُصْفان الكعبين وباب البريد، فحصل الرّفق بذلك للمارّة، ثم رسم بهدم جميع المساطب وبعض الحوانيت التي هي خارج باب الجابِيَة إلى قرب باب النصر لتوسعة الطريق، وهُدمت في يوم الثلاثاء رابع عشرين ذي القعدة، واستمر العمل فيها؛ فمنها ما أزيل بجملته، ومنها ما أزيل نصفه وبقي النصف، وبقي ذَرْع الطريق من عشرين ذراعًا إلى عشرة أذرع.

وفيها في يوم الاثنين خامس ذي الحجة رسم نائب السلطنة بدمشق بقتل الكلاب بدمشق وظواهرها، فقتل منها من بُكرة النهار إلى بعد العصر أكثر من خمسة آلاف ثم رُسم إلى متولي دمشق أن يبني مقبرة للكلاب في آخر الخندق ما بين الباب الصغير وباب كَيْسان، يفصل بينهما بحائط، يكون أحد الموضعين للكلاب الذكور والآخر للإناث، فحصل الشروع في البناء في يوم السبت في العشرين من ذي الحجة إلى يوم الأحد ثامن عشرين للشهر، وجمعت الكلاب، وأنزلت في المكانين، فصار الذكور في خمسة آلايات في جهة، ورُسِم للنادشتية بإلقاء الجيف بعد سلخها فيها.

وفي هذه السنة في يوم الخميس رابع عشر المحرم توفي الشيخ الإمام العالم المفتي نجم الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ شمس الدين عَقِيل بن الخطيب

جلال الدين أبي الحسن بن عقيل البالسي[١]، نائب الحكم العزيز بمصر المحروسة، وكانت وفاته بالمدرسة الطَّيْبَرْسِية بمصر المحروسة وكان آخر ما تكلم به ـ فيما بلغني ـ «أنا عند ربي يطعمني ويسقيني»، وكان رحمه الله تعالى من العلماء العاملين، ولم يُخَلِّف دينارًا ولا درهمًا، ومولده في سنة ستين وستمائة.

وفيها في النصف من ليلة الخميس سابع المحرم توفي الأمير الكبير شرف الدين حسين بن الأمير سيف الدين أبي بكر بن إسماعيل بن جَنْدَربك الرومي[٢]، وهو من الأمراء مقدمي الألوف بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته بالقاهرة بالدار المعروفة بشاطىء، ودفن في يوم الخميس بتربته الملاصقة لجامعه بظاهر القاهرة بالحِكْرِ وهذا الأمير قدم من بلاد الروم في الدولة الظاهرية الرُّكْنية في سنة خمس وسبعين وستمائة، ولما مات أنعم السلطان على ابن أخيه بإمرة طبلخاناة بِصَفَد المحروسة، وأنعم بإقطاعه وتقدمته على الأمير سيف الدين أَقْبُغا عبد الواحد رأس نوبة الجَمْدَارِيّة، وأنعم بإقطاع آقْبُغا على الأمير سيف الدين سُوسُون أخي الأمير سيف الدين قَوْصون.

وفيها في الساعة الحادية عشر من يوم الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر توفي الأمير الكبير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي[٣] ـ الحاجب كان ـ رحمه الله بداره التي أكمل عمارتها خارج باب النصر المعروفة قبله بدار نهرداس، ودفن بتربته التي أنشأها الملاصقة لداره المذكورة في الساعة الأولى من يوم الأربعاء وكان قبل ذلك قد حَصَل له نَهَج[٤] إذا مشى في الخدمة السلطانية، فجمع جماعة من الأطباء لذلك وقالوا: إنه حدث من ريح مجاور للكبد، وعولج منه وبرأ، ثم عاوده، وحصل له دوخة في دماغه، فلما كان في يوم الخميس ثامن الشهر طلع إلى الخدمة السلطانية، فلما خرج من مجلس السلطان وهو يمشي في قلعة الجبل قريبًا من دار الأمير سيف الدين طُرْجي ـ والتي كانت دار عدل ـ حصلت له الدوخة، فسقط منها على الأرض، فاحتمل وأجلس على مسطبة ظاهر الدار المذكورة حتى سكن ما حصل له، وقام ومشى إلى ظاهر القلعة، وركب وعاد إلى داره، وعولج، ثم ركب إلى الخدمة السلطانية على عادته، وتوجه في خدمة السلطان إلى جهة القليوبية في يوم الاثنين

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ٤/ ٥٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١٣٥، شذرات الذهب ٦/ ٩١.
(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢١٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٦، الدرر الكامنة ٢/ ٥٠.
(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٥.
(٤) النَّهَجُ: الربو، وتواتر النفس من شدة الحركة.

ثاني عشر الشهر، وعاد في الخدمة في يوم الأربعاء رابع عشرة، فلما كان في يوم الجمعة سادس عشر الشهر المذكور واجتمعتُ به بعد صلاة العصر، وقد صلى وتوجه ليعود الأمير علاء الدين الجمالي لمرض حصل له، وعاد إلى داره فرأيته وهو يشكو من النَّهَج، واجتمع بعض الأطباء عنده، وشكا ذلك لهم، فَهوَّنوه عليه، وقالوا: إنه يزول.

وكان قبل ذلك قد نُقِبَت خزانته التي بداره من ظاهرها، وسُرِق منها ما يزيد على تسعين ألف درهم، وظهر ذلك في يوم السبت تاسع المحرم، فانزعج لذلك، واتهم جماعة بالمال، فطلبوا وعاقبهم متولي القاهرة، فأقرّ بعضهم على بعض مماليكه أنه عاملهم على ذلك، فحصل له من ذلك نكد كثير، فاجتمعت به في يوم الجمعة المذكور بهذا السبب، وكان لي عليه دالَّة كثيرة، فتحدثت معه فيما حدث له، وهَوَّنته عليه، وذكّرته بما ضاع له من الأموال الكثيرة قبل ذلك عند اعتقاله، وما له من البواقي الكثيرة عند من داينه ومات أو عجز عن القيام به، ولم أزلْ به إلى أن هوّنت له ما عدم له، وكان السلطان قد رسم له أن يعاقب خَزَنْداره بَخشي الذي أقرّ عليه الذين اتهموا وعوقبوا فسألته عنه، وقلت له: اتّهمه بالمواطأة على مالك، وتتهم غيره من مماليكه، وقال: لا والله هم برايا من مالي، ولا أتِهمهم بخيانة ولا مواطأة، قلت له: فإذن لا يجوز لك أن تعاقبهم، وإن فعلت أثمت، ولم أزل به إلى أن أشهدني على نفسه أنه ترك الحديث عن المال الذي عدم له، وأنه لا يطالب به، وأنه إن وجد يكون صدقة للفقراء أو لبيت المال، وقررت معه أن يسأل السلطان أن يفرج عن المعتقلين بسبب ماله، وفارقته على ذلك بعد أن توثقت منه أن يفعل ففعل، وأفرج عنهم في يوم السبت في سابع عشر الشهر، فلما كان في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر ركب إلى الخدمة السلطانية على عادته، فلما انتهى إلى سوق الخيل قال له الحاجب: رسم السلطان ألا تَتَكَلَّف الطلوع إلى الخدمة حتى تستقل من الضعف، فعاد إلى داره، وجلس، ومَدّ سِماطه على عادته، وأكل هو مما أشار به الأطباء، ثم اشتد به المرض في ليلة الثلاثاء، وتزايد في يوم الثلاثاء فمات رحمه الله تعالى، وكان من أجود الناس وأحسنهم لقاء لأصحابه ومعارفه، وتفقدًا لأحوالهم، وسؤالاً عنهم إذا حضروا إليه، وأكثرهم بذلاً بجاهه، لا يبخل به على أحد ممن يقصده، سواء كان قديم الصحبة أو حديثها، لكنه يرعى لمن يقصده حق قصده، وإذا طالت غيبة أحد أصحابه عنه ثم جاء إليه لا يجد مودته قد تغيرت عليه عما يعهد، بل يسأله عن حاله، ويظهر له البشاشة والبشر، وكان شجاعًا حسن الرأي، رحمه الله تعالى.

وكان هذا الأمير المذكور من جملة مماليك الأمير حسام الدين طُرُنْطاي المنصوري ـ نائب السلطنة كان ـ أخبرني عن نفسه أنه كان في صغره في جملة مماليك السلطان حسام الدين كَنْجِيز، وابن السلطان ركن الدين بلج أرْسلان السَّلْجُوقي صاحب الروم، فلما عبر السلطان الملك الظاهر إلى الروم، ودخل قَيْسارية كما ذكرنا في سابع عشر ذي القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة، وفارقها السلطان غياث الدين كَيْخُسْرو والبرواناه إلى تَوْقات أخذ هذا الأمير في ذلك اليوم من جملة ثمانية عشر مملوكًا من مماليك السلطان غياث الدين، وعرضوا على السلطان الملك الظاهر فأمر بإرسالهم إلى الدِّهْلِيز السلطاني، قال: فسرقني الذي توجه بي، وباعني، ثم اشتراني الأمير حسام الدين طُرُنْطاي بعد ذلك، ولم يزل في جملة مماليكه إلى أن أعتقه، ولما قُتِل الأمير حسام الدين المذكور، كان الأمير سيف الدين بَكْتَمُر هذا عنده أمير آخور[١]، فانتقل إلى المملكة السلطانية الأشرفية، وجعله السلطان الملك الأشرف صلاح الدين[٢] في جملة أمراء آخورية في الإسطبل السلطاني، واستمر على ذلك إلى أن ملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، فأمَّرَه بعشرة طواشية، ثم أمَّره بطبلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير سيف الدين بَلَبان الأنصاري أمير النقباء، وقد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا تنقله في المناصب والولايات، وكان في الدولة الناصرية الثانية[٣] أمير آخور، ثم نقل إلى دمشق وأُمِّرَ بطبلخاناة بها، ثم ولي الحِجْبة بالشام، ونقل منها إلى أستاذ داريته وشادّ الدواوين، ثم أعيد إلى الشام، وحضر في ركاب السلطان في سنة تسع وسبعمائة إلى الديار المصرية المحروسة، ورسم له بتقدم العسكر بغزة في السنة المذكورة ثم نقل منها إلى الأبواب السلطانية، وولي الوزارة، وأُعْطِيَ تَقْدِمة ألف وإمْرَة مائة في سنة عشر وسبعمائة، ثم نقل في سنة إحدى عشرة إلى الحجبة إلى الأبواب السلطانية، إلى أن قبض عليه، ثم توجه بعد الإفراج عنه إلى نيابة المملكة الصَّفَدِية، وأعيد إلى الأبواب السلطانية في سنة ثمان عشرة وسبعمائة،

---

(١) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الإصطبلات، وأهم العاملين في الإصطبلات هو المسؤول عن الأعلاف ويسمى «السلاخور» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٤٧، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١١).

(٢) هو الملك الأشرف، صلاح الدين خليل بن قلاوون (انظر: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٨، السلوك ٢/ ٣١٤).

(٣) كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة في مصر في المرة الأولى سنة ٦٩٣هـ، وكانت ولايته الثانية سنة ٦٩٨هـ، وكانت ولايته الثالثة سنة ٧١٠هـ.

واستقر في جملة الأمراء المائة مقدمي الألوف، ورسم له بالجلوس في مجلس السلطان، فكان يجلس أخيرًا ثاني الميسرة، وقَرُب من السلطان قربًا كثيرًا، وكان يرجع إليه في أكثر ما يتحدث فيه.

ولما تمكن من السلطان بعد عوده من صَفَد أنهى له ما قدمنا ذكره من أخباره، وأنه كان من مماليك السلطان غياث الدين كَيْخُسرُو فأحضر السلطان قضاة القضاة إلى مخيمه وهو يتصيد بالقرب من طَنان وذلك في سنة [......][1] وسبعمائة، واستفتاهم في ذلك فأفتَوْه أنه بهذا الاعتبار باق على الرِّقّ لسلطان غياث الدين وذريته، فتَحَيَّلوا في ذلك، وفكروا في طريق يخلصه من الرق، فأبيع على الغائب، وأرث السلطان غياث الدين بإذن قاضي القضاة نور الدين الشافعي بمبلغ خمسة آلاف درهم، اشتراه ولدا الأمير حسام الدين طُرنطاي، وهما الأميران: ناصر الدين محمد وعلاء الدين علي بالثمن المذكور، وأنعم السلطان بالثمن من ماله، وأودع للغائب، وعَتَقاه، وجُدِّد نكاحه وأعتق ثانيًا جميع من كان أعتقه أولاً.

ولم يزل رحمه الله في الخدمة السلطانية على غاية الإكرام والقرب من السلطان وملازمته في أسفاره وصيده، ولو غاب يومًا واحدًا كان معه إلى أن مات رحمه الله تعالى، وأوصى بثلث ماله صَدَقَةً، وثبتت وصيته ونفذت، وخلف تركة جليلة، وأحسن السلطان إلى ورثته بعده؛ فأنعم على ولده الأمير ناصر الدين محمد بإمرة عشرة طواشية، وعمره يوم ذاك نحو ثلاثة عشرة سنة، وأنعم على ولده الأمير عبد الله بإقطاع، وعمره نحو خمس سنين، وعرض مماليكه، فنزل جماعة منهم في جملة المماليك السلطانية، وفَرَّق السلطان إقطاعه، فكمل منه للأمير سيف الدين طُرْغاي الجاشْنَكِير على ما بيده، فأكمل له مائة فارس، وقدمه على ألف، وأعطى جُوجَر للأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد وجعله شاد الدواوين، وأعطى الأمير سيف الدين طوسبون منه منية زِفْتَى، عوضًا عما ارتجعه من إقطاعه.

وفيها في سحر يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى توفي الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد العلامة بُرْهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي محمد بن عبد الرحمٰن بن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سِباع بن ضياء الفَزارِي

(١) بياض بالأصل.

البدري الشافعي المعروف والده بالفِرْكاح[١]، سمي كذلك لعرج كان برجله، وكانت وفاته بمنزله بمدرسة البادِرائِيَّة، وصلى عليه بجامع دمشق عقيب صلاة الجمعة، وكانت جنازته مشهودة، وصُلِّيَ عليه ثانيًا عند باب جامع جَرّاح، ومرة ثالثة عند باب التُّرْبة، ودفن بتربتهم بمقبرة الباب الصغير، ومولده بدمشق في شهر ربيع الأول سنة ستين وستمائة، ومحله من العلوم والزهد والنزاهة المحل الذي لا يُجْهَل، وامتنع من قبول قضاء القضاة بدمشق مرارًا، ولم يوافق على قبول الولاية، وله تصانيف في العلوم، وسمع من نحو مائة شيخ، منهم ابن عبد الدائم، وابن أبي اليُسْر، وحَدَّث بصحيح البخاري وغيره.

قال الشيخ علم الدين البِرزالي في تاريخه عنه: وله اختصاص بمعرفة الفرائض، وله فيها تصنيف، وله تعليقة كبيرة على كتاب التنبيه في عدة مجلدات، وله مصنفات صغار وأشياء مفيدة، وله مشاركة في معرفة الأصول والنحو، وله مصنف في المنطق، وغير ذلك.

قال: وطلبت من الشيخ كمال الدين بن الزَّمْلَكانِي أن يكتب لي ترجمته فكتب: هو إمام فاضل، وفقيه عالم، كثير الديانة غزير الفضائل، متقشف متزهد متورع متواضع حسن الصمت، لطيف الكلام، مُتَصَدٍّ للنفع والإفادة وشُغْل الطلبة وإفتاء المستفتين، وإرشاد الطالبين، تقدم في معرفة مذهب الشافعي ونقله، وأفتى ودرس في شبيبته، وعرضت عليه المناصب فأباها، وترك الخطابة بجامع دمشق بعد أن وليها وامتنع منها، وروجع في ذلك فلم يَقْبَل، وتصدّر ليلاً ونهارًا للإقراء والإفتاء، والجمع والإفادة، ملازم الخير وحسن الطريقة، متقللاً من الدنيا مُتَحَرِّزًا في فتواه، لا يفتي إلا فيما تحقق نقله، وإذا أفتى احترز وقَيّد ألفاظه، ولو بالقيود العامة، لئلا يكون عليه مطعن أو مأخذ، وكان بيده تدريس المدرسة البادِرائية، وليها بعد والده، واستقر بها،

---

(١) ابن الفركاح: هو إبراهيم بن تاج الدين عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء، برهان الدين الشافعي، المعروف بابن الفركاح الفزاري المتوفى بدمشق سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام بفضائل الشام»، «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس»، «تعليقة الفوائد من تنبيه أبي إسحاق» في الفروع، «حل القناع في حل السماع»، «الرخصة العميمة في أحكام الغنيمة»، «رسالة في مسألة الخلع»، «شرح الألفية لابن مالك»، «شرح منتهى السول والأمل لابن الحاجب»، «الفتاوى»، «فضائل العشرة المبشرة»، «ما يفتقر ويحتاج إليه المعتمر والحاج في المناسك»، «مقاصد الحج والاعتمار على سبيل الإيجاز والاختصار»، «المنائح لطالب الصيد والذبائح» (انظر: كشف الظنون ١/ ١٤، المنهل الصافي ١/ ٨٠، الدرر الكامنة ١/ ٣٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٠٨، شذرات الذهب ٦/ ٨٨).

واقتصر على شرح واقفها، وإذا فرغ من تدريسه بها تصدّر في الجامع للإقراء والتعليم والفتوى، وإذا رجع إلى منزله عاوده الشغل والمذاكرة، ولم يزل هذا دأبه، انتهى كلام الشيخ كمال الدين فيه، رحمهما الله تعالى.

وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة توفي القاضي معين الدين أبو المواهب هِبَةُ الله بن مُعِين الدين مسعود بن عبد الله بن أبي الفضائل أو المفضل حشيش[1]، صاحب ديوان الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته بالقاهرة بدار كان يسكنها برأس حارة الجُوجَرية، ودفن في يوم الاثنين بالقرافة الصغرى بتربة القاضي فخر الدين ناظر الجيوش، ومولده في أواخر شهور سنة ست وستين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى حسن المودة والمحاضرة والمذاكرة، وله شعر جيد ونثر، وكان كاتبًا أتْقَن صناعة كتابة التصرف، ما رأيت أجود من ذهنه وإتقانه وضبطه، سألته في سنة ست عشرة وسبعمائة عن بلدة تسمى (بَدَوَيْه) من أعمال الدقهلية والمرتاحية، لمن أقطعت في الرَّوْك الناصري[2]، فذكر لي أنها كانت قبل الروك لسبعة من رجال الحلقة المنصورة، وسمى بعضهم، ثم ذكر من أقطعت باسمه في الرَّوْك الناصري من غير أن يكشف حسابه، فقلت له: أرني الحساب الذي يدل على هذا، وقصدت بذلك تحقيق نقله، فأخرج حسابه، فتأملته، فما وجدته أخلّ بشيء منه، حتى كأنه كان يشاهده، فعجبت من ذلك، وحكيته عنه رحمه الله تعالى، واشتغل بأنساب العرب، ونظر في التاريخ رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم السبت رابع عشر ذي القعدة ـ بعد أذان العصر ـ توفي قاضي القضاة شيخ المشايخ علاء الدين أبو الحسن علي بن الشيخ نور الدين أبي الفداء إسماعيل بن جمال الدين أبي المحاسن يوسف القُونَوِيّ التبريزي الأصل الشافعي[3] قاضي القضاة بدمشق، وكانت وفاته ببستان بالسَّهْم ظاهر دمشق، وصُلِّيَ عليه بمصلى الجامع المُظَفَّرِي بكرة نهار الأحد، وأمّ الناس في الصلاة عليه الخطيب بدر الدين

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٠٤، السلوك ٢/ ٣١٥.

(٢) الروك الناصري: نسبة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد عمل الروك الناصري في سنة ست عشرة وسبعمائة ٧١٦هـ (صبح الأعشى ٣/ ٥٠١)، والروك في الأصل معناه مسح الأرض الزراعية في بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، وهو المعبَّر عنه «بفك الزمام» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٦٤).

(٣) انظر ترجمته في: (الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٦١، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، شذرات الذهب ٦/ ٩٠ ـ ٩١، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤ ـ ٢٨).

محمد بن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جلال الدين القَزْوِيني[١]، وحمل إلى تربة اشتراها له الأمير حسام الدين طُرُنْطاي البَشْمَقْدار الحاجب بمبلغ أربعمائة درهم بوصية منه أن يدفن في أرض لم يدفن فيها أحد، فاشترى له دارًا كانت لأولاد قَمَر الدولة، واحترقت لما دخل غازان الشام، فحُفِر له في وسط الدار، وله يومئذ نحو ستين سنة، فإن مولده بقُونِيَةَ في سنة ثمان وستين وستمائة تقريبًا، وقد ذكرنا من أخباره وحسن سيرته في ولاية قضاء الشام ما فيه كفاية، رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة السبت سادس ذي الحجة ـ بعد أذان العشاء الآخرة ـ توفي الرئيس الصاحب عز الدين أبو يَعْلَى حمزة بن الصدر الرئيس مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن الصدر عز الدين أبي غالب المظفر بن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن الرئيس العميد أبي يَعْلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي، المعروف بابن القَلانِسِيّ[٢]، مولده في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وستمائة، وكانت وفاته ببستانه بسفح جبل قاسيون، وصُلِّيَ عليه بمصلى الجامع المُظَفَّرِي، وأَمَّ الناسَ في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام، ثم صلّي بعد ذلك عليه وأَمّ الناس قاضي القضاة عز الدين الحنبلي، ودفن بتربة والده بسفح قاسيون.

وكان رحمه الله تعالى رجلاً دَيِّنًا صَدْرًا جليلاً معظّمًا، لا يرتفع عليه أحد في المجلس، ولي وكالة الخواص السلطانية الملكية الناصرية في سنة سبع وسبعمائة، ثم ولي وزارة الشام كما تقدم، وانفصل منها، واستقر في ولاية الخواص، ثم انفصل من ذلك كله، وكان من أغنياء الناس وأكابرهم، وله عدة مماليك في جملة رجال الحلقة المنصورة الشامية، وكان رحمه الله تعالى حسن المودة، قدمت إلى دمشق سنة ثنتي عشرة وسبعمائة عند عودي من طَرابُلُس بعد وزارته، فجاءني للسلام علي، وكنت نزلت عند قاضي القضاة نجم الدين صَصْرَى[٣] بدار ابن عمه شرف الدين رحمهم الله، وأظهر الألم من كوني لم أنزل عنده، وعتب على أصحابي كونهم ما عرفوه قبل قدومي، ليتلقاني وينزلني عنده.

وفيها في يوم الخميس حادي عشر ذي الحجة توفي الصاحب ناصر الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الشيخ

(١) ولد سنة ٧٠١هـ، وتوفي سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٥).
(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٧٥، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٩٦.
(٣) نجم الدين صصري: هو أحمد بن محمد بن سالم، نجم الدين بن صصري، تقدمت ترجمته.

فخر الدين محمد بن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جد أبيه بابن حِنّا أحد وزراء الدولة الناصرية والده، ووزير الدولة الظاهرية الركنية جد أبيه، وكان يلقب بالصاحب، ولم يلِ وزارة ولا ما يقاربها، وإنما يلقب بذلك على عادة أسلافه، وكانت وفاته بداره ببركة الحَبَش، ودفن يوم الجمعة بالقرافة عند قبر والده رحمهما الله تعالى، وكان مباشر صِحابة ديوان الأحباس، باشر هذه الوظيفة لفاقة نالته، وحاجية مسته، والله أعلم.

* * *

واستهلت سنة ثلاثين وسبعمائة بيوم الأربعاء الموافق الثامن والعشرين من بابة من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر يتصيَّد بجهة سَرْياقوس، وكان قد توجه لذلك من قلعة الجبل في يوم السبت السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ووصل إلى مُخَيَّمه المنصور الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس، وكان وصوله في يوم الثلاثاء سلخ ذي الحجة، ثم وصل السلطان إلى قلعة الجبل في هذا النهار، وهو مستهل المحرم، وصحبته الأمير سيف الدين تَنكِز، وقد لبس للتشريف على عادة، وأقام في الخدمة السلطانية يركب على عادة نواب السلطنة إلى بكرة نهار السبت الحادي عشر من الشهر، فتوَجَّه في خدمة السلطان إلى سَرْياقوس في بكرة يوم السبت المذكور، وتوجه منها إلى دمشق، واستمر السلطان بتلك الجهة إلى نهار الثلاثاء رابع عشر الشهر، فعاد إلى قلعة الجبل في هذا النهار، وأقام بها، ثم توجه أيضًا إلى سرياقوس، وعاد.

وأما الأمير سيف الدين تَنْكِز فإنه لما فارق الخدمة السلطانية عائدًا إلى الشام توجه إلى القُدْس الشريف وبلد الخَلِيل ـ صلوات الله عليه ـ فزار، وكان قد أنشأ مدرسة بالقدس الشريف، فشاهدها، ثم توجه إلى دمشق، فكان وصوله في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم.

* * *

ذكر تفويض قضاء القضاة بالشام إلى القاضي علم الدين بن الإخنائي

لما اتصل بالسلطان ـ خَلَّد اللّه سلطانه ـ وفاة قاضي القضاة الشيخ علاء الدين القُونَوِيّ قاضي الشام، استشار فيمن يفوض إليه القضاء بالشام، فوقع الاختيار على قاضي القضاة علم الدين محمد بن القاضي زين الدين أبي بكر بن القاضي ضياء الدين

عيسى بن بدر بن رحمه السعدي الإخْنائِي[١] وكان يلي قضاء الإسكندرية، كما قدمناه، فطلب إلى الأبواب السلطانية، فحضر من الثغر في أوائل ذي الحجة سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ففوّض السلطان إليه القضاء بالشام، وخلع عليه تشريف القضاة، وأنعم عليه ببغلة، وذلك في يوم السبت رابع المحرم من هذه السنة، وتوجه من القاهرة المحروسة على خيل البريد، في بكرة نهار السبت حادي عشر الشهر، صحبة نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز، ووصل معه لزيارة الخليل صلوات الله عليه والبيت المُقَدَّس، وألقى الدرس بمدرسة نائب السلطنة التي أنشأها بالقدس الشريف، ثم توجه إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم، وقُرِىء تقليده في الشُّبّاك الكمالي لجامع دمشق في يوم الجمعة مستهل صفر، وجلس لإلقاء الدروس بالمدرسة العادِليّة والغَزاليّة في يوم الأحد ثالث صفر من السنة.

وفيها في يوم الاثنين ـ سادس المحرم ـ توجه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر العلائي ـ أستاذ الدار كان ـ من الأبواب السلطانية إلى نيابة السلطنة. وتقدمة العسكر بغزة المحروسة عوضًا عن الأمير عز الدين أيْبَك الجمالي، ونقل الجمالي إلى نيابة ألْبِيْرَة بحكم وفاة نائبها الأمير حسام الدين لاجِين المنصوري الحسامي، ولما توجه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر إلى غزة أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير سيف الدين بَهادُر الناصري، وهو من مماليك تَمُرْتاش بن جُوبان.

ذكر وصول الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل[٢] صاحب حماة إلى الخدمة السلطانية وتوجهه في خدمة السلطان إلى الصيد وعوده إلى حماة

كان وصوله إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين العشرين من المحرم وخُلِع

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٦، شذرات الذهب ٦/ ١٠٣، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٤٥، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٧.

(٢) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: هو إسماعيل بن علي بن المظفر تقي الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، أبو الفداء الأيوبي الشافعي، صاحب حماه، ولد بدمشق سنة ٦٧٢هـ، ثم رحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر الذي أقامه سلطانًا مستقلاً على حماه، وهو مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب، توفي سنة ٧٣٢هـ، له من المصنفات: «الأحكام الصغرى» في الحديث، «تقويم البلدان»، «كتاب الكناش»، «كتاب الموازين»، «كشف الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب»، «المختصر في أخبار البشر» في التاريخ، «نظم الحاوي الصغير» في الفروع، «نوادر العلم». (انظر: كشف الظنون ١/ ٢١٤، الأعلام ١/ ٣١٩، فوات الوفيات ١/ ١٨٣).

عليه وعلى ولده في هذا اليوم قبل طلوعهم إلى الخدمة، فطلعا إلى الخدمة السلطانية وعليهما التشاريف، واستمرا في الخدمة السلطانية، وتوجَّها في خدمة السلطان إلى الصيد في الوجه القبلي، وكان استقلال الركاب السلطاني من قلعة الجبل في يوم السبت تاسع صفر، وأقام بمنزلة الأهرام بالجيزية إلى بكرة نهار الأربعاء ثالث عشر صفر، وعاد إلى قلعة الجبل.

وكان سبب عوده أنه حصل له في يده اليسرى دُمَّل صغير قلق بسببه، واشتد به الألم، فاقتضى ذلك عوده في هذا اليوم، وأقام بقلعة الجبل حتى فتح الدمل وبرىء منه، ثم توجه في يوم الخميس حادي عشرين الشهر إلى الأهرام، واستقل ركابه إلى الصيد المبارك بالوجه القبلي، فانتهى إلى ناحية «هُوْ والكوم الأحمر» وعاد إلى مكان وصوله ـ إلى قلعة الجبل المحروسة ـ في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر وقت الصلاة، والملك المؤيد وولده في خدمته، وفي يوم الاثنين ثامن الشهر خلع السلطان عليهما على عادة الملوك أصحاب حماة ورسم بعوده إلى مقر ملكه بحماة، فعاد في هذا اليوم بعد أن شمله الإنعام السلطاني على عادته.

ذكر توجه السلطان إلى الصيد وعوده
وسبب ما حصل في يده من التصدع ومعالجة ذلك وبرئه

لما عاد السلطان من الصيد بالوجه القبلي أقام بقلعة الجبل إلى يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الآخر، وتوجه في بكرة النهار إلى الصيد بالوجه البحري، ثم عاد في عشية نهار الجمعة.

وسبب عوده أنه تَقَنْطَر عن فرسه في يوم الجمعة المذكور، فانكسرت يده اليسرى، فعاد واستقر بقلعة الجبل، وعُولج وكان الأمراء يركبون في أيام المواكب إلى سوق الخيل، ويطلعون إلى الخدمة على العادة إلى أن ينتهوا إلى دركاة باب القلعة، ثم يُؤْمَروا بالانصراف، ولا يصل السلطان غير مماليكه الأمراء الخاصكية، واستمرت الحال على ذلك إلى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي بكرة النهار جلس السلطان بالقصر الأبلق بقلعة الجبل، ودخل عليه أمير جاندار والحجاب، فخلع على أرباب الوظائف، وهم: الأمير ركن الدين بِيبَرْس الأحمدي أمير جاندار[١] ومن معه، والأمير سيف الدين أُلْماس الحاجب[٢]، والأمير

(١) توفي سنة ٧٤٦هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٠٢).

(٢) توفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤١٠ ـ ٤١١).

علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي أستاذ الدار خِلَعًا كاملة بكَلُّوتات زَرْكش، وحوايص ذهب، وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والمماليك السلطانية، ثم جلس في يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بالقصر الأبلق أيضًا جلوسًا عامًا، ودخل إلى الخدمة سائر الأمراء الأكابر مقدمي الألوف، وأمراء الطبلخاناة والعشرات، ومقدمي الحلقة وغيرهم، ولما عوفي السلطان استبشر الناس بذلك، وزُيِّنَت المدينتان زينة عظيمة في يوم الأحد رابع الشهر، ولازم الناس الأسواق ليلاً ونهارًا، ولم يقتصر في الزينة على قصبة المدينتين بل سائر الأسواق والقياسير وغيرها، وأنشئت كتب البشائر بعافية السلطان وصحته إلى النواب بسائر الممالك السلطانية، وتوجه بها الأمير سيف الدين آقْبُغا عبد الواحد الجَمَدار أحد الأمراء مقدمي الألوف، وكان توجهه بعد صلاة الجمعة تاسع الشهر، ووصل إلى دمشق في يوم الأربعاء رابع عشر الشهر، وتوجه منها إلى حلب وعاد.

وفي يوم الجمعة تاسع الشهر أيضًا حضر السلطان إلى الجامع بقلعة الجبل، وصلى الجمعة، وزفت البشائر بباب الإسطبل السلطاني، وعلى أبواب الأمراء بقلعة الجبل والقاهرة، واستمر ذلك إلى الظهر من يوم الأحد حادي عشر جمادى الآخرة، فرسم بإزالة الزينة والطبلخاناة، وكانت هذه الأيام المذكورة أيامًا مشهودة حتى غصت المدينة بالناس لكثرة الازدحام، حتى عجز الناس في بعض الأوقات عن المرور بقصبة المدينة، وكانوا يمشون في بطائن الأزقة.

ذكر إقامة الخطبة وصلاة الجمعة بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة حضر الأمير جمال الدين أقش الأشرفي المنصوري المعروف بنائب الكَرَك، وهو أجل أمراء الدولة وأقربهم من السلطان مجلسًا إلى المدرسة الصالحية النجمية التي بالقاهرة بخُطِّ بين القصرين، وجلس بإيوانها القبلي، ومعه قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي في جماعة من أعيان الفقهاء الأكابر، وأحضر منبرًا استجده، وأمر بنصبه بالإيوان القبلي المذكور من المدرسة المذكورة، وهو الإيوان الموقوف على طائفة الفقهاء الشافعية، فنُصِب، وأحضر دِكَّة يُقرأ عليها المصحف الشريف، ويُؤَذِّن عليه المؤذنون الأذان الثاني، ويُبَلِّغون عن الخطيب، وأقيمت الخطبة بها وصلاة الجمعة في يوم الجمعة حادي عشرين الشهر، خطب بها القاضي جمال الدين إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الغَزِّي.

ورتب الأمير المشار إليه من ماله في كل شهر ما يذكر، وهو للخطيب المذكور خمسين درهمًا، ولستة نفر من المؤذنين أحدهم يقوم أمام الخطيب لكل منهم عشرة دراهم، ولقارىء المصحف عشرة دراهم، ولفراشين لفرش الحصر في يوم الجمعة ورفعها بعد الصلاة خمسة وعشرين درهمًا، ولمن يحمل المصحف الشريف ثلاثة دراهم وثلث درهم، ولمن يَنْحَر يوم الجمعة ثلاثة دراهم وثلث درهم، ولسَقّاء يسقي الماء ثلاثة دراهم وثلث، ولخدام القبة الصالحية في كل سنة خمسين درهمًا، ولجماعة من التَّكْرُور بالمدرسة خمسين درهمًا في السنة.

ذكر إنشاء الخانقاة العلائية بالقاهرة

كان الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي الناصري أستاذ الدار العالية قد أنشأ خانقاه قُبالة داره برأس دَرْب مُلُوخيا بالقاهرة المعزية، وكملت عمارتها في هذه السنة، وحصل الجلوس فيها في يوم الأربعاء السابع من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعمائة.

ورتب المشيخة بها والتدريس للقاضي علاء الدين علي بن القاضي فخر الدين عثمان الماردِيني الحنفي المعروف والده بالتُّرْكُماني[١]، وشرط أن يجلس في أول النهار لإلقاء درس على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويجلس بعد صلاة العصر هو وجماعة الصوفية، ورتب له في كل شهر عن المشيخة والتدريس ستين درهمًا، وثمن خبز ولحم أربعين درهمًا، ورتب بها عشرين من الصوفية، يحضرون الدرس لكل منهم في كل شهر واحدًا وعشرين درهمًا من ذلك جامكية سبعة دراهم ونصف، وثمن خبز ستة دراهم، وثمن طعام سبعة دراهم ونصف درهم، ورتب الواقف من فائض الوقف أحد عشر طالبًا لحضور الدرس خاصة، وجعل للمُنْتَهِي منهم في كل شهر عشرة دراهم، وللمُبْتَدِىء ثلاثة دراهم وما بين العشرة والثلاثة، ورتب أيضًا من فائض الوقف لخادم الفقراء في كل شهر تسعة دراهم، ورتب من أصل الوقف لإمام بالمكان في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتب لعشرة نفر من القُرّاء يقرؤون القرآن العظيم بالمدفن الذي أنشأه لنفسه لكل منهم في كل شهر عشرة دراهم، شَرَط في كتاب الوقف أربعة، وزاد من الفائض ستة، ورَتّب لهم أن يقرؤوا في الأوقات التي تذكر: عند طلوع الشمس نفرين، وبعد صلاة الظهر ثلاثة، وبعد صلاة المغرب نفرين، وبعد صلاة

(١) علاء الدين ابن التركماني: ولد سنة ٦٨٣هـ، وتوفي سنة ٧٥٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٨٤).

العشاء نفرين، ولوظيفة الصوفية قارِئًا، ورتب لقارىء الميعاد في كل شهر عشرة دراهم، ومن الفائض درهمين، ورتب للمؤذنين في كل شهر أربعين درهمًا، ولخادم زمام بالمدفن في كل شهر خمسين درهمًا ولفراش في كل شهر عشرين درهمًا ومن الفائض عشرين درهمًا في الشهر، ورتب لمن يتولى المِزْوَلَة[١] في كل شهر من الفائض عشرة دراهم، ورتب للبواب في كل شهر عشرين درهمًا، وللقَيِّم عشرين درهمًا، وللسَّوّاق في كل شهر عشرين درهمًا، ورتب زيتًا برسم الوقود في كل شهر خمسين رطلاً، ورتب مكتب سبيل فيه عشرون نفرًا من الأيتام رتب لكل منهم في كل يوم ثمن درهم يكون في كل شهر ثلاثة دراهم ونصف وربع درهم، ورتب لهم كسوة في فصل الشتاء والصيف، لجميعهم ستمائة درهم، وثمن أدوية ومِداد في كل شهر درهمًا ونصف، ورتب غير ذلك ممّا يحتاج إليه المكان في كل شهر ثمن مُشاق للفَتايِل ثلاثة دراهم، وثمن عبي لمسح الرخام ومكانس ثلاثة دراهم، وغير ذلك من عُلُوفة ثور الساقية وثمن طونس وقواديس، ورتب في السنة لمَلْو الصَّهْرِيج من الماء العذب، وأجرة غسله، وثمن أضحية مائة درهم، وثمن حلوى في شهر رمضان خمسين درهمًا، وثمن زيت زيادة في شهر رمضان، وثمن قناديل مائة درهم، ووقف على ذلك من أملاكه ما يقوم به وزيادة، أثابه الله تعالى.

ذكر وصول رسل ريدافرنس إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل ريدافرنس فِلِيب[٢] ـ بالفاء وبعدها لام وياء مثناة من تحت وآخره باء ـ وهو صاحب فرانسة، وانتهت بهم سفنهم إلى ميناء عَكّا من الساحل الشامي، وكان وصولهم إليها في يوم الخميس خامس عشرين ربيع الأول، وعدتهم مائة وعشرون نفرًا، ومثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، وكان قد جلس بالإيوان جلوسًا عامًا، وذلك بعد صحته مما كان حصل له.

وكان مضمون رسالتهم ـ فيما قيل ـ طلب بلاد الساحل الشامي والبيت المقدس، فأنكر السلطان عليهم وعلى مرسلهم، وأهانهم ورَتَّب لهم في كل يوم مائة

---

(١) المزولة: هي الساعة الشمسية التي يُعيّنُ بها الوقت بظلّ الشاخص الذي يثبّت عليها، جمعها: مزاول.

(٢) ريدا فرنس فليب: المقصود به بالفرنسية: «Roi de Franc» أي ملك فرنسا، وفليب هو فيليب السادس، ملك فرنسا ما بين سنة ١٣٢٨م ـ ١٣٥٠م.

درهم وخمسين درهمًا، زيادة على ذلك، ثم استحضرهم ثانيًا في يوم الخميس بدار العدل، ورسم بعودهم.

ذكر الإفراج عن الأمير سيف الدين بَهادُر

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعمائة أمر السلطان بالإفراج عن الأمير سيف الدين بَهادُر المُعِزّي[١]، وهو من المماليك المنصورية الحسامية، وكان قد اعتقل ـ كما ذكرنا ـ في يوم السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يومًا، وأنعم عليه بإقطاع الأمير سيف الدين سَنْجَر الجمَقْدار أحد أمراء المائة ومقدمي الألوف، إلا أنه اختصر من إقطاعه صَنْبُو من الأعالي أضيفت إلى الخاص السلطاني، «وبِجام» من القليوبية أعطيت للأمير سيف الدين بَهادُر الناصري التَّمُرْتاشي زيادة على ما بيده، وتوجه الأمير علم الدين سَنْجَر الجمقدار إلى دمشق على إقطاع الأمير سيف الدين بَهادُر آص المنصوري[٢] على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد

وفي هذه السنة في يوم الخميس العشرين من شهر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا، والمشار إليه منهم الأمير حمزة، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، وأجراهم السلطان على عوائدهم في الإنعام والتشاريف.

وبلغنا أن مضمون رسالتهم السلام على السلطان، وتهنئته بالعافية والسلامة، وغير ذلك من الكلام المحبب للخواطر المستميل للقلوب، وعاد إلى مرسلهم في يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر المذكور، وتوجه لوداعهم الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي، فوصلهم إلى قَطْيا، وعاد.

ووصل قبل توجههم إلى الأبواب السلطانية رسل نائب الملك أبي سعيد الشيخ حسن الجلايري، فأخَّروا عن المثول بين يدي السلطان إلى يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر بعد رحيل الأمير حمزة، ومثلوا بين يدي السلطان يوم الخميس

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٤٠، ١٠٢، السلوك ٢/ ٣١٩.

(٢) توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٧).

السابع والعشرين من الشهر في اليوم المذكور، وأدوا الرسالة، وخلع عليهم دون عادة رسل الملك، وأعيدوا إلى مرسلهم.

وفيها في شهر رجب احترقت كنيسة النصارى المَلْكيين[١] التي بمصر حريقًا عظيمًا، وصار بعض عواميدها الرخام جيرًا لشدة الحريق، وكان بجوار الكنيسة مسجدان لم ينلهما من النار شيء، ثم رسم بإعادة الكنيسة المذكورة، فأعيدت.

وفيها في يوم الأربعاء ثالث شعبان فوّض السلطان قضاء ثغر الإسكندرية للقاضي علم الدين صالح بن القاضي المرحوم نجم الدين عبد القوي الإسنائي، وكان قبل ذلك يلي قضاء الأعمال الغربية نيابة عن قاضي القضاة جلال الدين القَزْويني، فلما شَغَر ثغر الإسكندرية عن القضاء عند انتقال قاضيه علم الدين بن الإخنائي إلى دمشق - كما تقدم - عين السلطان لقضاء الثغر القاضي العالم شمس الدين محمد بن عَدْلان الشافعي، فامتنع من قبول الولاية، واستعفى، واعتذر بضعف، فأجيب إلى الإعفاء، وعين جماعة وعرضوا على السلطان فلم يول أحدًا منهم، وعَيَّن القاضي علم الدين المذكور، فطلب من مدينة المحلة - وهي كرسي الغربية - في يوم الخميس السابع والعشرين من رجب، فحضر إلى الأبواب السلطانية في يوم الأحد سلخ الشهر، ومثل بين يدي السلطان في يوم الأربعاء المذكور، وشافهه بالولاية، وشمله الإنعام بالتشريف الصوف والطِّرحة - على عادة القضاة - في يوم الاثنين ثامن الشهر، ومثل بين يدي السلطان ثانيًا في يوم الثلاثاء، وتوجه إلى الثغر، ووصل إليه في يوم الثاني والعشرين من شعبان، ولم تطل مدة إقامته بالثغر، فإنه عزل عن القضاء في يوم الاثنين ثاني عشر شوال منها.

وفيها في يوم الجمعة حادي عشري رمضان أقيمت الخطبة بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين قَوْصُون الناصري خارج بابي زُوَيْلة بالشارع الأعظم بجوار حمامي قاتِل السَّبع بخُطِّ حوض ابن هِنّس وولي خطابته القاضي فخر الدين محمد بن يحيى بن

---

(١) النصارى الملكيون: أو الملكانيون: طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، سمُّوا بالملكيين لأنهم أيّدوا قرار خلقيدونية سنة ٤٥١م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية، ومنهم الروم الكاثوليك الذين يعترفون برياسة بابا روما، والأرثوذكس الذين لا يعترفون بهذه الرياسة (الموسوعة العربية الميسرة ص١٧٤٢).
وفي صبح الأعشى ١١/٣٨٧: النصارى الملكية هم أتباع ملكا (المقصود الملك مرقيانوس) الذي ظهر قديمًا ببلاد الروم، وأن الروم والفرنج كلهم أتباعه، وبالديار المصرية منهم النزر اليسير، ولهم بطرك يخصهم.

مِسْمار المعروف بابن شُكْر[١]، ولم يخطب به في هذه السنة، بل خطب قاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني الشافعي، ثم استمر خطيبه المذكور في الخطابة.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر شوال وصل إلى الأبواب السلطانية رسل متملك اليمن، وهو الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود بالهدايا والتحف، ومن جملتها فيلان، فقبلت هدية مرسلهم، وحصل الإنكار الشديد عليه وعليهم، فإنه اتصل بالسلطان أن ملك مدينة دهلي وبلاد الهند أرسل إلى السلطان هدية عظيمة لم يرسل مثلها لملك قبله، وأنها لما وصلت إلى ثغر عَدَن قُتِل الرسول باتفاق من الملك المجاهد ووزيره، واستولى الملك المجاهد على الهدية بكمالها، وأن الذي أهداه الملك المجاهد إنما هو شيء يسير من جملتها، فغضب السلطان لذلك، وأمر باعتقال رسله وخاله، وهو ابن النَّقّاش، واعتقلوا مدة، ثم أفرج عنهم بعد ذلك، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر يوسف الكيماوي ومقتله

وفي هذه السنة في يوم الخميس سابع عشر شهر رمضان وصل إلى الأبواب السلطانية إنسان اسمه يوسف الكَرَكِي، ويعرف جوك من جهة نائب السلطنة الشريفة بالشام، وهو من مسالمة نصارى الكَرَك، كان يَدَّعِي أنه وصل إلى علم الكيمياء، واشتهر أمره بالشام، واتصل ببعض الأمراء، وهو بَهادُر التَّقوى الجُمَقْدار[٢] بدمشق، وتحيَّل عليه، وأخذ منه جملة من المال، وتنقّل في مدن الشام وقراها، وتحيّل على أهلها، وأفسد عليهم أموالهم، واعْتُقِل بقلعة صَفَد مدة، ثم أُفرج عنه، وعاد إلى دمشق، وسلك طريقه، فانتهى أمره إلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنْكِز، فأحضره، واتضح له حاله، فهَمَّ بقتله وإعدامه، فقال له: أرسلني إلى السلطان فإنني إذا وصلت إليه ملأت له قلعة الجبل ذهبًا وفضة، فجهزه إلى الأبواب السلطانية، فوصل في التاريخ المذكور، ومثل بين يدي السلطان، وادَّعَى أنه يعرف صناعة الكيمياء، فسلّمه إلى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي، فتحيل، ودَاكَ شيئًا من الفضة الحَجَر، وألقى عليه الزِّئْبَق فصعد الزئبق واستقر ما كان داكه فلم يشك السلطان في صدقه، وخلع عليه خلعة سنية، وطلب من السلطان فضة مصفاة مشحرة، وذهبًا

---

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٦٣٨).

(٢) الجمقدار: هو حامل الدبوس، ويسمّى: العامود، وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه (صبح الأعشى ٢/ ١٥١).

أَفْلُورِيًّا[١]، وزئبقًا، فطلب الزئبق من القاهرة ومصر والإسكندرية، واستنفد جميع ما عند الناس من الزئبق، وأخذ جملة من الذهب، وأحضر إلى السلطان ألف دينار، وادّعى أنها من صنعته، فأنعم عليه بها، وخلع عليه خلعة سنية، وأنعم عليه بفرس بسرج ولجام وكَنْبُوش حرير، وبقي يَعِد ويُمَنِّي، ثم رجع إلى الكَرَك على خيل البريد لإحضار حشائش، فتوجه وصحبه من يحفظه، وعاد وقد ظهر للسلطان كذبه، فضَيّق عليه فتحيل وهرب في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، فخرج السلطان لذلك، وشدّد على الولاة في طلبه، فنودي عليه في المدينتين، وكتب إلى الوجهين - القبلي والبحري - بطلبه حيث كان، وكتب إلى الشام بطلبه، وإلى سائر الجهات، فقبض عليه في ذي الحجة من السنة بمدينة أخميم من الصعيد، وجهز إلى الأبواب السلطانية، فوصل في يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان بالميدان، فسأله عن المال الذي أخذه، فقال: المال راح، فرسم بضربه، فضرب ضربًا شديدًا، وحمل في قفص إلى خزانة شمائل، فاعتقل بها ومات في ليلة الأحد خامس عشري ذي الحجة، فرسم السلطان بتَسْمِيره، فسُمِّرَ في عشية نهار الأحد المذكور بعد أن مات وورم، وبات ليلة الاثنين على خشب التسمير، وحمل في يوم الاثنين على جمل شق به المدينة إلى باب النصر ودفن. هذا ما كان من أمره.

وفي هذه السنة في ذي القعدة أمر السلطان بإخراج المَجْذُومين والبَرْصَى من القاهرة ومصر إلى بلدة من أعمال الفيوم، فجمعوا، واعتقلوا حتى كملوا، وأخرجوا في ليلة السبت سادس عشر الشهر، فوصلوا إلى تلك القرية، وهي خراب لا ساكن بها، فتفرقوا في البلاد، ثم عاد بعضهم إلى القاهرة ومصر، وسكن أمرهم، والله تعالى أعلم.

ذكر الفتنة بمكة شرّفها الله تعالى

وفي هذه السنة في يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة وقعت الفتنة بمكة - شرّفها الله تعالى - وسبب ذلك: أن الحاجّ لما قَضَوْا مناسك الحج توجه بعضهم عائدًا إلى الديار المصرية، منهم الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، ومن صحبه في يوم الأربعاء ثاني عشر الشهر، وتأخر أمير الركب، وهو الأمير سيف الدين خاص تُرك الجَمَدار الناصري، والأمير سيف الدين الدَمُر أمير جانْدار، والأمير شهاب الدين أحمد، ومن معهم من بقية الحاج، لصلاة الجمعة بمكة، فلما كان الخطيب على المنبر تَعَبَّث

(١) ذهب أفلوريا: نسبة إلى مدينة «Florino» الإيطالية.

بعض عبيد الأشراف ببعض حاج العراق، الذين حضروا في الركب العراقي، وتخطفوا شيئًا من أموالهم، والشريف عُطَيْفة بن أبي نُمَيّ أمير مكة جالس إلى جانب أمير الركب، فاستصرخ الناس، واستغاثوا بالأمير سيف الدين الدَمُر أمير جاندار، فنهض وتقدم لمنعهم، وتقدمه ولده خليل وضرب بعض العبيد، فطعن بحربة، فمات، فاحتدّ والده، وبادر لطلب ثأره، فقُتِل أيضًا بحربة، وقتل معه أحد أولاد الأمير ركن الدين بِيبَرْس التاجي - متولي القاهرة كان - فوثب الأمير عُطَيْفة، وجرد سيفه، وتوجه نحو العبيد ليردهم، فلم يصنع شيئًا، وظهر من ذلك أن إثارة هذه الفتنة كان برأيه وأمره، وذكر أن الذي قتل الدَمُر هو مبارك بن عُطَيْفة، وثارت الفتنة، فعجل الخطيب الصلاة، وخرج الناس من المسجد الحرام إلى رحالهم وخيامهم، واستحل الحرم في هذا اليوم، وتلطف أمير الركب في الخروج بالناس إلى خيامهم، ووقف في وجوه القوم من الأشراف والعبيد، فمنعهم من التعرض إلى الحاج، ومن غريب ما وقع في هذه القضية أنه شاع بالقاهرة المعزية الخبر بقتل الْدَمُر في يوم مقتله وهو يوم الجمعة المذكور، وسمعت أنا بعض الناس يتحدث بذلك بعد صلاة العصر من يوم الجمعة المذكور ورَدَدْت القول على ناقله.

وكان الركب العراقي قد حضر في هذه السنة إلى مكة شرّفها الله تعالى وأحضر متوليه المندوب من جهة الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا معه فِيلاً صغيرًا، وشهد به الموقف بعرفة، فتطاير الناس، وتشاءموا بمقدمه، وقال بعضهم: «هذا عام الفيل» فوقع ما وقع، فلما رجعوا به، وقربوا من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وانتهوا إلى الفَرْش الصغير قبل البيداء الذي ينزل منها إلى ذي الحُلَيْفة، وقف الفيل وتقهقر، وكلما أرادوه على التقدم تأخر، فضربه المُوَكَّلون به، وبقي يرجع إلى ورائه القهقرى، فلم يزل على ذلك إلى أن سقط على الأرض ميتًا، وذلك في يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة، ويقال: أنه صرف على كلفة هذا الفيل منذ جُهِّزَ من العراق إلى أن مات زيادة على ثلاثين ألف درهم، وما علم مقصد الملك أبي سعيد في إرساله إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ذكر متجددات كانت بدمشق المحروسة في سنة ثلاثين وسبعمائة مما نقلته من تاريخي البِرْزالي، والجَزَري

في هذه السنة في مستهل شهر ربيع الأول حضر نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى الجامع الأموي بدمشق وصُحبته قاضي القضاة علم الدين

الشافعي، وشاهد الجامع، فاقتضت الآراء أن ينقض الرخام القائم بالجدار القبلي من الجهة الشرقية ومحراب الصحابة، وأن يجدد بشَبَه الجهة الغربية، فحصل الشروع في ذلك، وكمل في أواخر ذي الحجة من السنة، وصرف على العمارة من فائض وقف الجامع، فإنه كان قد تَحَصّل به بعد كُلَفِه ونفقاته ـ فيما قيل ـ نحو خمسة وسبعين ألف درهم.

وفيها ـ في مستهل ربيع الآخر ـ حصل بدمشق اضطراب بسبب الذهب، وأن عياره قد تغير ونقص، فأحضر محمد بن اليَخْشُور ضامن دار الضرب بدمشق، والصَّيْرَفِي، وعلق الذهب، فنقصت المائة دينار خمسة عشر دينارًا، ووجدت عدة سكك متقدمة التواريخ وأسماء الملوك، ونسب ذلك إلى أن القاضي شمس الدين عبد الله غبريال ناظر الشام أمر بذلك، وصرف منه جملة كبيرة خارج دار الضرب، وخرج ما صرف من الذهب وسافر به التجار والعربان والتركمان الذين يجلبون الأغنام من بلاد الشرق وغيرها إلى سائر الأمصار، فاضطرب الحال في ذلك اضطرابًا شديدًا، وبقي ما يوجد من هذا الذهب يصرف في القاهرة من ثمانية عشر درهمًا الدينار إلى أحد وعشرين درهمًا، وصرف الدرهم الجيد بخمسة وعشرين درهمًا.

وفيها في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، أصبح الناس بدمشق فوجدوا الأنهار قد امتلأت ماء متغير اللون من غير سبب ظاهر لهذه الزيادة، فسُقِيَت البساتين والزراعات، واستمر ذلك إلى يوم الأحد سابع الشهر، ونقص قليلاً، وكان المطر في هذه السنة قد تأخر بدمشق، فأمطرت في ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر مطرًا خفيفًا، وفي ليلة السبت، ثم حصل الغيث الكثير في ليلة الأحد سابع الشهر، وذلك في آخر كانون الثاني، وفيها ـ في جمادى الآخرة ـ كملت عمارة مصلّى العيدين بظاهر دمشق، وتجديد سقوفه وبياضه وإصلاح أبوابه، وكان قد تداعى، فرسم السلطان بعمارته، فجُدِّد، وصلّى خطيبه في صدره، وخطب في يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وكان في مدة العمارة يخطب ويصلي الجمعة بظاهره، وجعلت أبوابه أحد عشر بابًا جدد الآن منها سبعة، وكانت أبوابه مرتفعة بثلاث درجات بنيت كذلك خوفًا من عبور الدواب إليه فألصقت الآن بالأرض، وفيها في العشر الأوسط من شهر رجب ذكر الدرس بمحراب الحَنَفِيّة بجامع دمشق، ودرس به الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق الحنفي، ورتب معه عشرة فقهاء، والذي رتبه القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش، وكان قد رتب قبله درسًا للمالكية في محراب الصحابة الذي استقر محراب المالكية، وفوض تدريسه لقاضي القضاة شرف الدين المالكي، ورتب فيه جماعة من الفقهاء المالكية.

وفيها ـ في يوم الخميس ثامن عشر شعبان ـ رسم نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز بإخراب الحوانيت والبيوت التي بظاهر دمشق المجاورة لباب النصر من حد الجسر إلى المسجد الذي في وسط الطريق، فهدمت، وأخرجت أخشابها وصارت الأبنية كومًا، ثم أحضرت الأنفار والجراريف ومهدت أتربتها حتى تساوت بالأرض، ومرّ نائب السلطنة المذكور أيضًا في هذا اليوم بالحويرة بالقوّاسين، فوصل رأسه إلى السقف، فرسم بإخراب السقف ورفعه، فقيل له: إن الأرض قد علت، فرسم أن تحرث الأرض، وينقل التراب منها، ففعل ذلك.

وفيها ـ في يوم السبت رابع شوال ـ رسم نائب السلطنة بتوسعة الطريق بسوق الخَوّاصين، وندب لذلك شادّ الدواوين، ومتولي دمشق، وناظر الحِسْبة، فهدمت مساطب الحوانيت بالجانبين، وجعلت كل مسطبة منها قدر ذراع واحد ونصف بالقاسمي، فاتسع الطريق لذلك.

ورسم أيضًا في يوم السبت سابع عشر شوال بإخراب الجانب القبلي من سُوَيْقة دار بطيخ، لأجل توسعة سوق الخيل، فأخرب ذلك وهو نحو عشرين حانوتًا، ومُهِّد ترابه بالأرض.

وفيها ـ في يوم الأربعاء تاسع عشرين شوال ـ حكم قاضي القضاة شرف الدين المالكي بإراقة دم نصراني كان أسلم ثم ارتد، فضربت عنقه بسوق الخيل بدمشق، ثم حرقه العوام بالنار حتى صار رمادًا، وذُرِّي رَماده بنهر بَرَدَى.

وفي هذه السنة توفي القاضي علاء الدين علي بن القاضي تاج الدين أبي الطاهر أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي(١) ـ صاحب ديوان الإنشاء السعيد كان ـ وكانت وفاته في بكرة نهار الأربعاء خامس عشر المحرم بداره بالقاهرة بجوار الجامع الأزهر، ودفن في يوم الخميس سادس عشر الشهر، وكان قد مرض وحصل له فالج، واشتد به الأمر، وتزايد به المرض إلى أن عجز عن الحركة والنطق وتحريك شيء من أعضائه، وعطل عن المباشرة ـ كما تقدم ـ فلزم داره في يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة تسع وعشرين، فكانت مدة انقطاعه سنة كاملة، وولي صحابة ديوان الإنشاء في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعمائة، فكانت مدة ولايته ثماني عشرة سنة وأيامًا، رحمه الله تعالى.

---

(١) ولد سنة ٦٨٠هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٢٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٣، الدرر الكامنة ٣/ ١٤ ـ ١٥).

وتوفي ليلة الأحد الثاني عشر من المحرم الشيخ العالم الفاضل الوزير أبو القاسم محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن سهل بن أحمد بن سهل الأزدي الغَرْناطِي الأندلسي(١) بالقاهرة عند مقدمه من الحج، ودفن بمقبرة باب النصر، ومولده يوم عرفة سنة اثنتين وستين وستمائة، وهو من بيت كبير مشهور بالرياسة والملك، وله اشتغال بالعلم، ورغبة في طلبه. رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ فخر الدين عثمان بن الشيخ جمال الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري(٢) جده، وهي نسبة إلى الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب كان، فإنه عتيقه، وكانت وفاته في ليلة الخميس سادس شهر رجب، ودفن من نهاره عند قبر والده بتربة الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي العزيزي، ومولده في تاسع عشرين المحرم سنة سبعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر الفاضل ناصر الدين شافع بن نور الدين علي بن الفقيه عماد الدين أبي الفضل عباس بن إسماعيل بن عساكر بن شافع بن رافع بن عبد الله بن فارس الكناني العسقلاني(٣) سبط الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء رابع عشرين شعبان المكرم سنة ثلاثين وسبعمائة، ومولده في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وأربعين وستمائة، وكان قد أُضِرَّ عقيب وقعة حمص، أصابه سهم في رأسه من التتار فانصب من دماغه إلى عينيه ما أعماه. رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر نور الدين علي بن شرف الدين يوسف بن مظفر الدين مجاهد مشارف الكَحّالين بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته في ليلة الخميس ثامن شوال، ودفن يوم الخميس ثامن شوال بتربته بالقرافة، ومولده في سنة ثلاث وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصاحب سعد الدين محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عطايا(٤) في يوم السبت بعد صلاة العصر السابع والعشرين من شهر رمضان، ودفن بالقرافة في يوم الأحد، وكان إذ ذاك يتولى نظر الأحباس، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/ ٢٣٦، الدرر الكامنة ٤/ ١٧٨ ـ ١٧٩، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٢٧.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٤٢٦.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ١٨٤، السلوك ٢/ ٣٢٧.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٣٢٧، الدرر الكامنة ٤/ ١٨٧.

وتوفي بدمشق الأمير الكبير سيف الدين بَهادُر آص المنصوري في تاسع عشر صفر، وكان من الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالشام، وهو أكبر أمراء الشام تأمّر في الدولة المنصورية السيفية، وصّلي عليه بجامع دمشق ثم صلّي عليه مرة ثانية بظاهر البلد، ودفن بتربته التي أنشأها ظاهر باب الجابية رحمه الله تعالى، ولما مات أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير علم الدين سَنْجَر الجُمَقْدار المنصوري، وهو من أكابر أمراء الدولة مقدمي الألوف ممن يجلس في مجلس السلطان، وتوجه إلى دمشق في يوم السبت السابع والعشرين من شعبان.

وتوفي بدمشق أيضًا الأمير سيف الدين بَلَبان المعروف بالكَرْكَنْد، من مقدمي الألوف بالشام، وأنعم بإقطاعه وتقدمته على الأمير سيف الدين طيبغا حاجي ووصل إلى دمشق في يوم السبت سابع عشرين شعبان.

وتوفي شيخنا المُعَمَّر المحدّث شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن نعمة الصالحي الحجار المعروف بابن الشِّحْنَة[١] قبيل العصر من يوم الاثنين خامس عشرين صفر سنة ثلاثين وسبعمائة بقاسيون، وصلّي عليه يوم الثلاثاء بالجامع المظفري عقيب صلاة الظهر، ودُفن بتربته بقاسيون، وكان قد تفرّد برواية صحيح البخاري، فإنه سمع على ابن الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة، وكان يقول: كنت أنصرف من السماع على ابن الزبيدي، وأسبح في نهر لورا مع الصبيان، وذكر أن مولده في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأخبر عن نفسه أنه يذكر وفاة الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، وكانت وفاة المعظم في سلخ ذي القعدة أو مستهل ذي الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة، وحدّث هذا الشيخ أيضًا بغير البخاري سمعت عليه صحيح البخاري، في سنة خمس عشرة وسبعمائة، ومُتِّعَ بحواسه إلى حين وفاته، وكان قوي التركيب، وتزوج قبيل وفاته ببكر، وافترعها. رحمه الله تعالى.

وتوفي بحلب قاضي القضاة فخر الدين عثمان ابن القاضي كمال الدين محمد بن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن المسلم هبة الله بن البارِزِي الجُهَنِي الشافعي[٢] فجأة، وكان يُعَلِّم على كتاب، فسقط القلم من يده، واستند إلى الحائط فمات وقت العصر من يوم الأربعاء العشرين من صفر، وصلّي عليه بكرة الخميس، ودُفن داخل المقام وكان رحمه

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، السلوك ٢/ ٣٢٦، الدرر الكامنة ١/ ١٤٢.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٣٢٥، شذرات الذهب ٦/ ٩٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٦٨، الدرر الكامنة ٢/ ٤٤٨.

الله تعالى حسن السيرة في ولايته، ومولده في ذي الحجة سنة ثمان وستين وستمائة بحماة، رحمه الله، وفُوِّضَ قضاء حلب بعده للقاضي شمس الدين بن النَّقِيب[(١)] قاضي طَرابُلُسَ نقل منها إلى حلب، وولي قضاء المملكة الطرابلسية القاضي شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي المعروف بابن المجد[(٢)] وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة ولم يطل مقامه بطرابلس فإنه مات في يوم الأحد سادس رمضان. رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الأربعاء سابع شوال الصدر جلال الدين محمد بن وجيه الدين سليمان بن همّام بن مرتضى المعروف بابن البياع[(٣)] أحد كتّاب الدرج بدمشق ودُفن من الغد بسفح قاسيون، ومولده في سنة خمس وخمسين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة بدمشق الأمير علاء الدين قلبرص ابن الأمير الكبير علاء الدين طيبرس الوزيري[(٤)] أحد الأمراء مقدمي الألوف بالشام، وكانت وفاته ببستان قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى، وصلّي عليه عقيب صلاة الجمعة بالجامع المُظَفَّرِي، وخلف ولدًا ذكرًا اسمه ناصر الدين محمد عمره نحو عشرين سنة، وابنتين: خديجة وعائشة، وأوصى لألْزامه وعُتَقائه بجملة كبيرة من الذهب تقارب عشرة آلاف دينار، وكان رحمه الله تعالى رجلاً جيدًا خيِّرًا عفيفًا حسن المعاملة.. كثير الصدقة رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق أيضًا في ليلة الخميس رابع عشر ذي القعدة الفقيه الفاضل بدر الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي الوفا بن نعم الله بن أبي الوفا العَزّازي[(٥)] أحد كتّاب الدَّرْج بدمشق، وصلّي عليه ظهر يوم الخميس بالجامع الأموي، ودُفن بتربة والده بمقبرة الباب الصغير، ومولده في سنة ست وسبعين وستمائة. وكان رحمه الله تعالى حسن الصورة والهيئة والكتابة، كتب في ديوان المكاتبات مدة بدمشق زيادة على عشرين سنة، وكان حسن الصحبة، كثير المودة وله نظم ونثر، رحمه الله تعالى وإيانا.

---

(١) ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٤، الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩، السلوك ٢/ ٣٢٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٣٩، الدرر الكامنة ٤/ ١٣٩.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٥٠.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٥، السلوك ٢/ ٣٢٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٢.

(٥) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٥٥.

وتوفي أيضًا بدمشق بعد العصر ـ من يوم الخميس العشرين من ذي الحجة ـ صاحبنا الصدر محيي الدين محمود بن محمد بن محمد التميمي شرف الدين محمد بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن سعيد بن حمزة التميمي المعروف بابن القَلانِسِيّ[١] ببستانه بقَرَى، وصلّي عليه عقيب صلاة الجمعة بالجامع المُظَفَّرِي، ودُفن عند والده بتربة قاضي القضاة نجم الدين بسفح قاسيون، وكانت جنازته مشهودة، وكان رحمه الله تعالى رجلاً حسنًا جيدًا عاقلاً متواضعًا، ومولده في سنة سبع وسبعين وستمائة.

وتوفي قُدُودَار[٢] مُتَوَلِّي القاهرة المحروسة في يوم الأربعاء سادس عشر صفر، وأنعم بإمرته على الأمير ماجار القَبْجاقي، وأصل قُدادَار هذا من مماليك الأمير بُرُلْغِي الأشرفي، وترقى إلى أن ولي كشف الغربية، وولاية البحيرة من أعمال الديار المصرية، ثم ولاية القاهرة، وتمَكّن منها تَمَكُّنًا زائدًا، وكان جريئًا على الدنيا، ثم صرف عن ولاية القاهرة بناصر الدين محمد بن المحسني، وأقام في داره إلى أن خرج للحج، ثم عاد وهو مريض، فلزم الفراش إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وتوفي الأمير بَلَبان الديسني في الخامس عشر من ربيع الأول، وانتقلت إمرته إلى بُرُلْغِي الناصري.

وتوفي من أمراء العشرات القَفْجاقي الذي كان قد راح رسولاً لبلاد أوادر في تاريخه.

وتوفي الأمير سيف الدين نائب السلطنة، وانتقلت إمرته إلى بكمان.

وتوفيت زوجة أمير مسعود الحاجب خامس شوال، وتوفيت بنت بيكتا الساقي في سادس صفر.

وتوفي محمد بن محمد الرومي شيخ خانقاة بَكْتَمُر الساقي بالقرافة يوم الأحد ثالث وعشرين ذي الحجة، وتولى مكانه الشيخ شمس الدين زاده الدَّوْقاتي، رحمه الله تعالى وإيانا.

وتوفي بمكة ـ شرّفها الله تعالى ـ أواخر جمادى الآخرة ـ الشيخ الإمام الفاضل القاضي نجم الدين أبو حامد محمد بن القاضي جمال الدين محمد بن الشيخ الإمام

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/٣٣٨.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٣، والدرر الكامنة ٣/ ٢٤٤، السلوك ٢/ ٣٢٧.

المحدّث محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي[١]، قاضي مكة شرّفها الله تعالى، ودفن بمقبرة المَعْلَى، ومولده بمكة في سنة ثمان وخمسين وستمائة، رحمه الله وإيانا، وولي قضاء مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ بعده ولده شهاب الدين أحمد[٢].

تمّ الكتاب

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠، شذرات الذهب ٦/ ٩٤ ـ ٩٥، الدرر الكامنة ٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) ولد سنة ٧١٨هـ، وتوفي سنة ٧٦٠هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٨٨، الدرر الكامنة ١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).



فهرس المحتويات